يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

李 呂 韓 賀 董

خفير الملثمات

للروائي الفرنسي المعاصر

"موريس ديكوبرا"



القصة التي تصور حرب الجاسوسية بين حكومتي (فورموزا) و الصين الشعبية!

موريس ديكوبرا

سفينة الملذات



LE BATEAU DES MILLE CARESSES
PAR
MAURICE DEKOBRA

٢٠٠ صفحة - ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

ثمار الكتاب

مشاعل الفكر عند الاغريق

الكتاب الواحد والاربعون

سفينة الملذات

ترجمة : الدكتور نظمى لوقا

الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالميه)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . أما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) الخطيئة الاولى ، أوديب ، مدام بوفارى ، (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون ، الظمأللحب ، جين اير (ثلاثة اجزاء) ، فاتنات الرجال ، رجال ونساء ، الثأر للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، أسرار الجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة أجزاء) بوهيمى ، اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ، قصص من الصين ، نزالى بلزاك ، الالياذة (٣ أجزاء) ، قصص من روما ، المسبحة (جزءان) وثمن النسخة ١٠ قروش ، عدا الاعداد : ١ و ٤ و ٧ و ١٩ و ٢٢ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ ـ ١٢ قرشا ، والاعداد ٣ و ٥ و ٦ـ ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

القصة .. مرآة للاحداث الدولية !

عزيزي القارىء :

من أقوى ما يستند اليه دعاة « الواقعية » فى الادب القصصى ، أن القصة يجب أن تكون مرآة للاحداث الجارية التى تحيط بالكاتب . وقد كان المقتنعون بهذا الاتجاه يقتصرون — فى الغالب — على الاحداث التى تجرى فى الوسط الذى يعيش فيه الكاتب ، أو — على الاكثر — فى بلده .

ولكن عصر السرعة ، وانتشار الطائرات واللاسلكى ، قرب بين البلدان والبيئات ، بحيث أصبحت الاحداث الكبرى التى تجرى فى مكان ما من العالم ، تدوى فى العالم بأسره ، وتهز نفوس أهله قاطبة .. **وقد انعكس هذا التطور على القصة ، فأصبحت فى بعض المناسبات الكبرى — كما حدث فى الحرب العالمية الثانية — مرآة الاحداث العالمية ، لا المحلية ، ولا القومية وحدها !**

والقصة التى أقدمها لك اليوم — « سفينة الملذات » — من هذا النوع . فان الحرب العالمية الثانية ، خلفت أحداثا دولية ميدانها الاكبر هو الشرق عامة .. الشرق الذى انتفض أخيرا لكى يتخلص من أطماع الغرب الذى ظل يستعمره طويلا ويمتص دماءه . **وقد قدر للموقف الراهن بين الصين الشعبية وحكومة « شانج كاى شيك » فى (فورموزا) أن يكون صورة صادقة لهذا الصراع بين الشرق والغرب ..** الشرق الممثل فى الصين الشعبية التى نهضت لتحتل مكانها فى العالم ، كدولة كبرى ، قوية ، عاملة .. والغرب الممثل فى حكومة (فورموزا) ، التى

ارتضت لنفسها أن تكون مخلب القط فى يد أمريكا الطامعة فى السيطرة والاستعمار !

ولقد انعكس هذا الصراع على خيال الروائى الفرنسى الكبير ((موريس ديكوبرا)) الذى طاف ـ خـــلال العشرين عاما الاخيرة ـ بمختلف بقاع الشرق ، وارتاد القارة الاسـيوية ، وعاش فى مختلف الاجواء التى تسيطر عليها : من الجو الشاعرى المشوب بروحانية الشرق القديم وتصوفه ، الى الجو العابث الذى نفث فيه الاستعمار الغربى ـ بسياستـه وأطماعه ـ فسادا وتهتكا ، الى الجو السـياسى الذى يبث فيه الغرب دسائسه ومؤامراته فى سبيل الوصول الى غاياته الدنيئة !

فى هذه الاجواء عاش ((ديكوبرا)) سنوات ، واستخلص منها هذه القصة الرائعة ، الحافلة بالمخاطـرات ، والمفاجآت .. والمشحونة بالعواطف ، وألوان الهوى والشهوات !

ومـن الطبيعى أن يحـاول ((ديكوبرا)) أن يتحـامل ويتحيز بعض الشىء ـ على الاقـل ـ وأن يعـرض ببعض مظاهر الحياة والسياسة فى الشرق ، جريا على عادة الكتـاب الغـربيين ، رغم أنه كشف ـ دون أن يفطن ـ عن خسـة الجاسوسية الغربية ، فى موضوع القصة ذاته ، وهو التوسل ببائعات الهوى للحصول على أسرار الصين الشعبية .. ولم يكن ثمة بد من أن نطهر القصة من بعض السموم التى دست عن قصد بين السطور ، فخرجنا بها عن دائرة الادب الصرف ، الذى تلتزم ((مطبوعات كتابى)) ازاءه ، مبدأ ((الترجمـة الكاملة الامينة)) .. **وان لم ينل هذا من روعة القصة وقوتها ..**

انها لون جديد من ألوان القصة ، يحلق بك الخيال فيه بين الهوى والدسائس .. فلأدعك الآن تتعرف عليه !

المحرر

سفينة الملذات

للروائى الفرنسى الكبير: "موريس ديكوبرا"





الفصل الاول

ملاكان حارسان .. خير من ملاك واحد !

• **كان** الليل وضيئا ، والامواج تعكس الاضواء المنبعثة من الزوارق التى ازدحمت فى الميناء ، ومن مصابيح التحذير التى تحدد أمكنة سفن البضائع .. ومن كشافات الزوارق البخارية ، ومن ألوف المصابيح التى تزخر بها (هونج كونج) وترصع سفح (جبل طارق) الاسيوى .. وعلى رصيف الميناء ـ حيث يغدو ويروح بقية من العمال والمتعطلين المتسكعين ، من ذوى العيون المنحرفة ـ ظل « فرانسيس أرنولد » يتمشى جيئة وذهابا ، فقد ضربوا له موعدا للمقابلة عند مرسى السفينة القادمة من (كاولون) . وكان قد حضر فى الساعة التاسعة تماما ، تدفعه اللهفة ، بعد أن أحيت الرسالة التى تلقاها موات آماله .

وظل فرانسيس يترقب الرجل الذى يقترب منه وفى يده اليمنى الخطاب الذى كان « فرانسيس » قد أرسله ـ منذ

عشرة أيام – الى الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير رقم ٣٤٠ بشارع (فيكتوريا) .. وتساءل « فرانسيس » وهو يذرع الرصيف : **لماذا استدعته ادارة هذه الشركة للمقابلة ليلا – بعد مواعيد العمل فى المكتب – بدلا من استدعائه الى مقر المؤسسة الرسمى ، حيث تقضى العادة باستقبال رجل مثله يطلب عملا ؟ !**

والواقع أن « فرانسيس أرنولد » كان قد أوشك على الافلاس ، وأخذ ينفق البقية الباقية من دولاراته .. وكان قد اتجه الى قنصلية فرنسا ، حيث استقبلوه بشىء من عبارات التشجيع ، وبالوعود بأن يحاولوا اخراجه من أزمته .. ولكنه لم يظفر بطائل ! .. فليس من اليسير أن يعثر قائد طائرة على أعمال ثانوية كتلك التى يجدها ساقى المقهى حين يتعطل عن عمله الثابت . ولقد فكر « فرانسيس » – تحت ضغط الظروف البغيضة – فى أن يعرض خبرته الفنية على سلطات الصين الحمراء فى (كانتون) . بيد أن هذا التفكير لم يدم الا برهة وجيزة ، لانه قدر أن ماضيه فى خدمة ديموقراطيات الغرب المنحلة ، لن يكون معززا لطلبه .. وحتى لو أنهم قدروا مزاياه المهنية ، فليس من شك فى أنهم سيفضلون عليه طيارا قضى خدمته السابقة فى الجانب الآخر من الستار الحديدى ! .. وساءل نفسه – وهو يقطع الرصيف رائحا غاديا – أيكتب عليه أن يلجأ بعد قليل الى مراحم « جيش الخلاص » كى يجد القوت ، أو أن يترك السلطات تعيده الى فرنسا ، باعتباره مسافرا متسللا اختبأ خلسة فى الباخرة ؟ !

* * *

• **وفجأة** ظهر صينى بدين ، ربعة القامة ، ذو بطن بارز ، ورأس عار أصلع كأنه بيضة فى ملاسته ! .. وعليه بذلة كاملة من صوف « الالباجا » ، كثيرة الغضون . ووقف الرجل

خلفه ، ثم استخرج من جيبه خلسة ذلك المظروف الذى اتفق على اعتباره آية لفرانسيس ، فأخرج فرانسيس من جيبه المظروف الآخر الذى كان يتضمن الرد . وافتر فم الصينى البدين عن ابتسامة عريضة كشفت عن لثته التى تعلو أسنانه المصفرة ، وأشرق بها محياه المستدير الذى ينبىء عن طيبة ، ثم تمتم باللغة الانجليزية ، ولكن فى لكنة أجنبية واضحة : « مستر أرنولد فيما أظن ؟ »

– نعم . هو أنا .

– هل لك فى أن تتبعنى ، اذا تكرمت ؟

– طبعا ... الى من أتشرف بتوجيه الخطاب ؟

وراقت هذه العبارة المهذبة للصينى البدين ، فضم يديه أمام صدره ، وانحنى انحناءة عميقة حتى لا يكون أقل تأدبا من الفرنسى . وقال : « أنا شو لى لانج . مندوب الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير » .

– تشرفنا يا مسيو شو لى لانج .. وأين ستذهب الآن ؟

– سأقودك الى السيد مدير الشركة .

– فى شارع فيكتوريا رقم ٣٤٠ ؟

فهز الصينى البدين رأسه بالنفى وقال : « بل فى داره ! »

فأظهر « فرانسيس » الدهشة . واستطرد المندوب الذى كان يخب الى جواره – بسبب قصر قامته وبدانته – قائلا ببساطة : « انه يفضل أن تكون المقابلة فى البيت » .

– وهل يكون تطفلا منى أن أسألك عن اسم مديرك ؟

– ليس هذا سرا ، فان اسمه موجود فى دليل تليفون (هونج كونج) .. انه يدعى « فان لونج »

وسار الرجلان بين العمائر الشاهقة ، والفنادق ، والمصارف والمكاتب والمتاجر الكبرى التى كانت تتلألأ بينها – هنا وهناك – لافتات « النيون » المتعددة الالوان . ولو لم يكن الشارع مزدحما بعربات « الركشة » والعمال الهنود والصينيين ، لاعتقد

المرء أنه فى حى من أحياء مدينة (لندن) الحافلة ، نقل بأعجوبة الى الاراضى الاسيوية !

وبعد أن مر بكثير من الحوانيت الفاخرة ، ومحلات الخياطين الانجليز ، ومتاجر التحف التى تباع للسائحين ، دخلا الى (هونج كونج) الصينية بمعنى الكلمة .. (هونج كونج) التى لا تذوق النوم أبدا .. (هونج كونج) التجار والفنانين والحوانيت الخشبية والرايات الملونة والاطعمة الغريبة التى تقدم فى الهواء الطلق ! .. وتسللا فى منعطف الى اليمين ، ثم الى اليسار ، بين تيه من بيوت غير متناسقة ، وبنايات من كل نوع ، و « فيلات » كانت صبغتها العصرية تزداد كلما أوغلا الى الداخل . كما اخذت تزداد مظاهر الترف والرفاهية كلما صعدا ذلك الجزء المشيد من المدينة على تل صخرى !

وعرج السيد شو لى لانج على شارع عريض قليل الضوء ، يفضى الى القمة .. ثم وقف أمام حديقة مترامية على سفح تلك الهضبة ، ظهرت فيها يد العناية والتنسيق بما أينع فيها من أزهار . وكانت « الفيلا » كبيرة ، مربعة ، بيضاء اللون كالبيوت الايطالية ، تحيط بها أشجار الكافور من كل جانب . ودق السيد شو لى لانج الجرس . فظهر خادم صينى .. **واقتيد « فرانسيس » الى الداخل ، دون ما كلام ، ثم رجاه المندوب أن يتفضل بالجلوس ، واختفى على الفور ، بعد أن قال له : « أن السيد فان لونج سيقابلك حالا ! »**

ولم يكن الصالون مضاءا الا بمصباح واحد ، تظلله طرفة من الحرير على شكل معبد صينى بلون « الكرز » . أما الارض فكانت مكسوة بفسيفساء متعددة الالوان ، فوقها أبسطة فاتحة اللون حريرية الملمس .. كما اسدلت على النوافذ ستر ثقيلة صفراء ، مطرزة . وكان الاثاث كله من خشب الصندل ، والمقاعد الوثيرة محلاة بفراء الثعالب الفضية . فما من شك فى

أن مدير الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير كان ينعم بذوق رفيع ويهوى جمع القطع الفنية ، مما نمت عنه تلك المجموعة الفاخرة من التحف العاجية العتيقـة ، التى ترجع الى عصر « منج » ، والتى كانت تبهر النظر خلف واجهـة زجاجيـة ضخمة ، مضاءة من الداخل .

وكان فرانسيس يتأمل ــ من بعيـــد ــ تلك التحف التى جمعتها يد خبير ، حين سمع حفيف ثياب من خلفـه . واذا السيد « فان أونج » قد دخل فى صمت ، منتعلا خفا سميكا ، وعليه ثوب صينى بديع الشكل ، أزرق حالك كالليل ، يشبه طيلســانا من قطعتين . فوقف « فرانسيس على الفور .. وسأله الصينى : « السيد فرانسيس أرنولد ؟ »

ــ نعم يا سيدى هو أنا .

ــ حسن جدا . لقد كلفت مندوبى بأن يأتى بك الى هنا لسببين : الاول هو أنى لا أريد أن أدخل الى مكاتبى أشخاصا لا أدرى بعد ما اذا كانوا سيعملون فيها أم لا .. والثانى هو أن خطابك استرعى انتباهى من بين أربعين خطابا أخرى تلقيتها ردا على اعلانى .

وكان فرانسيس عارفا بأحـــوال الشرق الاقصى ، معرفة تكفيه كى يحدس أن هذا الصينى الذى كان يتكلم الانجليزية بطلاقة ، انما كان ــ يقينا ــ من نتاج هجين ، وليس من أهل (كانتون) أو (شانغهاى) . اذ كانت له قامة أهل منشوريا وأكتافهم العريضة ، ولكن ملامحه الدقيقـــة كانت تشى بدم مختلط . ولعل أمه كانت برتغالية وأبوه صينيا !

وصفق الرجل بيده فقدم أحد غلمانه الشاى الاخضر ، ثم توارى . ودهش « فرانسيس » ــ من جديد ــ لهذه المجاملة

التى لم تجر بها العادة عند استقبال شخص متقدم لوظيفة أمين للمخازن !

* * *

• **وجلس** فان لونج بالقرب من منضدة صغيرة ، ثم أخرج – من صندوق من خشب الصندل المزخرف – ذلك الخطاب الذى كان « فرانسيس » قد وجهه اليه ، فبسطه أمامه ليستعين به فى الحديث ، وقال :

– أرى يا سيد أرنولد ، بناء على البيانات التى أرسلتها الينا ، أنك مواطن فرنسى .. ولدت فى باريس سنة ١٩١٩ ، وتلقيت بها دراستك الثانوية ، وكنت طيارا حربيا تحت التمرين – قبيل سنة ١٩٣٩ – **ثم أصبحت طيارا فى سنوات الحرب ، وسقطت بك الطائرة مشتعلة فى (بلجيكا) ، ونلت وسام الجرحى ، وقضيت ثلاث سنوات أسيرا ، ثم هربت ، وعدت الى الخدمة فى قوات فرنسا الحرة .. وحصلت على أوسمة الخ .. الخ ..** عظيم ! .. هذا تاريخك العسكرى .. أما الذى يعنينا نحن ، فهو نشاطك المدنى منذ وضعت الحرب أوزارها فى أوروبا . انك أصبحت طيارا فى خطوط شركة « أزوريو » ، ولكنك لا تشير هنا الى السبب الذى تركت من أجله تلك الشركة بعد أربع سنوات من الخدمة !

– لاسباب شخصية .. فقد نشب صدام عنيف بينى وبين المدير التجارى للشركة ، اذ انتزع منى صديقة عزيزة !

– ماذا تعنى بمصادمة عنيفة ؟

– لقد هشمت وجهه أمام ثلاثمائة شخص فى محطة (أورلى) ، وهو عائد من (استانبول) ، فأكرهت على تقديم استقالتى .

– انك لعنيف يا سيد أرنولد !

– بل انى أقدر انسان على تمالك أعصابى ، بيد أن هناك

اهانات لا يمكن أن تغتفر !

ـ تذكر أن الثور الهائج يكسر قرنيه فى نطاح الجدار ، أما الثعبان فيتسلل فى يسر خلال أضيق فجوة لا تكاد تبصرها العين . ولكن لندع الامثال والحكم الصينية الآن ، وان كانت ركازة الحكمة البشرية منذ ألوف السنين ! .. خبرنى ، كيف اتفق لك أن تكون متعطلا فى (هونج كونج) ، مع استعدادك للقيام بأى شىء ، بدليل أنك تقدمت لمثل هذه الوظيفة المتواضعة ؟

ـ هذا أمر غاية فى البساطة . فاننى ـ منذ تركى شركة « أزوريو » الجوية ـ التحقت بالعمل فى شركة للنقل الجوى ، فكنت بمثابة سائق « التاكسى » ، وقدت طائرات من جميع الانواع ، لنقل شحنات ثقيلة .. وقادنى هذا الى الشرق الاقصى ، والى الهند الصينية ، ثم الى (هونج كونج) ، حيث استغنت الشركة عن خدماتى ، لانها ـ كما تستطيع أن تتحقق بنفسك ـ قد أعلنت افلاسها . وأصارحك بأننى قد استنفدت مدخراتى كلها ، ولهذا قدمت الطلب الذى بين يديك !

وظل السيد فان لونج مصغيا لهذه التفاصيل باهتمام خاص ، ثم سأله : « كم عدد ساعات طيرانك ياسيد أرنولد ؟ » . فأجاب : « ٦٥٤٠ ساعة .. وهاك بطاقتى ! »

ـ أعتقد أنك حلقت بأنواع مختلفة من الطائرات ؟

ـ لا أزعم انى قدت جميع الانواع تماما ، وانما .. كلها تقريبا .. من أصغرها ، الى « الكونستاليشن » الضخمة .

فقال السيد « فان لونج » : « عظيم ! » . وأشعل سيجارة ، وأمعن النظر طويلا فى « فرانسيس » من خلال الدخان ، وكأنه يزن ـ عن بعد ـ جليسه ، ويقدر طاقته واستعداداته البدنية وصفاته المعنوية . وكان « فرانسيس » فى عجب من هذه الاسئلة ، لا سيما ان الامر كان يتعلق بوظيفة أمين مخزن فحسب . ولذا قطع حبل الصمت بقوله : « هل لى أن أسأل



عن نوع المبادلات والصفقات التى تقوم بها شركتكم ؟ »

ـ أننا نشترى من الاوروبيين ونبيع للصينيين .. والعكس بالعكس ، وسلعنا هى المصابيح الكهربائية ، وأجهزة الراديو ، وآلات التصوير ، والرادار ، والادوات الكهربائية ، والعقاقير .. ألخ .

وغمغم فرانسيس : « فهمت ! » . بينما اضطجع « فان لونج » مسترخيا فى مقعده ، شأن الرجل الذى لم يكن ينوى أن يضع حدا سريعا للمقابلة . ثم وجه فجأة الى « فرانسيس » سؤالا لم يكن مرتقبا ، اذ قال :

ـ ما هى معتقداتك السياسية يا سيد أرنولد ؟

وكان فرانسيس يرى أن المعتقدات السياسية لا يمكن أن تكون ذات قيمة بالنسبة لشخص يطلب وظيفة أمين مخزن ـ فى (بدروم) مؤسسة للتصدير ـ ويتولى اعداد الطرود . فأجاب بحرارة وعن صدق : « لا شىء ! »

ـ أتشعر بنفور واضح من الفاشيين أو الشيوعيين ؟

ـ اسمح لى أن أقول لك بأن المعسكرين سواء فى نظرى من حيث عدم الاهمية .. فلا بد الانسان من أن يأكل أولا ، ثم يفكر فى السياسة بعد ذلك !

ـ ان صراحتك تعجبنى . والآن لنتكلم فى الموضوع : لقد تلقينا ـ كما قلت لك ـ أربعين طلبا لائقا ، ردا على اعلاننا . فلماذا ترانى وضعت ظلبك أنت على حدة ؟ .. لانك تدخل فى زمرة الرجال الذين نحن بحاجة اليهم . فلقد كان اعلاننا فى صحيفة « هونج كونج هيرالد » غامضا ، لاننا غير ميالين الى اظهار نوع المعاونين الذين ننشدهم . فالمنافسة شىء لا بد من التحوط دونه فى (هونج كونج) أكثر مما فى أى موضع فى العالم ! وكونك طيارا قديما مجربا يعزز مركزك لدينا !

وتقبل « فرانسيس » ايضاح السيد « فان لونج » ، اذ منذا الذى يدرى ؟ .. قد تكون هذه سمة من سمات النفسية الاسيوية الحذرة الملتوية ، التى تنشر اعلانا عن طلب غواصين، بينما تكون ـ فى الحقيقة ـ بحاجة الى بهلوانات فى السرك ! .. ولكنه تساءل مع ذلك : « ما أظن أن أمين المخازن الذى تنشدونه ، يعمل كثيرا فى السحاب ؟ »

ـ بل هو يمارس عمله هناك بالذات !

فرفع فرانسيس حاجبيه ، واستطرد « فان لونج » قائلا : « ان نظامنا فى التسليم السريع ـ رعاية منا لبعض العملاء الذين يقطنون خارج (هونج كونج) ـ يلزمنا بالالتجاء الى خدمات طيار خاص ! »

وهنا بدأت المسألة تثير اهتمام فرانسيس ، فقال باسما : « اذا كنت يا سيدى محتاجا الى سائق نقل طائر ، فاعتقد أن خبرتى تساعدنى على القيام بذلك العمل . ما نوع طائرتكم ؟ »

ـ « البتروس » خفيفة .. بمحركين .

ـ اعرف هذا النوع ، فهو من صناعة « وست لاند » ، وسرعته ٦٥٠ كيلو مترا فى الساعة ، وحمولته الكاملة ثلاثة أطنان .. ويرتفع الى عشرة آلاف متر .

ـ بالضبط .. هل تستطيع أن تقوده ؟

ـ واصابعى فى أنفى !

ـ عفـــوا ؟ !

ـ هذا تعبير شائع لدينا .. أردت أن أقول اننى أستطيع قيادة الطائرة دون أدنى صعوبة .

ـ عظيم . وهل تقبل يا سيد أرنولد العمــل شهرا تحت الاختبار ، كطيار للشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ، فى مقابل خمسمائة دولار أمريكى ؟

ـ أجل يا سيدى .

ـ ان لطائرتنا طاقما من الميكانيكيين ، وملاحا .. وسنتولى تقديمهم اليك والطائرة فى محطة الطيران المدنى فى (فير فيلد) ، وستذهب غدا للتعرف عليها وعلى طاقمها .. وسأصدر الاوامر باستقبالك فى الحظيرة الخاصة بالطائرة ، ثم تقوم بتجربتهـا فى الجو ، وتقدم لى تقريرا عن ذلك فى مكاتب الشركة ـ بشارع (فيكتوريا) رقم ٣٤٠ ـ حوالى الساعة الخامسة ان أمكن !

ونهض فان لونج وقرع طبلا نحاسيا لاستدعاء مندوبه . ثم التفت نحو فرانسيس وقال له : « وعلى فكرة .. لا أظنك تستاء اذا دفعنا اليك غدا مائة دولار تحت الحساب ، خصما من مرتبك ؟ » . فأجاب فرانسيس : « بل اننى أكون ممتنا لك جدا يا سيد فان لونج » .

* * *

• وظهر « شو لى لانج » لدى الباب ، فأمره « فان لونج » بأن يرافق السيد أرنولد . وانحنى فرانسيس ثم خرج ، فصحبه المندوب مخترقا الحارات المتعرجة المظلمة . وسأله بابتسامته التى كانت تفيض تفاؤلا : « وبعد يا سيد أرنولد . ما هى نتيجة مقابلتك للمدير ؟ »

ـ يا سيد شو لى لانج ، لقد عينت بوظيفة طيار !

ـ عظيم جدا . عظيم جدا ! .. من المؤسف حقا اننا لسنا

بعد فى اليوم السابع من الشهر القمرى السابع ، فان ذلك كان حريا بأن يعد فالا حسنا لك ! .. ولكنك كافر قادم من الغرب . ولا شك فى أنك تسخر من معتقداتنا . ولكنى لو كنت مكانك لتقدمت بصلاة ليلية قصيرة ، فى معبد « كوان ين » ، آلهتنا التى تحمل السعادة والحظ الحسن الى البشر !

ــ طبعا يا سيد شو لى لانج ، ولكن .. فى مرة أخرى » فأنا متعب الليلة ، ويجب أن أذهب غدا الى مطار (فيرفيلد) .

ــ عفوا يا سيد أرنولد .. ستنتظر آلهتنا ، « كوان ين » ضراعتك ، فلا تهمل أمرها ، اذ أنها تحمى من يحبونها .. ان لديكم ــ فى عقيدة يسوع ــ ملائكة حارسة ، على ما أعتقد .. أليس كذلك ؟ أذن فلو اننى كنت فى مكانك ، لطلبت الى ملائكتكم الحارسة من جهة ، والى « كوان ين » من جهة أخرى ، أن تسهر على .. فان ملاكين حارسين أفضل من ملاك واحد !

ــ لقد اعتدت المخاطر يا سيد شو لى لانج ، اذ قضيت محلقا بين السحب أكثر من ستة آلاف ساعة !

فنظر المندوب الى « فرانسيس » من ركن عينيه ، ولم يعلق بشىء . ثم وقف عند ناصية شارع شديد الانحدار نحو المدينة المنخفضة ، وقال : « هل تعرف طريقك من هنا يا سيد أرنولد ؟ »

ــ نعم .. أشكرك يا سيد شو لى لانج ، وسأراك بالطبع غدا فى مكاتب الشركة !

فحياه المندوب ، ثم دار على عقبيه واختفى فى ظلام الليل . ولم يجد « فرانسيس » أدنى مشقة فى العودة الى شارع (رادزال) ، حيث كان ينزل فى فندق « الملك ادوارد » . وهو نزل صغير يؤمه ضباط البحرية ، وصف ضباط الحامية الانجليزية ، ونفر من صغار الموظفين فى الادارة المدنية لصاحبة الجلالة .

وما أن رقد في فراشه حتي انفسح له الوقت لاستعادة

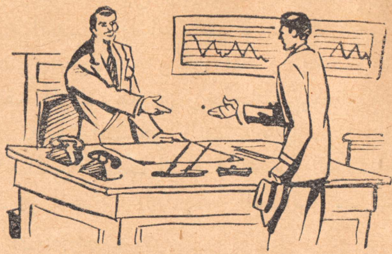
غامض لم يكن « فرانسيس » يدرى عنه شـــيئا فى الوقت الحاضر . ولكن المندوب المطلع كان يتوقعه ؟ ! .. اللهم الا أن يكون السيد «شو لى لانج» مصابا بفزع عصبى من الطائرات ، الامر الذى قد يبرر مخاوفه المنطوية على ود !

وتنهد « فرانسيس » بارتيـاح الرجل الذى أدار الحظ وجهه اليه بعد طول ادبار . ثم ضرب بقبضة يده وسادته ، ونام .. وفى تلك الليلة ، رأى فى أحلامه السماء تمطر دولارات أمريكية ، كأوراق الشجر حين تهب عليها رياح الخريف . ورأى نفسه يجمعها بخفة ، وحبور فى جوف قبعته !

خواطـره . فان مقابلته الانفرادية مع « فان لونج » فتحت أمامه أبواب الامل فى تحسن الحال . اذ أن قيادة طائرة الشركة أفضل كثيرا من اعداد الطرود أو احصاء المصابيح الكهربائية فوق الرفوف المتربة ! .. وبعد أن انقضت هـزة السرور بالحصول على وظيفة مرتبها خمسمائة دولار ، راح فرانسيس يفكر فى عبارات « فان لونج » ، فان الحديث المتبادل – فى حجرة التدخين بدار مدير الشركة – لم يخل من أمور غريبة غير منتظرة .. ذلك أن فرانسيس دعى لعمل استدرج اليه دون أن يمت بصلة الى نص الاعلان . كما أن الرجل الذى استقبله لم يكن يشبه فى شىء تاجرا عاديا من تجار المصابيح، او العقاقير، أو أقراص الحاكى .. وهناك ذلك السؤال الطارىء ، الخاص بمعتقداته السياسية . فما شأن السياسة بتسليم أنابيب الاسبرين والساعات الدقاقة ؟ ! .. ثم هناك مسألة يحسن الوقوف عندها ، وهى : لماذا تملك الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير طيارة خاصـة ، لارسال السلع الى عملائها ، فى حين أنه كان من الايسر استخدام السفن الساحلية التى تجوب المنطقة بالاجر ، أو استخدام الطائرات التى تملكها الشركات المدنية للطيران فى الشرق الاقصى ؟ !

كل هذه الاسئلة بدت بغير جواب فى الوقت الحاضر ، وظلت تدور فى تلافيف مخ « فرانسيس » ، متواثبة لاتستقر . وفجأة تذكر عودته مع المندوب ، والتلميح الخفى من الرجل الصينى الى كرامات الملائكة الحارسة والآلهة « كوان ين » ، وفضلها فى حمايتنا من المخاطر الخفية العارضة .. بل أن السـيد « شو لى لانج » أضاف الى ذلك قوله بانجليزيته المنغومة :
« ملاكان حارسان خير من ملاك واحد ! »

أكان هذا تحذيرا ونذيرا ؟ .. أتراه كان تلميحا الى خطر



الفصل الثانى

بار اللوتس الاسود

• لم يكن بار « اللوتس الاسود » – القائم على رصيف الميناء أمام مرساة السفن التى تعمل بين (هونج كونج) و (ماكاو) – يشبه فى شىء مأوى القراصنة ، كما قد يوحى بهذا الظن اسمه . فليس بين زبائنه ورواده أحد من القراصنة الذين يضعون على عيونهم المفقوءة عصابات سوداء ، أو يغطى الوشم الفظيع صدورهم العريضة . **وانما هو مشرب وادع ، خاضع لرقابة الشرطة ، لا تقع فيه حوادث القتل ، بل تحتسى فيه المشروبات الروحية المختلفة ، وتلك البيرة التى يؤثرها ملاحو بوارج صاحبة الجلالة البريطانية ، عندما ترسو وحدات أسطول الشرق الاقصى فى ميناء (هونج كونج) .**

ولقد كان يدير « اللوتس الاسود » صف ضابط سابق فى الجيش الهندى ، اسمه « جون ماك فرسن » .. خدم عشرين عاما فى الفرق الجبلية المسماة « سيفورت هاى لاندرز » ، عندما كانت تلك الفرق تضم السيخ وأهل (مدراس)

و (لاهور) وغيرهم ، قبل تحرر الهند .. وقد كان « ماك فرسن » اسكتلنديا شاحب العينين، ذا وجه شديد الحمرة ، وشعر غزير . وهو مخلص ودود ، يستقبل رواد حانته بترحاب ، ويقدم اليهم فى المناسبات كأسا أخيرا من «البراندى» حتى يشجعهم على العودة . وكان فخورا بمجموعته من السفن الشراعية الدقيقة الموضوعة فى زجاجات بيضاء ، ومن تماثيل « بوذا » المنحوتة فى الصخر الصلد ، ومن التحف الصغيرة الغريبة المضحكة التى جمعها أثناء عمله مع الحملة التى أوفدت الى (مصر) ــ فى الحرب العالمية الثانية ــ لتحارب تحت راية الماريشال مونتجمرى .

وكان « فرانسيس» كثير التردد عليه أثناء تعطله عن العمل ، ليطالع لديه الصحف الانجليزية القديمة ، والمجلات التى كان السائحون ينسونها ، وهو يحتسى قدحا من « بيرة ليدجر » . وكانت لهجة الاسكتلندى ــ المنبعثة من الحلق ــ تروق له ، كما كانت النوادر التى يرويها تسليه وتنسيه همومه !

وفى غداة مقابلته لفان لونج ، ذهب « فرانسيس » ــ بعد العشاء ــ الى « اللوتس الاسود » . وكان قد قضى يوما حافلا بنشاط غير عادى . اذ تعرف الى الطائرة ذات المحركين من طراز « البتروس » ، وحلق بها تحليقا تجريبيا فوق الخليج وفوق البحر . ثم عاد بعد ذلك الى مكاتب الشركة ، التى كانت تزخر بالموظفين الصينيين .. **وأدخلوه الى مكتب السيد « فان لونج » فكاد لا يعرف فى السيد الانيق الذى استقبله ــ مرتديا بدلة أنيقة من « السكروتة » الهندية ، وقميصا أبيض يزينه رباط عنق فاخر ــ ذلك السيد الذى رآه من قبل فى ثوب صينى !**

وكانت أولى كلمات بادره بها السيد « فان لونج » : « والآن ! .. ما رأيك فى هذا الطيران التجريبى الاول ؟ »

ــ أنها طائرة ممتازة ، يا سيد « فان لونج » ! .. مرهفة ،

مستجيبة ، سهلة القياد ، يجد المرء لذة فى قيادتها !

ــ عظيم ! .. مر اذن بالخزينة وتسلم أول اذن مالى . ثم انتظر تعليماتى الجديدة اليك ، فى صباح الغد . فان المهمة الاولى ستكون فى انتظارك !

ودس « فرانسيس » الدولارات فى جيبه ، ثم قدم لنفسه وجبة فاخرة فى قاعة المائدة الفخمة فى فندق « كارلتون » . ولم يكن يعرف أحدا فى (هونج كونج) تقريبا ، لان ضائقته المالية ــ التى استمرت شهورا ــ لم تيسر له الحصول على الويسكى الذى يسهل انشاء علاقات طيبة بالناس . ولما كان متلهفا غاية اللهفة على جمع معلومات عن مخدومه ، فقد خطر له ان صديقه « ماك فرسن » قد يستطيع أن يقدم اليه معلومات ذات قيمة عنه .

* * *

• واذ دخل « اللوتس الاسود » ــ فى نحو التاسعة مساء ــ سره أن وجد أن الرواد كانوا قلة . وكان هناك موظف بالجمرك ، يترنم فى أسى ــ أمام مائدة البار ــ فصاح فرانسيس برب الحانة : « هاللو جاك ! .. انى أدعوك الى كأس من « الجن » المعتق .... تقبل ، فهذا دورى فى تقديم الشراب ! »

وأدهشت هذه اللهجة الطافحة بالسرور ، الرجل الاسكتلندى ، فجاء وجلس بجوار « فرانسيس » وقال له : **« ماذا حدث لك أيها الفرنسى ؟ .. انك تبدو كمن عثرت يده على كنوز ملكة سبأ ! »**

ــ أصبت التخمين يا صديقى ، فلقد حصلت على وظيفة !

وتساءل صاحب المشرب ممازحا : « طباخ ؟ » . فأجابه فرانسيس : « كلا ، بل طيار ! » .. فعاد الاول يتساءل : « اير فرانس ؟ » . فأجاب : « كلا ، عند فان لونج ! »

ــ آه ! فان لونج ...

– قل لى ، ما رأيك فى ذلك وأنت الذى تعرف (هونج كونج) بجميع دخائلها !

– هل أنت حقا فى خدمة فان لونج ؟

– مدير الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير .. أتعرفها ؟

– أعرفها .. أوه ! أن مركزها متين ، وأى مصرف فى الشرق الاقصى يقبل توقيع « فان لونج » وهو مغمض العينين!

– هذا مما يطمئن . وهو مطابق لما قاله لى مدير فندق « الملك ادوارد » . فهل له صفقات ضخمة مع أوروبا ؟

– نعم ! .. أتقول أنه استخدمك كطيار ؟

– .. لطائرة الشركة الخاصة .

– لم أسمع مطلقا من قبل عن مؤسسة للتصدير والاستيراد هنا ، تملك طائرة لحاجاتها الخاصة ، فان السفن تكفى لهذه العمليات .

– ربما كان السبب أنهم أكثر تقدما من منافسيهم ؟

فجعل « ماك فرسن » يعبث بخده ، وشرب جرعة من « الجن » ، ثم سأله وهو يطوى جفنيه على عينيه الشاحبتين : « أتعرف فان لونج هذا ؟ أتعرف من هو ؟ »

– اطلاقا !.. انه مخدومى الجديد ، وقد قابلته فى بيته ذات مساء وهذا كل شىء !

– انه هجين من أم برتغالية وأب صينى . وقد عاش طويلا فى جزيرة (فورموزا) قبل أن ينشىء بيته التجارى فى (هونج كونج) فى سنة ١٩٤٧ .. وقد تعلم التجارة والاقتصاد عندما كان سكرتيرا صغير الشأن فى حاشية « سونج » كبير وزراء المالية وزوج أخت الماريشال « تشانج كاى شك »

وكان اسم « تشانج كاى شك » كافيا لكى يرهف « فرانسيس » أذنيه ، فاذا ماضى « فان لونج » يقترن فى ذهنه بسؤاله اياه عن معتقداته السياسية ، وعما اذا كان مع الفاشية أو الشيوعية .. فما دام مخدومه قد عاش فى (فورموزا)

وعمل تحت رئاسة ((سونج)) ، فمن المرجح أن يكون مخلصا للماريشال المنفى فى جزيرته ! .. وقبل أن يفتح ((فرانسيس)) فمه ، أجاب ((ماك فرسن)) عن ذلك السؤال الذى كان على وشك توجيهه اليه : ((ان الشائع بين الناس أن فان لونج أميل الى تشانج كاى شك منه الى ماوتسى تونج !))

ــ أظن اذن أن معتقداته السياسية اذا تدخلت وأثرت فى مصالحه التجارية ، فانها تدفعه الى المتاجرة مع (فورموزا) وليس مع (بكين) .

ــ لا وجه لهذا الظن ، فلعلك قد لاحظت يا صديقى أن الناس هنا يتاجرون فى أى شىء ومع أى معسكر .. اذ ليس للنقود رائحة .. والذهب أثمن عندهم من الدم المراق !

ــ لقد فعلنا ذلك أيضا فى أوروبا ، خلال حربين عالميتين . فكان المحايدون يتخمون بالمنافع والتجارة السرية مع المعسكرين المتحاربين ، وهم يلوحون بأقدس الشعارات وأنظفها ، فأثروا على أشلاء البلهاء المساكين !

ــ ان (هونج كونج) تعتبر ــ بوجه الاجمال ــ سويسرا آسيا . فنحن محايدون بين الوطنيين فى (تايبه) والحمر فى (كانتون) . ونحن مرفأ التجارات ، ومكمن المهربين والجواسيس ، وملاذ الرأسماليين من أهل (شانغهاى) الذين أودعوا أموالهم وأقواتهم هنا فى حمى التاج البريطانى . وقد باركوا جميعا معاهدة (نانكن) التى قدمت الينا (هونج كونج) على صحفة من الفضة ، فى مقابل صحفة أرز !.. وكم كان الرأسماليون فى (شانغهاى) سعداء بالاحتماء هنا عندما قبض الشيوعيون على زمام السلطة ! .. وكم من مليونير ممن يتقلب اليوم تحت شمس خليجنا ، كان من الممكن أن تبقر بطنه وتترك أحشاؤه طعاما للنسور !

ــ والسيد فان لونج ؟

ــ آه ! .. صاحبك الطيب فان لونج ! .. لقد لمحته يوما ،

رغم أنه لا يتردد كثيرا على « اللوتس الاسود » . كما سمعتهم يتحدثون عنه بما يكفى لتكوين فكرة عن هذا الانسان .. فهو تاجر حصيف بالطبع ، بيد أن غريزتى توحى الى بأنه أكثر من تاجر مصابيح كهربائية وبطاريات جيب ، ومكاو للشعر مما يستخدمه الصينيات الانيقات .. وما دمت فى خدمته الآن فسوف يتسنى لك أن تكون عنه فكرة فى وقت قريب !

* * *

• **ولقد** كان « فرانسيس أرنولد » فى الخامسة والثلاثين من عمره .. تزوج ـ بعد تحرير فرنسا ـ فتاة يقال أنها من أسرة طيبة ، وقد استهواها زى الضابط الطيار وأوسمته .. وكان اسمها « ديانا » ، كاحدى بطلات الروائى « جورج أونيه » . أما اسم التدليل فكان « ديدى » .. وكانت الابنة المدللة لرجل من أثرياء رجال الصناعة ، ترمل وظل ـ منذ بلغت ابنته الخامسة عشرة من عمرها ـ حريصا على تلبية رغباتها ونزواتها .. وقد أوتيت تلك الفتنة المترفعة ، التى تتمتع بها الوارثات من بنات كبار البرجوازيين . وكانت لها قبل الزواج علاقتان غراميتان بعشيقين سرعان ما أصبح أمرهما فى حيز الماضى المفروغ منه . ولكن فترات غياب « فرانسيس » الطويلة ـ فى أسفاره ـ لم ترق لديدى ، التى لم تكن تعترف بنظام للعمل ولا بمواعيد للطيران والرحلات .. **فبعد سنتين من زواج كانت تتخلله مشاحنات متكررة ضاق بها صدر فرانسيس ، وبعد انذارات نهائية تتلخص فى تخييره بين عجلة القيادة وبين « ديدى » ، أصبح الطلاق أمرا لا مناص منه .. وسرحت ديدى زوجها العزيز ليذهب الى سحبه وتحليقاته !** .. ولما وجد فرانسيس نفسه أعزب مرة اخرى ، خاض عددا من المغامرات الغرامية ، عملا بما هو مأثور عن الملاحين من أن للواحد منهم زوجة فى كل مرفأ .. وراح يقتل

الوقت مع راقصات نحيلات من الهند الصينية ، وطالبات من الملايو فى (سنغافورة) . وعرف سكرتيرات من هاويات المغامرات الشاعرية ، ومطلقات مستهترات ! .. علاقات بنت يومها ، فليس لها غد ، ولكنها كانت ترضى شهواته ، وتترك قلبه جائعا !

وفيما كان نهبا للضيق فى آسيا — منذ أربعة أشهر — عثر على شقيقة الروح ، أو على الاقل على رفيقة لطيفة تواسيه فى آلامه .. اسمها « نينا وونج » . وكان والدها — الذى توفى من عهد قريب — من المنشوريين المثقفين .. أما والدتها فكانت روسية مهاجرة ، رائعة الجمال ، كما كان يبدو من صورة فوتوغرافية تحملها « نينا » فى قلادة ذهبية . **وقد أنتج هذا المزيج العجيب من الدماء الاسيوية والسلافية ، ذلك النموذج البديع للانوثة . فقد كانت « نينا » طويلة مثل أبيها ، سوداء الشعر مثل أمها .. وكانت عيناها زرقاوين ، كأنهما جوهرتان من اللازورد تحت حاجبين مقوسين يزيدان من الطابع الشرقى فى سحنتها . وهى رشيقة ملفوفة القوام ، دقيقة المعصمين ، بديعة اليدين ..** فلم يكن عجيبا أن يهيم بها فرانسيس حبا حينما التقى بها فى محلات الاخلاص الكبرى — « جران مجازان سنسير » — وهى فى (هونج كونج) بمثابة محلات « البون مارشيه » فى باريس ، حيث كانت تعمل كخبيرة ترشد السيدات الصينيات فى اختيار الثياب الاوروبية والملابس الداخلية ونوافل الزينة !

ولقد ولدت « نينا » فى (موكدن) ، وتيتمت فى سن الرابعة والعشرين ، فغادرت (بكين) — حيث تلقت علومها — لتستقر فى الجنوب .. فى (كانتون) ، لا سيما وأنها تعلمت لغة كانتون من أمتها التى يرجع أصلها الى (كوانجتونج) !.. حتى اذا ألفت نفسها بغير عائل ولا مال ، عاشت — فى البداية — عيشة شريفة ، وان كانت فقيرة ، اذ عملت كرفيقة بالاجر

للراقصين فى أحد المراقص . وكانت كبرياؤها تمنعها دائما من الانزلاق فى المغامرات الوضـــيعة مع الغرباء من أوروبيين ، وأسيويين ، وهجناء الجنسين السلافى أو الاوروبى والصينى .. **قد ورثت عن أبيها الراحل قوة الارادة والصلابة ، كما ورثت عن أمها الروسية رقة العاطفة والخيال !**

وكم من ثرى بدين قبيح الخلقـــة حاول اغراءها لتكون خليلته الخاصة ، عارضا عليها أن يعولها ، فكانت ترفض تلك العروض باحتقار ، وتقول **أنها لن تمنح نفسها الا للرجل الذى تحبه .. وسواء لديها أن يكون هذا الرجل أميرا أو متسولا!..** وقد عرض لها هذا الرجل فى شخص « فرانسيس » ، الذى لم يكن أميرا ولا متسولا ، بيد أنه لم يكن يعتبر الرجل المثالى لامرأة تكسب قوتهـا بعنـــاء وضـــيق . وكان قد دعاها للعشـــاء .. وفيما كانا يتنـــاولان الحلوى ، قالت له بعد كل ماصارحته به : « لست أقبل أن أشارك رجلا ـ لا يروقنى جسديا وخلقيا ـ فراشا ، ولو فى مقابل مليون تايل .. فانى أفضل فاقتى على بحبوحة العيش والرفاهية مع ثرى بدين أصفر اللون ، ولو أغرقنى بالجواهر النادرة والاحجار الكريمة ! »

وكان فرانسيس قد استهواها منذ الساعة الاولى ، فقالت له فى صراحة أخاذة : **« أنك تعجبنى أيها العـزيز !.. وأنا لا أزال محتفظة بعذريتى .. وعلى استعداد لان أقدمها اليك ! »**

وبصراحة لا تقل عن صراحتها اجابهـا فرانسيس : « ان لاقتراحك هذا أعمق الاثر فى نفسى أيتها العزيزة ، ولكنى لا اصلح لفتاة تنشد الزواج .. فأنا حطام فاشل قذفته المقادير على صخرة (هونج كونج) ، فى حين أنك أهل ـ فى الواقع ـ لما هو أفضل من التضحية بما أوتيت من نعم ، فى ســـبيل الحياة مع مخلوق فقير من طرازى .. انه يسىء اليك اذ يقدم لك خاتم الزواج ! »

وبلطف شـــديد قالت « نينـــا » وهى تربت عـــلى يد

فرانسيس : « ومنذا الذى حدثك فى شأن خاتم الزواج ؟ »

* * *

• **ودامت** علاقتهما أربعة أشهر من غير ارتباط قهرى أو وعود خادعة . وكانت « نينا » تعيش فى بيت أرملة صينية تأويها وتقوم برعايتها فى أمومة .. وفى غداة مقابلة « فرانسيس » لفان لونج ، اتصل الشاب تليفونيا بنينا ، وقال لها فى حبور : « عزيزتى ، لقد حدثت معجزة كبرى ! .. لم أعد مهددا بخبز الصدقة أو بالحساء الشعبى ، فقد حصلت على عمل ! .. تعالى لمقابلتى هذا المساء فى فندق « الملك ادوارد » فى الساعة العاشرة ، وسأقص عليك كل شىء ! »

وكان سرور « نينا » عظيما بهذا النبأ السار . وفى الساعة العاشرة طرقت باب حجرة « فرانسيس » طرقا خفيفا . وكان قد عاد لتوه من بار « اللوتس الاسود » . وأرتمت فى اندفاع ساحر بين ذراعيه ، وهى تصيح : « ماذا وقع لك يا فرانسيس؟ احك لى بسرعة ! » .. فلخص لها « فرانسيس » وقائع اليوم السابق ، فكان عجبها شديدا . وقالت :

ـ خمسمائة دولار لشهرك الاول ! .. ان هذا هو ينبوع الثراء ! يجب أن تحرق أعواد البخور أمام مذبح « بوذا » فى



معبد الرحمة الاكبر !

ـ ولسوف تذهبين أنت منذ الغد الى محل « وينج أون » لتشترى ذلك الثوب الذى أعجبك وأنت مارة به ذاك المساء !

ـ كم أنت لطيف ! انى أعبدك يا فرانسيس !

ـ والآن ، انتظارا لارتدائك هذا الثوب ، اخلعى الثوب الذى عليك ، فان الحر الليلة شديد !

وبغير تردد أطاعت « نينا » .. وكانت نافذة فرانسيس مفتوحة ، وواقعة مباشرة تحت ضوء أحمر صادر من أحد اعلانات « النيون » . فبدت « نينا » وهى عارية فتنة لناظرى « فرانسيس » ، فأخذ يتأمل ثدييها البديعين اللذين لاحا كقبتين صغيرتين من المرمر الوردى. أما طرفاهما فقد ذكراه بذلك الكرز الذى يرصع به السقاة كؤوس الكوكتيل !

ولم يسعد فرانسيس يوما بحضور « نينا » ، كما سعد فى تلك الليلة ، لان اقبال الحظ طرد شبح الفاقة ـ الذى ظل جاثما منذ أسابيع ـ عند فراشه ! .. وأخذ العاشقان المتعانقان ـ فى الفراش ـ يتهامسان بالنجوى . فان نينا كانت مشوقة الى معرفة المزيد عن هذا العمل الجديد . واجتهد فرانسيس فى أن يشفى فضولها . وما لبث أن قال : « أسمعت يا عزيزتى شيئا عن « فان لونج » مدير الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ؟ »

ـ أجل . انها مؤسسة كبيرة ، ومحترمة جدا !

ـ الجميع يقولون لى ذلك . وليس مركزها المالى هو الذى يهمنى ـ فأنا واثق من استطاعتهم دفع الخمسمائة دولار فى نهاية الشهر ـ ولكن الذى يحيرنى هو « فان لونج » نفسه .. المدير !

ـ لم أره فى حياتى !

ـ اجتهدى لكى تعرفى شيئا عنه .

ـ وما الذى يقلقك من ناحيته ؟

ـ انها الطريقة الخارقة للعادة التى اســتقبل بها مخلوقا مسكينا مثلى ، قدم اليه طلبا للحصول على وظيفة لا أهمية لها اطلاقا !

* * *

• **ونام** فرانسيس الى الضحى ، بعد أن غادرته « نينا » فى منتصف الليل . وفى الساعة العاشرة صباحا أيقظه رنين التليفون مذعورا . واذا عاملة تليفون الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير تدعوه للحضور فورا لمقابلة السيد « فان لونج » . فارتدى ثيابه بسرعة ، وتوجه الى شارع (فيكتوريا) .. واستقبله مندوب المدير بابتسامته الازلية ، وأدخله الى مكتب المدير . فأشــار « فان لونج » الى فرانسيس أن يجلس ، ثم قال له :

ـ ياسيد أرنولد . اننا بحاجة الى خدماتك اليوم بالذات .. هل تعرف (ماكاو) ؟

ـ طبعا أعرفها ..

ـ ســتغادر مطار (فيرفيلد) فى الظهــر ، وتهبط فى (ماكاو) ، فى مطار (سان جوان) ، وسيرشدك اليه « جامبوا » .. ملاح طائرتك ، فقد أصدرت اليه تعليماتى . وسيعرفك بوكيلنا هناك السيد « هو » ـ ومكتبه قريب من المينــاء ـ ويسلمه رسالة تتعلق بك . وهاك خمســة وعشرين دولارا صينية ، كى تتمكن من المقامرة فى لعبة « الفانتان » .

ـ وهل المطلوب منى أن أفلس بها البنك ؟

ـ كلا . وسيشرح لك السيد « هو » كل شىء . ومتى انتهيت من مهمتك فعليك أن تركب طائرتك من (سان جوان) ـ ولو فى بهمة الليل ـ وتعود الى (هونج كونج) ، فتفضى الى بنتيجة رحلتك أيا كانت ساعة وصولك . وبما انك لم تألف بعد جيدا طريق دارى ، فعليك أن تحضر الى هنا حيث تجد

ياورى فى انتظارك كى يقودك الى بيتى . هل فهمت مرادى ؟
ـ الامر واضح غاية الوضوح .

وكان الامر واضحا جدا حقا ، وغريبا جدا .. أيضـا . وأخذ فرانسيس يسائل نفسه ـ وحق له أن يتساءل ـ كيف تستلزم أعمال الشركة الاسيوية للاستيراد والتصـدير طيرانا عاجلا كهذا الى (ماكاو) ، واشـــتراكا فى لعبة ((الفاتنات)) ، وعودة عاجلة الى (هونج كونج) ؟! .. ومن المدهش حقا أن يختار عميل للمؤسسة ملهى ليعقد فيه اتفاقا على صـــفقة ثلاجات كهربائية أو أسلاك . ولكنه لم يوجه أى سؤال بهذا الخصوص الى « فان لونج » ، واكتفى بأن سأله :

ـ أعتقد أننى لن أواجه أية صعوبة لدى سلطات (فير فيلد) ، سواء فى الرحيل أو فى العودة ؟

ـ اطلاقا يا ســـيد أرنولد ، فقد نسيت أن أذكر لك أن علاقاتى الشخصية مع مطار (فير فيلد) المدنى ، علاقات ودية للغاية . والمدير البرتغالى لمطار (سان جوان) صديق لى أيضا . وبالتالى ليس لديك ما تخشاه من هذه الناحية !

فأحنى « فرانسيس » رأسه وخرج ، فركب سيارة النقل التابعة للشركة الى (فير فيلد) ، حيث وجـــد فى انتظـاره « جامبوا » .. ملاح الطائرة وعامل اللاسلكى بهـا فى الوقت نفسه . وكان « فرانسيس » قد تعرف من قبل بهذا البرتغالى .. وهو شاب جميل الشكل ، نحيف ، رشيق ، كأنه راقص محترف . وقد وقع اختيار « فان لونج » عليه لانه كان يعرف آسيا جيدا ، من (سيجون) الى (شانغهاى) . وقدم اليه فرانسيس كأسا من الويسكى ليحمله على الكلام قبل الرحيل . ولكن « جامبوا » كان قد التحق بالعمل منذ شهر واحد ، ولم يكن كثير الاستطلاع . وكان جوابه على أسئلة « فرانسيس » بلهجة الارتياح التام : « أوه ! الشركة الاســـيوية للاستيراد والتصدير ؟! .. ان كنت فى شك من جهة شيكاتها ، **فاطمئن !**

.. حساباتها لا حد لها ! » .. وهكذا وثق « فرانسيس » على الاقل ، من أنه لا يعمل لحساب مؤسسة وهمية .

وعند الظهر تماما ، أقلع بالطائرة متجها الى (ماكاو) ، وبعد سبع عشرة دقيقة ، هبط مطار (سان جوان) ، فاذا به مطار بدائى . وبمجرد نزولهما من جوف الطائرة ، التقى فرانسيس وجامبوا برجل صينى حيا الشاب البرتغالى أولا ، فقال الملاح يعرف كلا منهما بالآخر : « السيد أرنولد .. السيد هو ! »

وبعد التحيات المألوفة ، صعد « أرنولد » الى سيارة « فورد » عتيقة ، تولى السيد « هو » قيادتها قيادة أبعد ما تكون عن الحذق والمهارة . فكان يغير السرعة بضوضاء شديدة ، ويترنح بالسيارة كامرأة سكرى .. وتوقف قبل أن يصل الى الميناء أمام نوافذ محصنة بقضبان من الحديد ، تعلوها لافتة « الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير » . وعندئذ استأذن « جامبوا » من السيد « هو » قائلا : « سأعود فى نحو الساعة العاشرة مساء » . فقال الرجل : « وهو كذلك يا سيد جامبوا » .

ولما اختفى البرتغالى عن ناظريهما ، أوضح « هو » الامر لفرانسيس ، قائلا : « ان هذا الشاب ينتهز فرصة حضوره الى (ماكاو) ليزور الصينيات اللائى يشغف بصحبتهن ! » .. واستطرد السيد « هو » يهمس وراء كفه المعقوفة :

ـ أنه ديك كبير يحب التسلل الى أقفاص الدجاجات الصينية ! .. وهو يغيرهن دائما ، ويزعم أن النساء مثل سلة الكرز ، لا تستطيع أن تظل باستمرار تأكل كرزة واحدة ، بل يجب أن تلفظ النواة وتتناول ثمرة أخرى طازجة وهكذا !

وأجاب فرانسيس هامسا أيضا ـ على سبيل المجاملة ! ـ من وراء كفه ، مذكرا السيد هو بمهمته الاصلية التى حضر من أجلها ، فقال الرجل : « اليك هى ! .. يجب أن أقلك الليلة ـ فى الساعة الثامنة ـ الى أمام ملهى « الخيزران الخالد » .. وهو من ملاهى (ماكاو) المخصصة للمقامرة . وسوف

تدخل الى هناك بمفردك . وأظنك تعرف لعبة الفانتان » ..
فقال فرانسيس : « طبعا ! »
— وابتداء من الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة تماما ، ستبدأ اللعب من الطابق الاعلى . فهناك دهليز يطل على مائدة اللعب فى الطابق الاسفل . وتأكد من الوقت بالضبط : الثامنة وثلاثون دقيقة . وتذكر المبالغ التى ستلقى بها على الرقعة الخضراء : دولارا ، ثم دولارين ، ثم ثلاثة ، ثم أربعة ، ثم خمسة دولارات . ثم تعيد الكرة .. واحدا ، فاثنين ، ثم ثلاثة ، ثم أربعة ، ثم خمسة دولارات .. **ولا تهتم بربحك أو خسارتك .. وعندئذ سوف يتقدم اليك خلسة رجل صينى ، ويقول لك بالانجليزية : « هل لك أن تلعب لى بهذا الدولار ؟ » .. وعليك أن تجيبه بالقبول ، واذ ذاك يدس ورقة ذات دولار واحد فى يدك . فاياك أن تراهن بها ، بل دسها فى جيبك واخرج دولارا من دولاراتك لتراهن له به . هل فهمت ؟**
— نعم
— وعليك أن تستمر فى اللعب ولا تهتم بالرجل الذى سينصرف على الفور . وبعد قليل أخرج انت وتمش على افريز الميناء ، لتتأكد من أن أحدا لا يتبعك ، ثم تعال الى هنا فى مكتبى ، وستجدنى فى انتظارك . **أما الدولار الذى أعطاك الرجل اياه فاستبقه فى جيبك ، لانك ستحمله الى (هونج كونج) لتسلمه الى السيد فان لونج .. وهذا كل شىء .**
— مسألة سهلة !
— أليس كذلك ؟ ومن الآن الى الساعة الثامنة انت حر ، وعليك أن تقتل وقتك كيفما شئت .. زر الميناء مثلا .. اللهم الا اذا كنت تفضل الذهاب لزيارة مدام وانج ، ففى وسعها أن تقدم اليك احدى هاتيك المخلوقات اللطيفات اللواتى تتكون منهن سلة الكرز الاثيرة لدى « جامبوا » !
فقهقه فرانسيس ضاحكا وقال : « شكرا لك يا سيد

« هو » ! .. لست أجد قابلية اليوم « لقزقزة » الكرز ! »

ـ اذن ، فى هذه الحالة ، أنصحك بالتوجه الى بار « النجم الابيض » ، فهناك تستطيع أن تســتريح وتشرب الويسكى الاسكتلندى الجيد المستورد من بلاده مباشرة ...

وانفسحت الفرصــة طوال بعــد ظهــر ذلك اليوم أمام « فرانسيس » ، ليتذوق الويسكى الجيد فى بار « النجم الابيض » .

وكانت حيرة « فرانسيس » تزداد من ساعة الى ساعة . فان المهمة التى كلفه بها السيد « فان لونج » اليــوم ، فتحت عينيه . ولكنه لم يجسر حتى الآن على استنباط نتائج منطقية معينة من هذه العملية الغريبة . الا أنه صار من المقطوع به لديه أن هذا المستورد التجارى له علاقات غير عادية !

وأخذ فرانسيس يقيم موازنات عقلية مضحكة . فتخيــل بيتا تجاريا مماثلا للشركة الاسيوية ، فى (باريس) مثــلا . وتخيل هذه المؤسسة الباريسية ترسل طائرتها تحمل موظفا الى (مونت كارلو) كى يلعب الروليت أو البكاراه ، وكى يتلقى ورقة مالية صغيرة ـ من شخص مجهول يحف به الغموض ـ فى قاعات الكازينو ، على أن يحتفظ الموظف بهذه الورقة المالية فى جيبه ، كى يحملها بكل عناية ورعاية الى مخدومه !

ان هذا يتجاوز حقا حدود الخيال والجنون ، اللهم الا اذا ...

وقفزت كلمة « الجاسوسية » الى ذهن فرانسيس . فان الامور خليقة بأن تتضح ـ دون شك ـ اذا تبين أن فان لونج يعمل لحساب المخابرات السرية لدولة ما .. فعندئذ فقط ، تبدو جميع الاحتياطات التى لجأ اليها مدير الشركة مفهومة ، بل ومنطقية تماما ! .. واذا كانت هذه هى الحقيقة ، فلحساب من اذن يعمل « فان لونج » ؟ أللأمريكيين ؟ أم للانجليــز ؟ أم للروس ؟ أم للصينيين البيض ؟ أم للصينيين الحمر ؟

أحاج وألغاز ومعميات ، لا بد أن يحمل المســتقبل القريب حلها الشافى !



الفصل الثالث

لعبة ((الفانتان))

• وفى الساعة السابعة وثلاثين دقيقة مساء ، جلس « فرانسيس » فى بار « النجم الابيض » ، وطلب قطعة من السندويتش وقدحا من البيرة . وجاء جلوسه فى أحد الاركان ، بالقرب من رجلين يحتسيان « البورتو » .. وكانا من أهل البرتغال ، ولعلهما من طائفة التجار ، وقد بكرا بغلق مكتبيهما. ومهما يكن من أمر ، فقد وجد « فرانسيس » الفرصة مواتية كى يستعلم عن « ملهى الخيزران الخالد » فسألهما : « أتتكلمان الفرنسية أيها السيدان ؟ »

فأومأ الرجلان برأسيهما فى بشاشة ، وقال أحدهما :

ـ اننا نتكلم هنا عدداً كبيرا من اللغات : الانجليزية والصينية والفرنسية والاسبانية .. فهل من خدمة نؤديها لك ؟

فقدم لهما فرانسيس السجائر ، واقترب من مائدتهما قائلا : « سأقضى فى (ماكاو) أربعا وعشرين ساعة سائحا ، وقد اثنوا لى كثيرا على بعض الملاهى ، ومن بينها ملهى

يسمونه « الخيزران الخالد » . فهل تعرفانه ؟ »

فنفض أكبر البرتغاليين سنا رماد سيجاره الطويل وقال :

ـ « الخيزران الخالد » ؟ طبعا نعرفه ! .. وهو ـ بينى وبينك ـ ملهى سيىء السمعة . فاذا كنت تبحث عن وسط راق ، فانى أنصحك بأن تذهب وتلعب لدى « سن فو » فى ملهاه المسمى « الحظ العظيم » ! ولكنى أنبهك الى أن الناس يخسرون فيه ـ رغم اسمه الخداع ـ كما يخسرون فى سواه . ولكن الوسط أرقى !

ـ فهمت مرادك يا سيدى ! واذا كان الامر يتعلق بالملاهى الراقية ، ففى بلادى الكثير منها : فى (دوفيل) و (كان) و (بيارتز) .. ولكنى أنشد هنا « اللون المحلى » .

ـ اذهب اذن الى « الخيزران الخالد » . فهو مكتظ ، ذو رائحة منتنة !

ـ وأين هذا الملهى بالضبط ؟

ـ متى خرجت من هذا البار ، فاتجه يسارا فى شارع الميناء مسافة مائتى متر ، وستجد شارعا عموديا على رصيف الميناء ، فسر فيه وسترى على اليمين لافتة زرقاء عليها اسم الملهى باللغة الصينية .. ولن تستطيع قراءتها ، ولكنها اللافتة الوحيدة الزرقاء فى هذا الجزء من المدينة ، ولهذا فلن تضل الطريق !.. وانى انصحك ـ على كل حال ـ بأن تمر ، من باب العلم بالشىء ، بملهى « الحظ العظيم » ، فان الوسط هناك راق حقا ، ويرتاده البيض من سكان (ماكاو) ، بل وتستطيع أن تشرب فيه الشمبانيا . واذا خسرت أكثر من خمسين دولارا أمريكيا ، قدم لك المدير عشاء صينيا فاخرا يعده طاهيه الخاص .

ـ شكرا لك يا سنيور .. وسأفيد ما وسعنى من نصائحك !

ونظر فرانسيس فى ساعته ، فوجدها الثامنة مساء ، فخرج من البار الى أن وقف أمام اللافتة الزرقاء المكتوب عليها

بالصينية « الخيزران الخالد » . فاذا بناء مرتفع ذو ثلاث طبقات ، قذر المنظر . فدخل بهوا مطليا بالجص ، خاليا من الزينة ، وقد تجمع فيه عدد من الصينيين يتناقشون فى حظوظهم الماضية والمستقبلة . وكانت الضجة العالية تدل على أن أدوار لعبة « الفانتان » قد بدأت !

* * *

• **ودخل** فرانسيس قاعة مستطيلة الشكل ، جلس فيها الموكلون باللعب الى مائدة كبيرة منخفضة مغطاة بمفرش مقسم الى مربعات ، مرقومة من صفر الى أربعة . وكان العامل جالسا أمام كومة من « الفيشات الصغيرة » ، ومتى وضعت المراهنات وانطلق النذير بالكف عن تقديم المبالغ ، فصل بجاروفه بعض « الفيشات » ــ من تلك الكومة الكبيرة ــ وراح يعدها أربعة أربعة ، فيتبقى حتما عدد يتراوح بين صفر وأربعة ، يرمز الى الرقم الرابح .. ولكل من وضع مبلغا على الرقم الرابح من المفرش ، الحق فى أن يتقاضى ثلاثة أضعافه ونصف ضعف .. ربحا صافيا !

وكان أمام فرانسيس ربع ساعة يقضيه فى مراقبة اللعبة واللاعبين ، قبل أن يحل الموعد الذى حدده له السيد « هو » . ثم جعل يتمشى فى الطابق الارضى بين الرواد فوجدهم خليطا من الهجناء ، والصينيين ، والصينيات ذوات الثياب الحريرية المتعددة الالوان . وكان الجميع مشغوفين بتلك اللعبة . وفى أعقاب كل دور ترتفع منهم صيحات الاسى أو السرور والتنهدات وألفاظ السباب !

واقترب من فرانسيس رجل صينى نحيف ، بارز العظام ، فى ثياب صينية سوداء ، بدا أنه من ملاحظى الملهى ، وهمس فى أذنه فلم يفهم « فرانسيس » كلامه . وأشار اليه الرجل أن يتبعه ، وقاده الى دهليز ، ثم أزاح الستار عن قبو خافت

الضوء ، فشاهد فرانسيس رجلين مضطجعين فوق اريكتين يدخنان الافيون . وهمس المرشد بانجليزية ركيكة : ((غليون .. هل تريد ؟ قبل الفاتنان ؟))

فسأله فرانسيس على سبيل الاستطلاع : « بكم ؟ » . فأجاب المرشد مشجعا : « مجانا .. بدون مقابل ! » . وكان جواب فرانسيس : « كلا ، وشكرا » .

وعاد « فرانسيس » الى القاعة الكبرى ، وكانت الساعة الثامنة وثلاثين دقيقة تماما . فصعد الى الطابق الاعلى حيث شرفة من الخشب تطل على مائدة اللعب فى الطابق الارضى . واتكأ على السياج . وكانت اللعبة توشك أن تبدأ ، فأرسل أول رهان ـ وقيمته دولار واحد ـ وضعها الموظف المختص فى سلة دلاها الى المائدة بخيط ، وهو يعلن الرقم المطلوب . وكان من حول « فرانسيس » نحو ثلاثين لاعبا ولاعبة . وخسر دولاره على الرقم اثنين . وأعلن مراهنته بدولارين على الرقم ثلاثة فربح .. ثم وضع ثلاثة دولارات على خانة الصفر وخسرها . ثم راهن بأربعة دولارات على الرقم واحد فربح .

وكان وهو يلعب يرقب خلسة من حوله ، فلم يجد أحدا ملقيا باله اليه . اذ كان كل واحد منهمكا فى اللعب متجها بكليته الى مدير اللعبة الجالس فى الطابق الاسفل أمام كومة ((الفيشات)) . ولعب فرانسيس بخمسة دولارات ، ثم بدأ من جديد يلعب من واحد الى خمسة ، واذا بشاب صينى يقترب منه ، ويقف بجواره ويروح ينظر الى اسفل بعدم مبالاة . وعندما أعلن فرانسيس مراهنته بثلاثة دولارات على الرقم أربعة ، وقد دلى السلة الصغيرة ، اذا بالرجل يقول

ـ من فضلك يا سيدى . خذ هذا الدولار أيضا على الرقم أربعة !

فتناول ((فرانسيس)) الورقة ذات الدولار ، ووضعها فى جيبه ، ثم وضع بدلا منها دولارا من دولاراته ودلى السلة .

وفى هذه المرة لم يربح رقم أربعة شيئا . وابتعـــد الشاب الصينى على مهل من غير أن ينطق ببنت شــفة ، واختفى . واستمر فرانسيس يلعب بعض الوقت . ثم خـرج كذلك ، وقد بلغ ربحه فى جملته ثلاثة وعشرين دولارا ، وضــعها فى الجيب الايسر من سترته . أما الدولار الذى أعطاه اياه الشاب المجهول ، فكان فى جيبه الايمن . **وما أن غادر « ملهى الخيزران الخالد » حتى وضـــع الدولار فى حافظتـــه حتى لا يختلط بالدولارات الاخرى . وهكذا تمت الخطوة الاولى من العملية التى رسمها السيد « هو » من غير عائق !**

وتذكر « فرانسيس » الوصية الثانية ، وهى التحقق من أن أحدا لا يتبعه . فمشى على طول رصيف المينـــاء الذى تضيئه مصابيح متناثرة قليلة العدد ، وقد احتفظ فى ذاكرته بصورة المنطقة ، بحيث لا يشق عليه تحديد مكان دار السيد « هو » . ومر به عدد قليل من الناس ، لم يكن بينهم مــن يبدو عليه الاهتمام بشأنه . فاجتاز حارة متعامدة مع رصيف الميناء ، واذا به يجد نفسه محصورا بين رجلين صينيين برزا من ظلام الحارة ، ووقفا عن يمينه وشماله . فثبت فرانسيس فى مكانه . وقال له الذى عن يمينه بالانجليزية .

ـ بوليس الامن فى (ماكاو) !

ـ وبعــــد ؟

ـ أن صاحب ملهى « الخيزران الخالد » اتصـل بنـــا تليفونيا ، وأبلغنا بوجـــود دولارات مزورة بين مراهنـات « الفاتنات » . وقد خرجت أنت الآن من هناك ، فاتبعنا الى مركز البوليس !

وارتبك فرانسيس بضع ثوان ، ثم فكر فى أن الفرار بسرعة قد يعرضه لرصاصة تصيب ظهـــره من الشرطيين اللـــذين سيبرران فعلتهما ـ فيما بعد ـ بأنه هاجمهما . فمن الخير التفاهم شخصيا مع رئيس البوليس المحلى .

ومشى نحو عشر دقائق بين حارسيه ، فأدخلاه بيتا معتما خافت الضوء ، فى ركن شارع مواز لرصيف الميناء . وهناك اجتازا به دهليزا وأدخلاه حجرة صغيرة ليس بها شىء من مظاهر الادارة . وجلس أحد الرجلين الى منضدة ، أما الآخر فوقف أمام الباب . وسأله الجالس :

ـ ما جنسيتك ؟

ـ فرنسى .. وهذا جواز سفرى . وانى احتج على هذا الاعتقال الذى ليس له ما يبرره .

ـ انك متهم باللعب بنقود زائفة فى ملهى « الخيزران الخالد » !

ـ هذا أولا اتهام سخيف ، لان معى أوراق نقد من (هونج كونج) ، لا محل للشك فى أمرها . ثم اننى أريد أن أتصل تليفونيا على الفور بقنصل فرنسا فى (ماكاو) . فأين جهاز التليفون ؟

ـ الخط مقطوع !

ـ وهل مكتب بوليسكم بدون تليفون ؟

ـ بلى !

ـ فأين الخط ؟ **ـ فى حجرة أخرى**

ـ أرنى الجهاز . **ـ انه تحت الاصلاح !**

وأدرك فرانسيس أن الرجلين محتالان وليسا من رجال البوليس ، وان هذا المنزل ليس قسم البوليس ، وانه اذا تأخر فيه طويلا مع هذين الرجلين ، فان موقفه سيزداد خطورة فى كل دقيقة .. اذ لا شك فى أنهما كانا يعلمان ـ وبوذا وحده يعرف كيف علما ـ انه تسلم رسالة سرية ينتظرها السيد « هو » ، وكانت لهما مصلحة كبرى فى الحصول عليها . وما لم يبادر فرانسيس الى التصرف فورا ، فانهما لن يلبثا أن يقيداه ويفتشاه ، وهذا ما كان ينبغى أن يتحاشاه بأى ثمن ! ولما كان لا يحمل مسدسا ، فقد كان لزاما عليه

أن يعتمد على مهارته وسرعة حركته وعضلاته ودرايته بالملاكمة التى كان يمارسها فيما مضى ..

وفى بضع ثوان قدر الموقف .. كان هذان الصينيان خطرين ، ولا بد أنهما كانا يخفيان أسلحة قاتلة .. فيجب عليه أن يعتمد على المباغتة .. ولم يكن أمامه الا بضع لحظات كى ينجح أو يفشل !

وتصنع فجأة الترنح ، كمن أصيب بدوار ، وجعل يجفف جبهته بيد مرتعشة . ثم استدار فجأة نحو الرجل الذى كان



يرقب الباب .. وبعنف لا يقاوم ، سدد اليه لكمتين جبارتين ، أصابته الاولى فى بطنه ، والثانية فى فكه ، فتكوم الرجل على الارض . ودار فرانسيس فى الحال الى الخلف ، ورفع المنضدة ليقلبها فوق الرجل الجالس ، فى الوقت الذى جرد الرجل خنجرا من تحت ثوبه .. واستطاع فرانسيس أن يفلت من الباب ، ويخترق الدهليز ، ثم يختفى فى ظلام الشارع ! ..

وظل يعدو بأقصى سرعته فى تيه من الشوارع المتداخلة ، كى يضلل من عساهم يكونون فى آثاره . وبعد قليل اتجه الى دار السيد « هو » وهو يلهث . ولم يلبث أن دخل عليه مكتبه بعد أن تحقق من أن أحدا لم يكن يتعقبه !

* * *

• **وجلس** فرانسيس ، وقد ظهرت على السيد « هو » الدهشة .. فروى له مغامرته القاسية . وكان أول سؤال ألقاه عليه الصينى هو : « أواثق أنت من أن أحدا لم يتبعك وأنت قادم الى هنا ؟ » . فقال : « كل الثقة . فقد درت فى منعطفات كثيرة ، وكنت حريا بأن أرى أى متعقب لخطواتى ! » .. وتذكر السيد « هو » الدولار ، فسأله : « وذلك الدولار الذى تسلمته فى الخيزران الخالد ؟ »

ـ هاك هو .. لا تقلق ، فانى لم أفقده فى المشاجرة !

فظهر الاطمئنان على وجه السيد هو . ووضع فرانسيس يده فى جيبه الداخلى واستخرج الدولار . وكانت هذه أول مرة يتطلع فيها الى ذلك الدولار فى الضوء ، فدهش دهشة عظيمة حين تبين أن له وجهين . **ومعنى ذلك انه كان عبارة عن دولارين متلاصقين ! .. وبينهما شعر فرانسيس ـ تحت أنامله ـ بوجود ورقة مدسوسة ، رقيقة جدا ، لا شك فى أنها كانت تحتوى على رسالة ذات أهمية كبيرة !** ومهما يكن من شىء فان الوقت لم يتسع أمام فرانسيس ليطيل فحص ذلك الدولار الغريب ، لان السيد « هو » مد يده فتناوله قائلا :

ـ عفوا . ان الاوامر التى لدى تقضى بوضعه داخل ظرف مقفل ، ستحمله أنت بالذات الى السيد «فان لونج» شخصيا .

ووضع الصينى الدولار فى ظرف أصفر سميك ، ثم أقفله بعناية ، وختمه من الخارج . وحاول « فرانسيس » أن يسأله ، ولكن السيد « هو » كان يروغ من الاجابة ، ولم يزد على أن قال : **« اننى أنصحك ـ يا سيد ارنولد ـ بأن تقص على السيد فان لونج تفاصيل الحادث الذى أوشكت أن تكون ضحيته الليلة ، فان ذلك أمر هام .. بل عظيم الاهمية ! »**

ـ لا تخف يا سيد « هو » ، فسيعلم السيد فان لونج كل شىء ! والآن ، أرجو أن تسمح بذهابنا الى مطار (سان جوان) !

ــ كم الساعة الآن ؟
ــ التاسعة وثلاثون دقيقة . وأرجو أن يكون السيد جامبوا قد فرغ من غزواته الغرامية لفتيات الميناء .

وركبا السيارة العتيقة التى أيقظت الجيران بضجيجها قبل أن تقوم . وجلس السيد « هو » الى عجلة القيادة ، وجعل يستعمل البوق ــ بغير انقطاع ــ فى الحارة المقفرة ، الى أن وقف أمام مطار (سان جوان) ، فاستعمل الفرامل بعنف جعل فرانسيس يرتطم بالزجاج الامامى . ولكن السيد « جامبوا » لم يكن قد وصل بعد ، فأخذ الميكانيكى يعتذر عنه قائلا :

ــ ان لدى السيد « جامبوا » مهاما كثيرة هذه المرة ! .. ثلاث فتيات ! ولا شك أن المسكين سيتداعى فى النهاية . لان المرحوم « كازانوفا » كان ناسكا .. اذا قيس به !

وشرع « فرانسيس » يعد طائرته للرحيل ، فأمر الميكانيكى بادارة المحركين .. وأخيرا ظهر « جامبوا » ، فاستقبله السيد « هو » بعاصفة من المعابثات اشترك فيها الميكانيكى . وسأله فرانسيس عما اذا كان يتمتع بذهن صاح صاف يمكنه من ارشاده الى مطار (هونج كونج) ، فاحتج جامبوا قائلا : « لا خطر على الاطلاق يا عزيزى ، وسأروى لك ــ أثناء الرحلة ــ كيف قضيت الوقت مع الآنسة « جوانا كونج » .. انها مخلوقة رائعة ! .. تصور انها كانت تدخن السجائر عن طريق موضع ما فى جسمها ! .. وفى الظلام كان لذلك المنظر من الوقع ما لهدير الصواعق ! »

* * *

• **وفى** الساعة الحادية عشرة مساء ، كان فرانسيس قد أودع طائرته مخزنها ، وألقى تحية المساء على جامبوا ــ الذى كاد يسقط اعياء لفرط النعاس والتعب ــ ثم اتجه الى مقر

الشركة ، فوجد السيد «شو لى لانج » ـ ياور المدير ـ نائما فى المكتب الرئيسى ، فى انتظار وصوله . واتجه نحو « الفيلا » القائمة فى (سيمور رود) .. وكان متلهفا على هـذا اللقاء بمخدومه ، فوجده منتظرا فى الصالون . وكانت أول عبارة له : « لم أكن أنتظر عودتك بهذه السرعة ! »

ـ بل كان من المحتمل ألا ترانى اطلاقا !

ـ هل حدث للطائرة عطب ؟

ـ كلا .. سأروى لك كل شيء . وهاك أولا المظروف الذى أعطانيه السيد « هو » كى أسلمه اليك .

وفض فان لونج المظروف وأخرج الدولار ذا الوجهين ، ثم نهض وقال : « اسمح لى ببضع دقائق ! » . فقال فرانسيس : « تفضل يا سيدى » .

وخرج فان لونج مسرعا .. وكان متلهفا ـ بالطبع ـ على مطالعة محتويات هذين الدولارين المتلاصقين .. وطال انتظار فرانسيس ثلاثة أرباع الساعة ، فلم يدهشه أن يطول هـذا الغياب . اذ لم يكن ثمة ريب فى أن الرسالة كانت مكتـوبة بالشفرة ، وأن حل رموزها كان يحتاج الى وقت !

وأخيرا ، ظهر فان لونج وقد زال التوتر عن وجهه . وتلطف فقدم كأسا من البراندى الى طياره ، ثم قال : « والآن يا سيد أرنولد ، قل لى : ما الذى وقع لك ؟ »

فروى له « فرانسيس » مغامرته والقبض عليه بوساطة ذانك الشرطيين المزيفين . وكان لهذا كله وقع شديد جدا على فان لونج .. وأخيرا ، ختم فرانسيس روايته قائلا : « انت تدرك طبعا أن شكوى مدير « الخيزران الخالد » من وجـود دولارات مزيفة قد أحرجنى . وقد كنت مستعدا لاى تفتيش قانونى . ولكن الدولار الذى أعطانيه الشاب المجهـول كان حريا بأن يقع فى أيد غير التى يجب أن يصل اليها ، فاستخدمت شجاعتى وقبضة يدى وساقى كى أحمى لك دولارك . وأظن

أنك كنت ستستاء كثيرا لو أن هذين الشخصين استوليا عليه ! »

ـ هذا صحيح يا سيد أرنولد . انك فى الواقع أحسنت التخلص ببراعة من هذين المحتالين .

ـ عظيم . وبما أن الصراحة يجب أن تكون متبادلة .. وبما أننى كنت اليوم فى (ماكاو) لحسابك ، فانى أعتقد اننا نستطيع أن نتحدث الآن وأوراقنا مكشوفة على المائدة . انك يا سيد « فان لونج » قد نشرت فى الصحف اعلانا تطلب أمين مخازن ، فى حين انك كنت تبحث عن طيار . **وقد أدمجت هذا الطيار فى شبكة جاسوسيتك . ومع أنى لم أكد أفحص ذلك الدولار تماما ، الا انه كان يحتوى أوراقا رقيقة سرية ، لا شك فى أنك حللت الآن رموزها ! ..** واستخلص من هذا أنى انا فرانسيس أرنولد ـ الطيار البسيط لطائرة الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ـ قد أصبحت شريكك فى الجاسوسية بغير علمى . وأرجو أن تلاحظ انى لست مستاء ، فانك تدفع لى أجرا عن أعمالى . ولكن ، اذا كنت حريصا على أن أهتم بعملى ، وان أبذل كل عنايتى فى التعاون معكم ، فيجب أن تثق بى ، وتصارحنى !

فأشعل فان لونج سيجارة .. وللمرة الاولى ، قدم سيجارة أخرى الى فرانسيس ، ثم نهض وأخذ يذرع الصالون ـ فى صمت ـ فترة من الزمن . وكان واضحا أنه متردد فى كشف النقاب عن لعبته . وأخيرا جلس وصب كأسا أخرى من البراندى لفرانسيس ، وقال : « من الواضح الآن انك قد تبينت حقيقة الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ، وانها ليست سوى مؤسسة تجارية مخصصة لاخفاء منظمة سرية ، لها هدف أهم كثيرا من البيع بالجملة لتجار الدبابيس و « البريمات » وما الى ذلك . وأنت تذكر انى سألتك فى أول مقابلة لنا عما اذا كانت معتقداتك السياسية تميل الى الفاشية

أو الشيوعية ! »

— وقد أجبتك بأن السياسة أمر ثانوى فى نظرى ، فهى لا تهمنى فى بلادى .. فما بالك فى آسيا !

— لديكم فى الغرب تقام شبكات للجاسوسية لا يعرف أفرادها بعضهم بعضا . أما هنا فان منظمتنا مختلفة قليلا . هل تعرف شيئا عن الوضع الحالى فى الصين ؟ .. ان (بكين) قلقة من أعمال (فورموزا) .. وبمعنى آخر ، فان « ماوتسى تونج » و « شو ان لاى » و « ليوسكاوشى » — نائب رئيس المكتب السياسى — لا يمكن أن يسمحوا لفورموزا بأن تغدو — بمساعدة أمريكا — رأس جسر لجيش وطنى يقفز منها ، بقيادة الماريشال ، كى يغزو الصين من جديد ، ويقضى على الجيوش الشعبية التى يقودها الجنرال « شوته » . اذ أن هذا الجنرال الاخير ، ينوى تصفية القوات التى يسميها هو عصابات « تشانج كاى شيك » . ونحن هنا فى (هونج كونج) ، على حدود ولاية (كوان تونج) . **وجميع هذه الولايات البحرية من (هاينان) الى (فوكين) ، الى (تشيكيانج) ، تعتبر تهديدا مباشرا لجزيرة (فورموزا) . ولهذا يقتضى الامر تنظيم شبكة للجاسوسية لا غنى عنها لخدمة مخابرات قوات الماريشال . وأنا المسئول عن قطاع (كوان تونج) ، ومن حظى أن أقيم فى (هونج كونج) الانجليزية ، التى تعتبر بمثابة (جنيف) الاسيوية . وبالقرب منا (ماكاو) البرتغالية ، وهى ميزة ينبغى أن نستفيد منها .**

— فهمت ! .. واستخلص من هذا انك استخدمتنى فى عمل لا يوصف بأنه مريح مأمون تمام الامن والراحة . وقد سنحت لى تجربة خطورته هذا المساء فى (ماكاو) !

— طبعا ، ولهذا فانك عينت تحت الاختبار لمدة شهر بمرتب خمسمائة دولار .

— اذن فالمطلوب منى أن أخاطر بحياتي — أنا الرجل الابيض —

وان أتدخل فى مشكلة أنا بمنأى عنها نأيى عن حرب بين أهل المريخ ، وأن أخوض تلك المخاطر نظير خمسمائة دولار فى الشهر ؟ !

ـ أترى أن هذا العمل يساوى أكثر من ذلك ؟

ـ نعم . فاطلب من حلفائك الامريكيين أن يزيدوا المبلغ !

ـ يمكننا أن نعثر بسهولة على طيارين صينيين يقبلون العمل ذاته بنصف هذا الاجر .

ـ ربما . ولكنك لن تكون مطمئنا الى عدم خيانتهم لك . أما أنا فليس عندى أى تفضيل مذهبى لاحد المعسكرين ، ولهذا فمن المضمون مائة فى المائة اننى لن ألعب على الحبلين !

ـ حجتك وجيهة يا سيد أرنولد ، ولكنك تعلم أيضا ـ كما أعلم أنا ـ أن الجواسيس كانوا يعملون ـ أثناء الحرب العالمية ـ بأجور زهيدة جدا . وحتى عندما كانوا يوعدون بجزاء مسيل للعاب ، فانهم كانوا يتقاضون نقودا زائفة . ذلك لان المخابرات السرية ضنينة بالمال جدا ، وهى تشترى حياة عملائها من أرخص الاسواق ! **ومع ذلك ، فأنا أعتقد أنك الرجل الذى سنحتاج اليه فى مهمات معينة فى القريب . ولما كنا نعلم بالتجربة أن الجواسيس الخونة هم الذين يتقاضون مرتبات ضئيلة ، فانى مستعد لان أبقيك فى خدمتنا ـ بعد مغامرة اليوم ـ بمرتب قدره ألف دولار فى الشهر .. اى مائة وخمسون ألف فرنك فرنسى بالسعر الرسمى !** ففكر فى الامر اربعا وعشرين ساعة ، ثم خبرنى بما اذا كان يروق لك أم لا . ودعنى أنذرك مقدما بأنك ـ فى حالة الافتضاح ـ لن تستطيع أن تعتمد على مساعدة (فورموزا) التى تجهل وجودك رسميا .. ولا على مساعدة (واشنطن) التى تجهل وجودك كذلك .. ولا على وزارة الخارجية الفرنسية التى لن تحرك أصبعها لحمايتك ، بل ستقول : « ما الذى ورط هذا الاحمق فى هذه المشكلات ؟ » . فلن يكون فى عونك يا سيد أرنولد الا ذكاؤك ومهارتك فى الطيران

وفطنتك وقبضة يدك وعناية السماء .. اذا كانت السماء ستتنازل وتهتم بشخصك المتواضع ! .. وأضيف الى ذلك طبعا كتمانك ، اذ يجب أن تقدر أنك ما لم تضع على لسانك قفلا ، فيما يتعلق بعملك الحقيقى فى الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير - حتى مع الاشخاص المقربين اليك جدا - فانك ستكون معرضا للموت العاجل ، لان خصومنا لن يفلتوك !

- يا سيد فان لونج .. اننى لست متزوجا ، وليس لى أطفال . وما كانت المغامرات لتفزعنى .. ولست بحاجة الى الاربع والعشرين ساعة لكى أعطيك جوابى !

- أهو نعم أو لا ؟ - انه نعم !

* * *

• **وفى** اليوم التالى ، قدم فرانسيس الى نينا عشاء فاخرا فى مطعم « منج » - وهو أشهر وأفضل مطعم صينى - فى (هونج كونج) ، تخصص فى أطباق فذة أهمها السمك بالصلصة مع السكر والخل ! .. وأرجل الدجاج باليخنى . وكان فرانسيس يبدو مسرورا . فسألته نينا : « ما الذى حدث لك ياعزيزى ؟ » . فأجابها : « بعد شهر سيزيد مرتبى »

- منذ الآن ؟

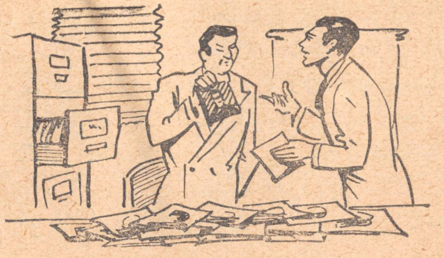
- أجل . سيصير ألف دولار فى الشهر !

- هذا رائع !

- نعم يا عزيزتى الصغيرة اللذيذة ! .. ألف دولار ! وطبعا فى الشهر القادم سأستبدل قلادتك المصنوعة من اللؤلؤ الزائف، بقلادة حقيقية من الزبرجد الاخضر !

- فرانسيس ! فرانسيس !

وأشرق وجه « نينا » سرورا . وكيف كان لها أن تعلم أن سخاء مخدوم عشيقها انما كان تعويضا متواضعا عن المجازفات الخطرة التى سيقتضيه اياها عمله !



الفصل الرابع

أحسنت يا سيد ((هو)) !

• أمسى فرانسيس على معرفة تامة بموقع ((الفيلا)) التى كان ((فان لونج)) يسكنها . ولم يكن قد شاهدها من قبل فى ضوء النهار ، حتى استدعوه ذلك الصباح الى هناك على عجل فى الساعة التاسعة . فتبين أن شرفتها تطل على منظر رائع ممتد من تلال (كونلون) الى منحدرات حدود (كوانتون) .. ولما كان قد حضر قبل موعده بقليل ، فقد أخذ يتمشى فى الحديقة الكبيرة . فلاحظ أن البستانيين كانوا يخفون مسدسات من طراز ((براونينج)) تحت أقمصتهم القطنية الزرقاء . بل ان واحدا منهم راح يراقب ((فرانسيس)) بعداء ، الى أن تلقى من رئيسهم اشارة مطمئنة . وكان هذا الرئيس مسلحا بمدفع رشاش صغير تحت معطفه .. **فكان من الجلى اذن ، أن السيد ((فان لونج)) كان تحت حراسة دقيقة .. اذ كان محوطا ضد القتلة المحترفين الذين ماكانوا يترددون فى الهجوم عليه وهو فى عقر داره !**

وفى الساعة التاسعة تماما ، ادخل فرانسيس لدى مخدومه ، الذى قال له بغير مقدمات : « يا سيد أرنولد . لقد احتك بك فى (ماكاو) شخصان ، فى ذلك المساء . وهذه أول مرة يتعرض فيها أحد عملائنا الموكلين بالاتصالات ، الى المطاردة فى المستعمرة البرتغالية . وقد قررنا أن نضع حدا حاسما لهذا النوع من التدخل ، ولهذا يجب التحقق من شخصية هذين الشخصين . فهل ألقيت اليهما بالك جيدا أثناء التحامك بهما ؟ .. سأريك الآن مجموعة من الصور الفوتوغرافية ، وستخبرنى بما اذا كانت بينها صورتا هذين الشخصين ! »

وفتح « فان لونج » خزانة للاوراق ، أخرج منها مجموعات من الصور الفوتوغرافية المتباينة الاحجام ، ونشرها على المنضدة . وبعد أن فحص فرانسيس عددا منها ، أشار بأصبعه الى أحد الوجوه قائلا : « هذا هو الشخص الذى كان يستجوبنى .. اننى واثق من التعرف عليه ! »

فقرأ فان لونج الكتابة التى كانت على ظهر الصورة ، وبدا عليه الارتياح . ثم قال : « حسن جدا .. ليس من المهم أن تعثر على زميله فى الصورالاخرى ، لاننا نستطيع الاهتداء اليه ، متى وضعنا أيدينا على هذا .. وسوف أتولى ابلاغ السيد « هو » ــ بلغتنا المتفق عليها ــ كى ينتظرك ظهر اليوم فى مطار (سان جوان) بماكاو . وعندئذ تسلمه الرسالة التى سأحررها الآن ، ليعرف ماذا ينبغى عليك أن تفعل ! »

وجلس فان لونج الى مكتب صغير ، وتناول ريشة رفيعة ، غمسها فى الحبر الصينى ، وكتب على ورقة بيضاء سطورا رأسية بالحروف الصينية . ثم أغلق المظروف ــ بعد أن وضع فيه صورة الشخص الصينى المشتبه فى أمره ــ واعطاه لفرانسيس ، وهو يقول : **« أنصحك ألا تظهر فى المدينة برفقة السيد « هو » كثيرا ، ما لم يطلب هو اليك هذا بصراحة !**

ولا تفارق - بدون أمر منه - مخزن طائرتك ، التي يجب أن تكون - باستمرار - على أهبة الرحيل بغير تأخير ، فقد تعود الليلة ، أو غدا ، او بعد غد .. فهذا يتوقف على السيد « هو » . وعلى كل حال ، ستكون لديه تعليماتي مفصلة ، وعليك أن تنفذها بحذافيرها .. وهذا كل شيء ! »

ووقف فان لونج وشد على يد فرانسيس .. وفي الساعة الحادية عشرة ، غادر فرانسيس مطار (فيرفيلد) . وكان جامبوا معه ، فقد كانت لعامل اللاسلكي صلات غرامية في (ماكاو) ، تجعله حريصا على انتهاز جميع الفرص للتوجه الى هناك . وأثناء الطيران جعل جامبوا يفضي بأسراره الى فرانسيس ، فقد شعر بميل صادق نحوه . وكان حديثه خليطا من لغات شتى ، تحت تأثير حماسته ، حتى غدت عباراته أشبه بـ « اليخنى ! »

- انك يا سيد أرنولد جدير بأن تفعل ما أفعله أنا ، فان فتيات (ماكاو) من الطراز الاول بين الفتيات ، حتى أنه ليتعذر عليك أن تشعر بالملل معهن ! .. أن الوقت متسع ، فتعال أقدمك الى الآنسة « هيلين ينج » .. أتعرف جلد « الشاموا » ؟ .. انه ناعم جدا . أتعرف زغب صغار البجع ؟ .. انه ناعم جدا ! ومع ذلك فان جلود هذه الكائنات خشنة اذا قورنت بجلد الآنسة ينج ! .. وهل تفضل الصدور الجميلة ؟ اذن ، أزكى لديك « سينوريتا » من جزيرة (بالى) القريبة من بورما ! .. والدها العزيز - قدس الله روحه - كان مندوبا لشركة هاريسون في (سنغافورة) . فلا البرتقال ولا « الجريبفروت » - الذى تنتجه كاليفورنيا - يعد شيئا مذكورا الى جانب صدر هذه الحسناء من بنات (بالى) !

وراقت كلمات عامل اللاسلكي لفرانسيس فصاح : « اذن فأنت - يا عزيزي جامبوا - تهتم بهذه الاشياء أكثر من اهتمامك بكل ما في الحياة ! .. أليس كذلك ؟ »

ـ بلى . بلى ! ولمـاذا نحن موجودون على وجه الارض ان لم يكن لهذه المسرات المتباينة المذاق ؟ .. كل ما عدا هذا هباء فى هباء . لمـاذا أكسب مالا يا صديقى ؟ أليس لاشترى ملذات حلوة المذاق ؟

ـ ولكن المخلوقات اللاتى تتردد عليهن ، لسن مخلصات فى عواطفهن ، وانما هن يحببن حافظة نقودك قبل كل شىء !

ـ وماذا فى ذلك ؟ .. أفيعنيك كثيرا ـ حين تتنسم عبير زهرة شذية ـ ان تكون هذه الزهرة مخلصة أو غير مخلصة فى اشاعة أريجها ؟.. وهل يعنى الزهــرة ئ شىء أن تكون رشيق الانف ، أو أفطس العرنين !

ـ هذه مهزلة .. ومجون !

ـ واذا كان هذا المجون شهيا لذيذا ، فماذا يهمنى ؟ أليس البط المشوى لذيذا فى الاكل ؟.. ومع أن البطة تكون ميتة ، وروحها تحلق فى فردوس الطيور ، الا أن هذا لا يصدنى عن أكلها . كذلك الفتيات الجميـلات .. أنهن كالبط الميت ، التهمهن دون أن أسألهن عما اذا كان شكلى يروق لهن أو لا يروق !

وسكت جامبوا ، ثم لبس قبعته الخاصــة ، بالاستماع والاتصال اللاسلكى ، وطلب برج المراقبة فى مطار (سان جوان) ليعرف ما اذا كان الهبوط ممكنا فى الساحة رقم « ب » .

* * *

. **وكان** السيد « هو » موجودا وعلى وجهه ابتســامته الواسعة ، وعلى رأسه « كاســكت » من النوع الذى كان ركاب الدراجات يستخدمونه ، فى سنة ١٩٠٠ . وأومأ اليـه فرانسيس أن يدخل اليه فى المخزن ، بعيدا عن أنظار المتطفلين . وهناك أسلمه مظروف « فان لونج » ، فطالع السيد « هو » الرسالة الصينية ، وتطلع الى صورة الرجل وسأله : « أهـو

هذا الشخص ؟ » . وأجاب فرانسيس : « أجل »

ـ حسنا يا سيد أرنولد . تحسن صنعا بالبقاء فى (سان جوان) ، فلا تظهر فى المدينة قبل أن أخبرك بنفسى أو بوساطة جامبوا . نم فى الطائرة ، أو اجلس فى مقصف المطار ، ولكن لا تخرج الى المدينة !

ـ وهو كذلك ، يا سيد « هو » .

وأشار « هو » الى جامبوا أن يتبعه ، فركب الاثنان السيارة « الفورد » العتيقة ، التى اختفت عن الانظار بعد زوبعتها المعتادة . وما لبث السيد « هو » أن أوقفها أمام مكتبه .. وبعد أن دخل وجامبوا ، أوصد الباب ، وشرح له بالصينية أوامر « فان لونج » ، التى كانت محددة حاسمة : العثور بأى ثمن على ذلك الشخص ! فرفع جامبوا ذراعيه الى السقف وقال : « ما أشبه هذا بمحاولة العثور على رأس دبوس فى حمولة عربة من الارز ! »

ـ كلا ، فأنا أعرف مكانا نستطيع أن نحصل فيه على معلومات مفيدة .

ـ أين ؟

ـ فى ملهى ومشرب شاى اسمه « الجميزات الثلاث » .

ـ أعرفه ، فهناك فتاة جميلة قضيت معها بضع ليال ممتعة !

ـ أمن فتيات كانتون هى ؟

ـ كلا . بل هى من (أنام) ، واسمها الآنسة « منه باه » . وكانت حظية لدى ضابط مهندس ايرلندى تخلى عنها فى (ماكاو) ، ورحل .

ـ سنذهب الى هناك بعد الظهر .

ـ وفى أية ساعة ستكون بحاجة الى ؟

ـ فى الساعة الرابعة .. لماذا ؟

ـ سأنتهز هذه الفرصة لازور « هيلين ينج » ، اذ اشتريت

لها جوارب من (هونج كونج) ، وستشكرني عليها شكرا عينيا ! .. وبعد أن انتهي من تقبل شكرها ، سأحمل زجاجة عطر من صناعة باريس الى « مرسيديه » ، وهي فتاة أندلسية ستشكرني أيضا شكرا حارا !

ـ لا تبدد كل قوتك في جمع هذا الشكر يا جامبوا ، حتى لا تعود منهوكا ، لانني قد أحتاج الى عضلاتك !

ـ لا تشغل بالك من أجل عضلاتي يا سيد « هو » !

* * *

• **وفي** الساعة الرابعة ، دخل جامبوا مكتب السيد « هو » ، بادي السرور ، وكأنه قطة فرغت لتوها من التهام فأرين سمينين !.. فأركبه السيد « هو » سيارته العتيقة ، وانطلقا بها حتى وقفا أمام ملهى « الجميزات الثلاث » . وهو بناء جميل من الخشب ، على الطراز الياباني ، كان قد شيده فيما مضى مهرب كوبي الاصل . ودخل السيد « هو » وجامبوا ، بعد أن خلعا نعليهما حتى لا تتسخ تلك الحصر المصنوعة من الخيزران ، والتي صفت حولها موائد صغيرة من خشب « اللق » الاحمر ، وأمامها وسائد وثيرة للجلوس .

ونادى جامبوا الآنسة « منه باه » ، فأقبلت تميس بقدها الرشيق ، في غلالتها الطويلة المصنوعة من الحرير الاسود . وطلب السيد « هو » شايا بالياسمين ـ وهو أجود أنواع الشاي الصيني ـ بينما انصرف جامبوا الى مغازلة الانامية الحسناء ، التي جلست تحتسي الشاي على احدى الوسائد ، بين الرجلين .. وتقبلت بسرور سيجارة أمريكية . وبعد تمهيدات ومجاملات ، طرق السيد « هو » موضوع الزيارة ، فأخرج الصورة ، وسألها ببساطة : « انني حائر يا آنسة منه باه . تصوري انني أبحث في (ماكاو) عن قريب لي من أصل كانتوني . انه ابن عم زوجتي الاولى ، ولم أره منذ عيد

المصابيح فى عام ابن آوى . **ولكنى علمت انه هنا . وهويجهل وجودى فى ماكاو ، ولذلك لم يستطع أن يبلغنى أخبار عائلتنا التى أنتظرها بفروغ الصبر . فعسى أن تعرفيه ؟ .. أنظرى الى صورته ! »**

فتأملت منه باه الصورة فى شىء من التردد ثم قالت : « اننى لم أر قريبك هذا من قبل » .

ـ لا هنا ولا فى أى مكان آخر ؟ .. انظرى جيدا .

ـ كلا .

ـ ظننت انه كان يتردد أحيانا على ملهى « الجميزات الثلاث » .

ـ سأنادى المدام ، فربما كانت لديها معلومات !

وانصرفت منه باه ، ثم عادت ومعها امرأة عجوز بدينة من ولاية (هاينان) ، ترتدى ثوبا أزرق بلون ريش الطاووس . وبعد التحيات المعتادة ، قص عليها السيد « هو » القصة ذاتها ، ثم اطلعها على الصورة فقالت : « انك عاثر الحظ يا سيد هو لانه كان هنا أمس » .. واذ أظهرت منه باه الدهشة ، قالت المرأة : « كانت منه باه قد انصرفت . وقد تناول الشاى مع رجل آخر . ولما عرضت عليهما تمضية الوقت مع الآنسة زمردة الخريف ، رفضا وانصرفا »

ـ ألا تعلمين أين يسكن فى ماكاو ؟

ـ كلا . فلم تكن لدى الرجلين رغبة فى تبادل الحديث مع أحد ، فتركتهما وحدهما . وهذا كل ما أستطيع أن أقوله عنهما

ـ شكرا لك يا مدام لى .

وبعد ربع ساعة خرج السيد هو وجامبوا ، ووقفا فى الشارع . وعندئذ قال السيد هو : **« اننا لم نضع وقتنا هباء ، فالشابان موجودان فى (ماكاو) حتى الآن ، بناء على هذه المعلومات .. وسنذهب الآن لزيارة الملاهى الاخرى ومشارب الشاى حيثما اتفق ، لعل وعسى .. ! »**

وعلى هذا ، فقد ارتادا خمسة بيوت للشاى ، بدون جدوى . وفى الساعة السادسة ، عاد السيد « هو » الى مكتبه ، وقال للملاح : « لدى فكرة يا سيد جامبوا » .

— ان مخك الجبار لا تدور به الا الافكار الجبارة .

— لا أدرى ، ولكنها خطة لا ضرر من تجربتها . واحب أن أعرف رأيك . **ان هذين الجاسوسين قد فشلا فى عمليتهما مع السيد أرنولد . ولكنهما كانا واثقين من أنهما فى الاتجاه الصائب ، فلماذا لا تستخدم السيد ارنولد طعما لاصطيادهما؟»**

— ماذا تعنى بهذا يا سيد « هو » ؟

— بدلا من ترك صديقنا مختفيا فى سان جوان ، لماذا لا نذهب فنحضره ، ونتنزه معه على أرصفة الميناء ، على مرأى ومسمع من الجميع ؟ فاذا أسعفنا الحظ ، وانتبه هذان الشخصان الى وجوده فى أحد الملاهى الليلية ، فسيتعرفان عليه .. وعندئذ تسنح لنا فرصة العمل !

— فلنجرب يا سيد « هو » . وماذا عسانا أن نخسر ؟

واستقل الاثنان السيارة العتيقة ولحقا بفرانسيس فى المطار ، فوجداه نائما فى قمرة الطائرة . ودهش كثيرا لعودتهما ، فصعد السيد « هو » الى الطائرة مع جامبوا ، واطلع فرانسيس على الخطة التى رسمها . وكان الملل قد استولى على فرانسيس ، فقبل — على الفور — القيام بدور كبش الفداء ، الذى يستخدم لاستدراج الوحش . وأوضح له السيد « هو » التدبيرات اللازمة ، فوجد أرنولد أنها لا تخلو من حصافة . وركب معهما السيارة العتيقة .. وكانت الساعة بعد السابعة ، وقد بقيت من ضوء النهار بقية .. والناس يروحون ويجيئون على طول أرصفة الميناء ، مترددين على الحوانيت .. وأخذ فرانسيس يسير وحده ، وكأنه يتسكع ، والسيد « هو » وجامبوا على مسافة خمسين مترا خلفه . وطال تجواله على هذا النحو ساعة بغير نتيجة ، الى أن خيم الظلام على البحر الهادىء .

وكانت ثمة سفينة شحن واقفة فى الميناء ، والآلات الرافعة تنقل اليها البضائع ، والضجيج يصل الى السماء الصافية الاديم .

ولحق به السيد هو وجامبوا ، وقالا له وهما يمران بجواره قدما : « اتبعنا ، فسنطوف بالملاهى الليلية ، ونبدأ بملهى الحظ العظيم »

* * *

• **وكان** هذا الملهى أفخر ملاهى المدينة ، وهو الذى سمع فرانسيس عنه فى بار « النجم الابيض » ، ورواده من طبقة مختارة .. ودخل السيد « هو » وجامبوا الى جميع القاعات وراء فرانسيس . وبعد نصف ساعة أفهماه بالاشارة أن لا فائدة من تبديد الوقت هناك ، فانتقلوا الى ملهى آخر اسمه « الدورادو » .. ولم يكن حظهم بأحسن من سابقه ! .. ووقفوا فى طريقهم أمام ملهى من الخشب ، يلعب فيه الناس ـ خلسة ـ لعبة الحيوانات الستة وثلاثين .. وهى لعبة تشغف بها المرأة الصينية . ويختار اللاعب الحيوان الذى يراهن عليه ـ كالفأر ، أو الثور ، أو الارنب ، أو الثعبان ـ اعتمادا على ما يكون قد شاهده فى الاحلام فى الليلة السابقة . فمن رأى فى حلمه شجرة ـ مثلا ـ فعليه أن يختار القرد ، ومن رأى فى حلمه رجلا فى ثياب مخططة اختار النمر .. ومنظمو هذه اللعبة المحتالون يسعون الى بيوت العملاء ليتلقوا مراهناتهم . **وكان المحظوظون ـ وهم قلة نادرة ـ يتقاضون بعد عمليتى السحب اللتين تجريان يوميا ، قدر قيمة مراهناتهم ثمانى وعشرين مرة . والواقع أن الحيوان الذى يدر الربح ، كان يختار فى مكتب المدير .. وهو دائما الحيوان الذى لم يراهن عليه غير القلة .**

ووقف فرانسيس يرقب زبائن ذلك الملهى ، ثم لم يلبث أن

انصرف ، ودخل بعد ذلك ملهى « السعادة غير المنتظرة » .. وكانت لعبة « الفانتان » على أشدها ، والزحام شديدا حول المائدة الرئيسية . وفجأة ضغط السيد « هو » على ذراع فرانسيس وهمس فى أذنه : « أنظر الى الطابق العلوى .. هناك ، فى الشرفة من جهة اليسار ! »

ولم يجد فرانسيس عناء فى معرفة الشخصين اللذين اعتديا عليه ، فقام بالمناورة المتفق عليها .. وتسلل السيد « هو » وجامبوا وسط الزحام ، الى أن وقفا عند باب الخروج .

وكانت المناورة تتمثل فى صعود فرانسيس الى الطابق الاعلى ، حيث أطل من الشرفة ليراهن كما فعل فى المرة السابقة .. بدولار ، ثم اثنين ، ثم ثلاثة ، ثم أربعة ، ثم خمسة ! .. **وكان يتعمد عند كل مراهنة أن ينظر بالحاح الى جهة السلم، كمن ينتظر وصول شخص بفارغ الصبر ، وهو يعلم تماما أن الجاسوسين كانا يراقبانه ، اذ أنهما اختفيا عند ظهوره وراء المراهنين الآخرين** .. وبعد أن خسر بضعة دولارات دار على عقبيه ، واتجه نحو السلم . ولمح فى مرآة أن الشخصين تبعاه . فخرج من ملهى « السعادة غير المنتظرة » ، ليرى السيد « هو » وجامبوا جالسين فى السيارة « الفورد » ، تحت أشجار قريبة ، وآلة السيارة دائرة . فأسرع فرانسيس فى اتجاه مكتب الجمرك .. وتأكد من أن الجاسوسين كانا يتعقبانه !

وحسب تعليمات السيد « هو » ، عرج فرانسيس بغتة على شارع معتم ، فأسرع الصينيان الى الاقتراب منه . ولما لم يعد يفصلهما عنه أكثر من عشرين مترا ، وصلت السيارة ، ووقفت فجأة بجوارهما . وقفز السيد « هو » برشاقة غير متوقعة منه وكذلك فعل جامبوا الذى كان ممسكا بمسدسه فى يده مثله .. وسددا ضربة عنيفة الى مؤخرتى راسى



الصينيين ، فتهالكا على الارض . وعاد فرانسيس لكى يكون فى مؤازرة صديقيه . فأمره السيد « هو » أن يساعدهما فى نقل الجاسوسين الى السيارة بأقصى سرعة .

وأودع الجاسوسان أرض السيارة — بين المقعدين — ثم غطاهما السيد « هو » بغطاء السيارة العتيق فأخفاهما تماما. وما لبث أن أسرع يقود سيارته الى مطار سان جوان .. فلم يقف بها الا عند مخزن الطائرة . فنقل ثلاثتهم الصينيين بسرعة الى داخل الطائرة ، وأخفوهما تحت أكياس كانت موجودة هناك . وما أن انتهوا من اخفاء الجثتين حتى ارتفع صوت من الخارج : **« يا سيد هو ! »**

فتصبب فرانسيس عرقا باردا . وأطل رأس أحد موظفى جمرك (ماكاو) خلال الباب ، فالتفت اليه السيد « هو » وصاح بابتسامته العريضة ، اللطيفة : « مساء الخير يا سيد فارجاس ! »

— هل سترحل الطائرة فى هذه الساعة المتأخرة ؟

— نعم ، فلا بد لى من السفر الآن الى هونج كونج .. هل لك فى سيجار « هافانا » يا سيد فارجاس ؟

ــ شكرا لك يا سيد « هو » . ومع السلامة !
واختفى موظف الجمرك ، فالتفت السيد « هو » نحو فرانسيس وقال فى بساطة : « انه صديق قديم ! »

* * *

• **وبعد** نصف ساعة ، تلقى فرانسيس الاذن بالطيران ، فانطلقت الطائرة . وما أن ارتفعت فى الجو ، حتى التفت فرانسيس الى جامبوا قائلا : « كأنهما خطاب ينقل بالبريد الى مقصده ! » . فقال جامبوا : « أتعرف لماذا قدر لهما هذا المصير ؟ .. لانهما تصيداك فى ملهى .. السعادة غير المنتظرة ! »

واذ أصبحت الطائرة فوق عرض البحر ــ بعيدا عن الشاطىء ــ متجهة الى هونج كونج ، التفت فرانسيس ، فرأى السيد « هو » جالسا فى المؤخرة . ثم أحس بتيار هوائى شديد ، يندفع الى جوف الطائرة ، فدهش ونظر خلفه ، واذا السيد « هو » قد فتح باب الانقاذ ــ الذى يقفز منه الركاب عند الخطر ــ فسأل جامبوا ، الذى كان يتأمل المنظر باسما مستمتعا : « ماذا خطر له ؟ »

ــ انه يرى أننا مثقلون أكثر مما ينبغى !

وعندئذ ، رأى فرانسيس السيد « هو » يرفع الاكياس عن الصينيين الفاقدى الوعى ، ثم يرفع أحدهما من قدميه ، فيطوح به فى الفضاء . وبعد دقيقة طوح بزميله . ثم أغلق الباب بعناية وهدوء تام ، وجلس وكأن شيئا لم يحدث ! ..

وشعر الطيار بما طرأ على الطائرة من خفة ، اذ قفزت فى الجو ، ثم استأنفت طيرانها المعتاد .. وذهل فرانسيس ، ونظر الى جامبوا ، الذى كان يغالب الضحك أمام جهاز اللاسلكى .. وقال له : « ما الذى يضحكك يا جامبوا ؟ »

ــ انى أتصور سمك القرش وهو يستمتع بوليمته فى هذه اللحظـــة !

★ ★ ★

• **وكانت** مقابلة فرانسيس والسيد « هو » لفان لونج فى داره فى هونج كونج حرية بأن تطيب كثيرا لهواة المفـــارقات الساخرة ، فان أولى عبارات فان لونج كانت : « أنجحتما أم فشلتما ؟ » .. فقال السيد « هو » بكل ثبات وقد شـــبك يديه فوق بطنه : « بل نجحنا » . ثم روى الوقائع كلها للسيد « فان لونج » ، الذى راح يستمتع بتلك التفاصيل ، ثم قال : « كان الحظ فى جانبكما اذ عثرتما على هذين النسـنـاسين فى ملهى « السعادةغيرالمنتظرة » .. كان هذا حظا عظيما حقا ! »

ــ لقد قلت لك يا سيد فان لونج اننا حملنا هذين الوغدين فى سيارتى الى سان جوان .

ــ وهل ساءلت نفسك عما تفعل بها ؟

ــ طبعا . فلو اننى قتلتهما بالرصاص ، لكان ذلك حماقة كبيرة ، اذ أن السلطات كانت خليقة بأن تدس أنفها فى الموضوع . ومن ثم لم يكن هذا الحل موضوع بحث .. ولكننى نقلتهمـــا ــ وهما فى اغمائهما ــ بمساعدة السيدان أرنولد و جامبوا ، الى الطائرة . ثم اقلعنا على الفور .

ــ وهما معكم ؟

ــ أجل يا سيدى . وما زالا فى اغماء .. وعندئذ ، ظهرت مشكلة جديدة تحدت ذكائى المتواضع ، فقلت لنفسى : اننـــا لن نستطيع أن نذهب بهما الى مطار فيرفيلد ، والا تعرضـــنا لاسئلة محرجة من السلطات الانجليزية . فماذا نصنع ؟ .. وأشارت على عقليتى المتواضـــعة بحل بارع .. وفى أثنـــاء تحليقنا فوق البحر فى الظلام الدامس ، فتحت باب الطائرة ، وألقيت بصاحبينا فى الفضاء !

– وكانا مغشيا عليهما حتى ذلك الحين ؟

– نعم يا سيد فان لونج .. وقد اختفى الاثنان الى الابد فى المياه المالحة من ارتفاع .. كم مترا يا سيد أرنولد ؟

– ألفى متر يا سيد « هو » .

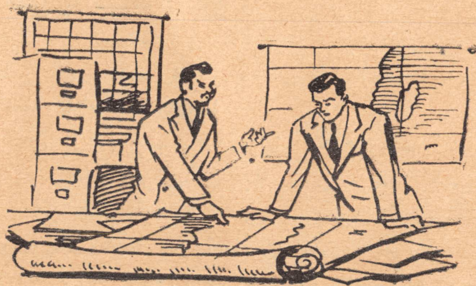
– ألفى متر يا سيد فان لونج . سيدهشنى كثيرا أن يرد الهواء الطلق صوابهما ، فيعودان الى (ماكاو) سباحة !

– أحسنت يا سيد هو !

وابتسم فان لونج ابتسامة هينة ، فرسم السيد « هو » على وجهه ابتسامة أخرى مهذبة . وسرت العــــدوى الى فرانسيس ، فابتسم أيضا حتى لا يكون أقل تهــذيبا من السيدين .. وكان هذا هو التأبين الذى حظى به الجاسوسان!

وفى اليوم التالى ، تناول فرانسيس العشاء مع حبيبتــه « نينا » . واحتراما لفروض الصمت والكتمان ، اكتفى بأن قال لها أنه قام برحلة ثانية الى (ماكاو) ، لحســاب الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير .. وجلس الحبيبان السعيدان الى المائدة ، فقدم اليهما كبير الخدم قائمة الطعام . واختارت « نينا » طبقا روسيا . أما فرانسيس فقد احتــار فى أمر طعامه ، فاقترح عليه كبير الخدم أن يأكل سمكا صادوه حديثا .. وقال : « انه طازج جدا يا سيدى ! »

وتذكر فرانسيس على الفور الصينيين اللذين ألقيا فى ظلام الليل الى لجة البحر ، فرفض بحرارة ذلك الاقتراح ، قائلا : « كلا . شكرا لك .. الا السمك ! أعطنى طبقا روسيا كالذى طلبته الآنسة ! »



الفصل الخامس

جنازة حارة !

• كانت المهام التى قام بها فرانسيس حتى الآن ، مهاما لا ضرر منها نسبيا . فقد ظل فان لونج ـ طوال ثلاثة أسابيع ـ يبعث به حاملا رسائل عاجلة الى (ماكاو) ، أو يكلفه باحضار وثائق سرية من (تايبه) عاصمة (فورموزا) ، التى لا تبعد عن هونج كونج الا بمسافة تقطعها الطائرة فى ساعة وربع .

وذات مساء ، انعقد فى « فيلا » فان لونج مؤتمر ضم اثنين من كبار الصينيين ، مندوبين عن هيئة أركان حرب الجيش الوطنى فى (فورموزا) . وظل البستانيون المسلحون ساهرين فى أركان الحديقة الاربعة . .

وقال أحد الصينيين ـ وهو الكولونيل « هان يو » المستشار المقرب الى الماريشال شانج كاى تشك ـ مخاطبا فان لونج ، الذى كان يصغى باهتمام : « لقد دنت ساعة العمل ، ولم نعد نستطيع مزيدا من الانتظار ونحن فى حالة الجمود هذه ، التى

تعنى شلل الدولة . وقد صدق فيلسوفنا « شينج يون فاى » فيما قاله أخيرا من أنه « ليس للشعوب أن تصاب بالروماتزم ولا تيبس المفاصل » ! وقد تعرضنا للنقد الشديد فى الخارج ، ومن بين الناقدين « ك . س . وو » ، الذى قال : « اذا كان رجال فورموزا عازمين على اعادة غزو الصين الكبرى ، فيجب أن يلقى نظام الماريشـــال تأييدا كليا من جميـــع الدول الديموقراطية الاجنبية . ولكن نظام الماريشال جدير بأن يفقد احترام تلك الدول وتقديرها ، ما دام هناك قوميســيرون سياسيون - على المنوال الشيوعى - يقوضون روح فرق الجيش المعنوية ، وما دام بوليس الماريشال السياسى السرى يستخدم التهديد والتعذيب ! » .. أننى أسردعليك حملات « وو » للتذكرة ، اذ يجب أن نفتح عيوننا جيدا ونستيقظ . **أننا الآن نستعد للانتقام بمعونة الولايات المتحدة ، ولذا يجب أن نمهد الارض أمامنا للعمل . وأنت يا فان لونج مكلف بقطاع (كوان تونج) ، والماريشال يثق بك ، والقيادة العليا تنتظر منك شيئين : معلومات محددة عن تشكيلات الجيش الجنوبى ، وأعمال تخريب منظمة ومجددة النشاط كى تنهار روح جنود الجبهة المعنوية .** وقد أحيط الماريشال علما بعمليات انزال العملاء بالمظلات ، التى قمت بها فى الخريف الماضى .. وهذه العمليات يجب أن تتجدد وتتكرر ، ولا بد من أن تضرب ضربة قوية مدوية ، لا سيما فى قطاع كانتون .. ! »

وانحنى فان لونج وقال : « أمر الماريشال مطاع ، وتعليماته ستنفذ ! » .. وما لبث الرجال الثلاثة أن عكفوا على خريطة دقيقة لقطاع كوان تونج ، وأخذ فان لونج يدون الملاحظات . وفى هذه الليلة عينها ، أعادت طائرة حربية الكبيرين الصينيين الى قاعدة (تايبه) . ومنذ الصباح الباكر ساد النشاط مكاتب الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ، فتلقى الموظفون فى مكاتبهم أوامر متفرقة لاجتياز الحدود - أصدرها اليهم

فان لونج ـ لكى يحلوا محل الجواسيس الذين قبض عليهم الحمر أو أعدموهم فى كوان تونج . فالاحياء دائما يحلون محل الموتى !

وذات مساء ، استدعى فان لونج « فرانسيس » ، وقال له : « انك حلقت حتى الآن فوق أراض صديقة أو محايدة . **أما الآن ، فانى سأعهد اليك بمهمة أصعب من ذلك .. ولا بد أن خدماتك العسكرية أثناء الحرب جعلتك تألف هذا النوع من الطيران الليلى ، ولذلك فلست أخالك تجهل شيئا من « تكتنيك » الهبوط بالمظلات فى أرض معادية ؟ »**

ـ انى أعرف هذا القبيل من العمليات .

ـ حسن جدا .. تعال معى ندرس هذه الخريطة ، التى تمثل منطقة (كانتون) ، بمقياس واحد من عشرين ألفا من المسافة الحقيقية !

وبسط فان لونج خريطة كبيرة ، ثم أشار الى نقطة على مسافة ثمانين كيلو مترا الى الشمال الشرقى من عاصمة (كوان تونج) . وقال : « أنظر الى هذا الصليب الاحمر ! انه نقطة الوسط فى سهل ، تطوقه التلال وتنتشر فيه حقول الارز . وهو الموضع المحدد الذى يجب أن تلقى فيه بالبراشوت ستة طرود خفيفة ، مغلفة جيدا ، يزن كل منها نحو ثلاثين كيلو جراما » .

ـ من الديناميت ؟

ـ كلا . بل هى مفجرات ذات توقيت ، مجهزة بساعات .

ـ أهى مخصصة لتفجير القنابل ؟

ـ بالضبط .. وقد أعد هذه القنابل ثوارنا ، ولا ينقصهم الا هذه المفجرات . وسيكون من نصيبك أن تحملها اليهم فى ليلة ١٤ ـ ١٥ ، فى الساعة ٢٣ وثلاثين دقيقة بالضبط !

ـ وما هى العلامات المتفق عليها ؟

ـ أربعة نيران على شكل معين ، ستوقد هناك فى الساعة

٢٢ و ٢٥ دقيقة بالضبط . ويجب أن يكون سقوط الطرود الستة مضبوطا بحيث تستقر على الارض فى وسط الشكل المعين ! . ثم اليك هذه التوجيهات التى ستتيح لك الحد الاقصى من الامان : فان المدفعية المضادة للطائرات نشطة جدا حول (كانتون) . وأنصحك عند القيام من (فيرفيلد) أن توجه الطائرة نحو ماكاو ، كأنك ذاهب فى رحلة من رحلاتك المعتادة .. حتى اذا صرت فوق ماكاو ، فحلق على ارتفاع ستة آلاف متر ، واتجه الى الشمال الغربى . وبعد أن تقطع فى هذا الاتجاه مائة كيلو متر حول الدفة نحو الشمال الشرقى ، ثم اقذف بالمظلات هذه الطرود ، على ارتفاع مائة متر . ومتى تم القاؤها ، اتجه على الفور نحو ماكاو ، عن طريق نهر اللؤلؤ ، الذى يجب أن تطير فوقه بأقصى سرعتك ، تحاشيا للمدفعية المضادة التى ستحاول أن تتصيدك فى الطريق . وأمامك فرصة توازى تسعين فى المائة للنجاة .

ـ حسنا .

ـ ومتى صرت فوق ماكاو ، اتجه نحو البحر ، فى اتجاه جنوبى غربى . وعليك أن تطير على ثلاثين مترا من سطح الامواج ، اذا ما وجدت طائرات الميج الصينية فى دوراتها فوق المياه الاقليمية لمقاطعة كوان تونج .. ثم اهبط ـ أخيرا ـ فى فيرفيلد !

ـ مفهوم يا سيد فان لونج .

ـ وسيتلقى جامبوا تعليمات محددة ، كى يقوم بمساعدتك على خير وجه ، فهو يعرف المنطقة جيدا . ويمكنك أن تعتمد عليه .

* * *

وفى تلك الليلة ، كانت النجوم تتلألأ فى سماء صافية الاديم . وكان **فرانسيس** جالسا بجوار جامبوا ، أمام مخزن

طائرته « الالباتروس » . وكان قد حسب بدقة الوقت اللازم لاتمام العملية ، فاذا به لا يزيد على خمس عشرة دقيقة .. ومن ثم فقد كان أمامهما نصف ساعة قبل التحليق ، فجلسا على العشب يدخنان . وقال فرانسيس لجامبوا : « هاك رحلة تغاير ما تعودته من غزواتك الغرامية فى ماكاو ! » .. فأطلق جامبوا زفرة طويلة ، ثم قال : « يا للخسارة ! .. مما يرثى له أن لا نستطيع الهبوط بالباراشوت فوق سفن الزهور الراسية فى شاطىء (شامين) ! »

وسأله فرانسيس : « أتعرفها ؟ » . فزفر جامبوا مرة أخرى ، وقال : « أأعرفها ؟ ! .. لقد بدأت تاريخى الغرامى الحافل هناك ، وكان عمرى وقتذاك أربعة عشر عاما ونصف عام ! » . فقهقه فرانسيس ضاحكا ، وقال : « ياعزيزى جامبوا ، انك تحدد معالم الكرة الارضية بمغامراتك .. فلو أن أحدا حدثك عن الاكروبول ، لقلت له : « أن هذا يذكرنى بيونانية حسناء لها عينان كثمار اللوز » ! .. واذا سألك أحد عن رأيك فى حمامات الامبراطور كركلا الساخنة ، لقلت : « آه . انه المكان الذى قرصت فيه ردف امرأة رومانية سمراء ، فاحمة الشعر كالليل ، غيورا كالنمرة ! » .. هكذا أنت حقا ! »

ـ أليس هذا طبيعيا رغم كل شىء ؟ .. لقد كان أبى من أجمل رجال البرتغال فى زمنه ، وقد أورثنى اعجابه بالجنس الضعيف ، ونظرته الى الكرة الارضية من خلال جمال المرأة .. لان الله خلق النساء للترفيه عن الملاحين .. وهذه هى نظرة الرجل الحكيم !

ـ انها حكمة ستقودك الى المقعد ذى العجلات ، حين تبلغ الخمسين من عمرك !

ـ ربما ! .. ولكنى أكون قد أفدت من الحياة حتى تلك السن .. فالاحمق هو الذى يتطرف فى العفة ، ولست أحب لنفسى أن يكون تابوتى فيما بعد خزانة الفرص الجميلة الضائعة !

وكانت عينا جامبوا تلمعان لذكرى مغامراته الغرامية . واستخرج لنفسه سيجارة - من العلبة التى قدمها اليه فرانسيس - واستطرد قائلا : « فلنعد الى الحديث عن سفن الزهور .. اننى أتذكر قوادة عجوزا من الصينيات ، كانت تقدم - لمن يدفع الثمن الاعلى - صبية جميلة - من حسان (كانتون) - فى الخامسة عشرة من عمرها .. وهى سن « جولييت » ! أما جسدها فكأنه تمثال من العاج .. ولها عجز متماسك مثل كرات الجولف . وكانت فضلا عن هذا لعوبا ، جريئة تلعب بالرجال كأنهم كرات من الصوف تلهو بها قطة ! .. وكان مجموع عمرى وعمرها لا يكاد يبلغ الثلاثين . وظنت العجوز التى كانت تقدمها اننى لست بادئا ، حديث عهد بالمغامرات ، بل ظنتنى خبيرا بفنون الهوى . فلم يخطر ببالها ان هذه القطة الكانتونية هى التى كان مقدرا أن ترينى الدنيا ! »

ووضع جامبوا أصابع يده اليمنى مجتمعة أمام شفتيه ، كمن يرسل قبلة ، وصاح : **« آه يا فرانسيس ! متعة جديرة بالآلهة ! ومائدة جديرة بالملوك ! وفى الساعة الثالثة صباحا ، أغمى على من الارهاق ، فقامت العجوز بردى الى الصواب بضربات قاسية من خرقة مبللة بالماء القذر الذى يجرى بين ضفتى نهر اللؤلؤ ! .. فلما عدت الى اليابسة كانت قد سلبتنى دولاراتى العشرة ! »**

- ألم ترها بعد ذلك مطلقا .. هذه القطة الفاتنة ؟

- كلا للأسف ! .. بل علمت بعد ذلك بثلاث سنوات أن كولونيلا صينيا خنقها !

- يا للمسكينة ! ولماذا ؟

- كان هذا الكولونيل لا يحب أن يشاركه أحد اياها !

وبدرت عن جامبوا اشارة غامضة ، ونفخ دخان سيجارته نحو النجوم ، وهو يقول : « انها الآن فى جنة الهريرات الصغيرة .. ضحايا قسوة الصفر الجبابرة ، الانانيين ! » .. ونظر

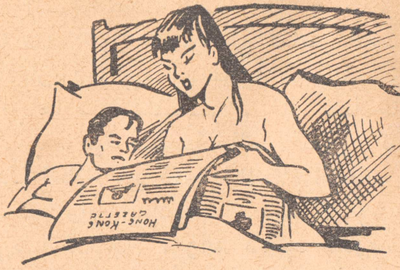
فرانسيس الى ساعته . فاذا الوقت قد آن كي ينسيا حديث المغامرات . فقال آمرا : « يا جامبوا . الى الطيران! »

وأقلعت الطائرة . . وبعد قليل وصلت فوق ذلك المكان المعين الذى حدده السيد لونج . وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والعشرين وأربعا وعشرين دقيقة . فأشار جامبوا يرشد جاره الى أربع نيران مشتعلة على الارض . . وشرع فرانسيس يحوم فى الجو ، ثم هبط الى ارتفاع مائتى متر . وقام جامبوا بالقاء الطرود الستة . . ووفقا لتعليمات فان لونج ، انقض فرانسيس مقتربا من الارض ، ثم طار بأقصى سرعة فوق ميـــاه نهـــر اللؤلؤ ، التى بدت كشريط من الفضة . . وتمت العودة دون ما ضرر أو عقبة . وقبل منتصف الليل بعشر دقائق ، كانت الطائرة تحلق فوق البحر ــ على ارتفاع عشرين مترا من سطح الامواج ــ ثم هبطت فى مطـار فيرفيلد . وقـدم فرانسيس تقريرا عن مهمته الى « فان لونج » ، الذى سر للنتيجة وقال له : « لسوف تعرف ــ بعد قليل ــ نتائج طيرانك الليلى ! »

* * *

• **وكان** من عادة فرانسيس و « نينـــــا » أن يناما الى الضحى ، فى أيام الاحد . وفى ذلك اليوم كانا متعانقين فوق وسادة واحدة ، وأنف فرانسيس بين غدائر شعر نينا البنى اللون . . وكان يحب أن يحس فوق جسده بذلك الجســـد الجميل المشوق الحار ، الذى كان يعلم أنه له وحده . **ولم يكن فرانسيس متيما يوما ــ كما كان فى ذلك الوقت ــ بتلك الحسناء الروسية المنشورية ، التى جمعت فى توقد عواطفها بين عزيمة أبيها ورشاقة أمها وسحرها !**

ونهضت نينا بخفة ، فالتقطت ــ من فوق البســـــاط ــ صحيفة « هونج كونج جازيت » ، وراحت تتصفحها . وفجأة استلفت نظرها مقال عنوانه : **« جنازة حارة ! »**



وأخذت تطالع المقال . ثم عجزت عن أن تقاوم الرغبة فى تنبيه صاحبها ، فقالت له : « أرأيت هذه القصة يا حبيبى ؟ .. انها غريبة للغاية ! » . فتساءل : « وما هى ؟ » . فقالت : « جنازة حارة للسيد تشن » .. وقال فرانسيس : « لا ، لم أرها . لماذا ؟ » . فقالت : « اذن أسمع هذا ! »

وشرعت نينا تقرأ بصوت مرتفع : « روى صينى من أهالى (كوان تونج) ، جاء الى ماكاو ـ منذ أيام ـ لاجئا ، مأساة غريبة من مآسى الحرب الخفية التى تدور بين دولتى الصين . ولم تشر الى هذه المأساة الصحف التى تصدر باللغة الصينية فى (بى بنج) ، لان رقابة حكومة الجمهورية الشعبية لم تسمح بكشف النقاب عنها . واليكم الوقائع : فى ليلة ١٤ ــ ١٥ من أكتوبر ، كمن فى مزارع الارز أربعة فلاحين من (تشاوتشونو)، وأوقدوا أربع شعلات من النيران عند أركان الحقل الاربعة . **وكانت هذه هى الاشارة المتفق عليها كى يتلقى عندها هؤلاء الاربعة من رجال « تشانج كاى تشيك » ، المواد اللازمة لصنع القنابل المتفجرة ، بوساطة المظلات التى تسقطها عليهم طائرة قادمة من فورموزا** .. وبعد أن التقط هؤلاء الفلاحون ما سقط عليهم من السماء ، ليستكملوا بها صنع قنابلهم ،

وضعوها فى معبد مهجور مكرس لبوذا ، رب الرجاء .

« والى هنا والعملية عادية تشبه كثيرا غيرها ، اذ أن أعمال التخريب كانت منذ الازل عنصرا من عناصر الحرب الباردة بين الاشقاء المتحاربين . بيد أن عملية هذه المرة ، كان مكتوبا لها أن تتخذ اتجاها غير منتظـــر . فان فـلاحا كهلا يدعى « تشن » ، مات بعد عيد منتصف الخريف فى (كوانج لين) . وكانت أسرة هذا الفلاح من ضحايا النظام الجديد ، اذ أن ابنها البكر أعدم بسبب آرائه المعادية . فكانت الاسرة على استعداد لانتهاز أول فرصة للانتقام . **وقد ذهب مندوب المقـــاومة السرية – فى ذلك القطاع من كوان تونج – الى أرملة الفـلاح الكهل وأبناء أخيه ، وعرض عليهم الخطة المـاكرة التى دبرها الثوار ..**

« فمن المعروف أن الجنازة الصينية لا تشيع الا بعد أن يحدد ساحر القرية اليوم والساعة المناسبين ، كما يعين الموقع الذى يجب أن يستريح فيه الفقيـــد فى الارض ، كى تتقبله الارواح – فى العالم الآخر – قبولا حســـنا ! .. وكان من المقرر أن يسلك موكب جنازة السيد « تشن » طريقا محاذيا لسـكة حديد كانتون الذاهبة الى (شيوشاو) . فرؤى أن لا توضع جثة الفقيد فى تابوته الفخم – كما تقضى التقاليد – وانما فى تابوت متواضع من الخشب الابيض ، يخبـأ فى مكان ما من بيت الفلاح . فاذا كان يوم الجنازة الرسمية ، حمل التابوت الضخم الثقيل على أعناق عشرة من المتطوعين – وهو خال – الى جبل الياسمين ..

« وطريق شيوشاو يمر – فى بقعة معينة منه – قريبـــا من مخزن للبنزين ، يخفيه جيش الثورة الشعبية . وهذا المخزن هو الذى يمد أسراب الطيران – فى جيش الجنوب – بالوقود ، ويتسع لنحو أربعمائة طن من البنزين .. وكانت تسبق موكب الجنازة – الذى سار وراء التـــابوت الضخم

الخالى من جثة الفقيد ــ جوقة من الموسيقيين والنائحات ، وفقا للتقاليد ، ومعهم حملة القرابين والصدقات . ومن وراء هؤلاء أفراد الاسرة .. وعند ما صدرت اشــارة معينة من مندوب المقاومة السرية ، وقف حملة التابوت فجأة ، وأظهروا فزعا مباغتا . **فدهش أفراد الاسرة وتساءلوا عن سبب هــذا الفزع ، فأعلن حملة التابوت أنهم ســمعوا من داخله طرقات صماء .. فلعل السيد تشن لم يمت حقيقة ، وانه أفاق من غشية وقتية ، فكان يحاول الاســتغاثة .** وفزع الجميع وبادروا الى الفرار ــ بناء على اشارة متفق عليها من مندوب المقاومة ــ وهم يصرخون رعبا ، لان الارواح الشريرة توشك أن تنقض عليهم عقابا لهم على اقدامهم على دفن هــذا الميت قبل أوانه ..

« وما أن وضع التابوت على أرض الطريق ، وتوارى جميع المشيعين وراء ربوة هناك ، حتى ملأ الجو انفجار مروع ، تلاه آخر ، ثم ثالث ، ثم رابع .. **وشيئا فشيئا ، وصلت النــار الى الاربعمائة ألف لتر من البنزين ، فأشتعلت وملأت السماء بسحب من الدخان الاسود !** .. ولقد كان نجاح هذه الخطة ــ التى رسمها المتمردون ــ تاما ، بفضل القنابل التى كانت مخبأة فى تابوت السيد « تشن » . فأصبحت وفاته وسيلة جبارة للانتقام لابنه الذى أعــدمه الجلاد لعــدائه للنظام الشــيوعى .

« وقد أضاف اللاجىء ــ الذى حمل الينا القصة من كوان تونج ــ أن أسرة السيد تشن انضمت الى المقاومة السرية ، كى تنجو من الاضطهاد الذى كان ينتظرها ! »

★ ★ ★

• **وبعد** أن فرغت نينا من القراءة ، وضعت الجريدة فوق ركبتيها . وكان فرانسيس قد أصغى لذلك المقــال باهتمام

بالغ ، الا أنه تصنع عدم المبالاة ، كأى رجل خبر مآسى الحرب العالمية الثانية ، واكتفى بأن قال معقبا ببساطة : « ليس السيد تشن هذا أن يشكو من أن جنازته لم تكن حارة ! »

وركعت نينا فوق الفراش ، وحملقت فى وجه فرانسيس وقالت وقد عقدت ذراعيها فى حياء فوق ثدييها : « أتصدقنى يا فرانسيس لو أننى أعترفت لك بأنى كنت أوثر أن أكون بين أعضاء أسرة السيد تشن ، كى أشهد جنازته التى انتهت تلك النهاية النارية ؟ »

ـ ما كنت أظنك ـ يا يمامتى الصغيرة ـ حقودة الى هذا الحد .

ـ انك لم تعرفنى بعد ...

ـ بل أعرفك تماما ! .. من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب !

ـ كلا أيها الحبيب .. وأرجوك أن تدع التعرف الى معالم قشرتى ، وتكف عند تلمس نصفى الجنوبى ! .. انما كنت جادة فى حديثى ، ولا تنس أن والدتى العزيزة ـ رحمها الله ـ كانت روسية ومن بنات المهاجرين . **لقد ضحينا بأسرتنا كلها على مذبح الثورة الروسية ، فقتل جميع أفرادها رميا بالرصاص أو شنقا .. فهل من عجب أن أسر حين أرى رجال المقاومة من اتباع فورموزا يوجهون هذه الضربات السرية الى حلفاء السوفييت من الصينيين ؟** .. ان هذا أمر طبيعى بعد كل شىء .. ولو أن والدى قضيا بين الديمقراطية الغربية مثلا ، لوجدتنى أول راغبة فى ايذاء الغرب سرا .. أتحب أن أبوح لك بسر ؟ اعلم اذن أنه لو واتتنى الفرصة ، لما ترددت فى عرض خدماتى على رجال المقاومة من أعوان شانج كاى شيك !

ـ على رسلك ! .. دعى المتخاصمين يسوون خلافاتهم فيما بينهم ، واكتفى انت بسرد محاسن المخمل والحرير واللينو لعميلات محلات الاخلاص !

وبحركة حادة من رأسها ، ألقت نينا غدائر شعرها الاسود الى الخلف ، وكانت قد تهـدلت فوق جبينها . وضربت بقبضتيها الصغيرتين صدر حبيبها ، وصاحت بين الضحك والممازحة : ((**انني لم أخلق لحبك الصوف ، ولاطهو الارز ، وانما خلقت للقتال !**))

فانفجر فرانسيس ضاحكا ، وقبض على ذراعى عشيقته فشل حركتها ، ثم جذبها اليه برفق وهو يغمغم : ((أحبك يا نينا .. وكم أحبك حينما يستولى عليك الغضب هكذا ، كأنك تهمين بتحطيم كل شىء !))

* * *

• **كانت** سفن الزهور فوق نهر اللؤلؤ بكانتون ، من أهم الطرائف التى يزورها السائحون الغربيون ، يوم كان مسموحا لهم بدخول الجمهورية الصينية . ولا تزال هذه المؤسسات الجميلة ـ التى لا توجد الا فى الصين الجنوبية ـ احدى عجائب المنطقة . وهى عبارة عن قوارب راسية بين ضفتى النهر ، لتكون مواخير عائمة للحب الجنسى ، يؤمها الماجنون والعسكريون فى ساعات الانطلاق .. وفى الليل ـ فى ضوء القمر ـ يطوف الرواد مستعرضين سفن الزهور ، فى زوارق صغيرة . فيجدون هذه العوامات مضاءة بمصابيح ((الاسيتيلين)) ، وقد احتشدت فيها نماذج من الجمال الصينى .. وتسمع بين الحين والحين تعليقات مرحة ، وعبارات غزل ، وأصوات تتغنى بالاناشيد الشعبية التى كانت رائجة منذ ثلاثين عاما .

وكانت السيدة ((ينج نينج)) تقطن فى الحى الفرنسى القديم بمدينة (شامين) ، فى بيت من الخشب ، يقع فى مواجهة رصيف الميناء ، بحيث تستطيع هذه السيدة من نافذتها أن ترقب ـ من بعيد ـ أسطول السفن .. وكان لها فى ذلك

مأرب ، لانها كانت من أهم موردات بنات الهـوى والحب المأجور .. فعندما تفقد « سفينة التأوهات » أو « سفينة الجمال الغالى » احدى غانياتها ، لان أحدالهواةاستأثر لنفسه بمستخدمة حسناء ، تقوم السيدة ينج نينج بتوريد بديلة لها على الفور ، أو بديلتين يختار صاحب السفينة منهما من تروقه ! .. فما كانت هذه السائمة البشرية المعطرة تنقص تلك السيدة ، **لانها كانت تملك من المال ما يمكنها من شراء بنات الفلاحين الفقراء بأرخص الاسعار . وبعد أن تدربهن أحسن تدريب بخبرتها الواسعة تدفع بهن الى المستقبل العريض ، على تلك السفن ، فوق نهر اللؤلؤ .. حيث تشهد النجوم الساطعة فى الليالى الصافية غزواتهن الغرامية المشبوبة!**

وكانت مدام ينج نينج فى الخامسة والخمسين من العمر ، قصيرة القامة ، ذات وجه مغضن كثمرة القراصية الناضجة .. وحول شعرها الاشيب شريط من المخمل الاسود ، مزركش بأزهار حمراء وصفراء . وكان لباسها — فى الغالب — ثوبا جميلا سماوى اللون ، يكاد يعصر جسمها الذى ظل على نحافته الاولى .. وكانت أرملة ، قضت معظم وقتها فى حجرة نومها ، حيث تسير بخطى غير مسموعة ، فى نعلين سميكين ، فوق بساط يمتد بين نافذتين تظللهما ستائر من الكشمير .. وبالقرب من فراشها — المصنوع من خشب اللق الاحمر — قفص صغير من الخيزران الذهبى مستدير الشكل ، بداخله عصفورها الحبيب اليها ، يحلم بحريته الضائعة ! . وكانت السيدة ينج نينج تحصل على ايراد ضخم من تجارتها البشرية .. ومن جراء حبها الشديد للمال ، استطاعت مضاعفة ثروتها وايرادها الشهرى ، اذ أصبحت عينا من عيون فان لونج فى (شامين) !

وفى تلك الليلة ، كان الجو حارا . واجتاز صينى متشح بالسواد — كأنه شبح — تلك القنطرة الصغيرة التى تربط

(شامين) بكانتون ، **وطرق الباب بحــذر ثلاث مرات ، ثم مرتين ، ثم مرة واحدة ، ففتحت له الامة العجوز وأدخلته . وبعد التحيات المألوفة وتناول الشاى ، جفف السيد «شياو» وجهه بمنشفة منداة بالماء الحار ، وجلس أمام مضيفته ..**

وكان السيد « شياو » لا يزال شابا .. كان من أبناء كانتون، قصير القامة ، متوقد العينين ، يبدو عليه الحزم .. وكان - من الجهة الرسمية - صانعا فنيا ، ينحت التماثيل من الحجارة الصلدة ، فى حانوته بشارع الياقوت . **أما من حيث الواقع ، فقد كان من أعضاء الجهاز الثورى ، الذى يقوم بنقل الاسرار بين كانتون وهونج كونج ..** وكان يجتاز الحدود أسبوعيا - تحت ستار تسليم سلعه فى كون لون - مخترقا دروبا يعرفها وحده دون سواه ، ليسلم الى يد « فان لونج » الرسائل التى ينتظرها رئيسه على مضض !

وبعد أن أسدلت السيدة ينج نينج جميع الستائر ، قالت بصوت منخفض : « لقد سطرت على هــذه الاوراق تقريرا دقيقا جدا الى السيد فان لونج . وأنا واثقة من أنه سيهتم بما فيه » . فسألها شياو : « وهل هناك جديد ؟ » . فكان جوابها : « أجل .. فالامر يختص باحدى سفن الازهار »

- أهى تلك السفينة التى فى نهاية الصف من جهة الشاطىء الشمالى للنهر ؟

- بالضبط ، وهى ترسو على بعد نحو خمسين مترا من السفن الاخرى .

- تذكرتها ، فهى سفينة منعزلة ، لا يرى الجيران من يترددون عليها .. وقد ذهبت مرة الى هناك منذ سنة ، فقضيت وقتا لطيفا مع الآنسة « زهرة الربيع » . انتظرى .. انها تسمى « سفينة الملذات » !

- هذا هو اسمها فعلا .

- وانت التى تزودينها بالفتيات الراقصات المغنيات ؟

فأجابت : « نعم ! » . وسألها : « وماذا حدث؟ » ، فقالت :

ـ لم يحدث شيء بعد ، ولكن ينبغى أن يعلم السيد فان لونج أن شيئا سيحدث قريبا . وأعذرنى يا سيد « شياو » اذا لم أقل لك أكثر من هذا !

ـ بل أنا الذى يسألك الصفح عن فضولى !

ـ انى أطلب من السيد فان لونج فى هذه الرسالة التى أسلمها اليك أن يبلغنى تعليماته بخصوص فرصة غير عادية ، يحسن بنا ألا ندعها تفوتنا !

ـ ستكون رسالتك فى يد السيد فان لونج فى مدى ثمان وأربعين ساعة . وأعتقد انى سأحضر اليك رده بنفسى !

ـ فلتحرسك الارواح الطيبة طول طريق رحلتك يا سيد شياو !

ـ وأنا أتمنى لك يا سيدة ينج نينج عشرة آلاف سنة سعيدة !

ونهض السيد شياو ، وسلم ، واختفى فى صمت . ولشدة حذره دار حول (شامين) قبل أن يعبر القنطرة الصغيرة ـ مرة أخرى ـ ويختفى فى جوف الليل .



الفصل السادس

السيدة رقم ٢ للجنرال كيانج تاو

• **عندما** حمل السيد شياو الانباء السرية الى السيد فان لونج ، لم يرتكب أى تسرع .. فلم يذهب الى مكتب الشركة الاسيوية ، ولا الى « فيلا » مديرها .. فقد كان هناك موعد أسبوعى ـ محدد مقدما ـ فى مكان معين ، مع مندوب الشركة « شو لى لانج » .. اذ كان الرجلان يتقابلان فى أمكنة مختلفة متغيرة . **فيرتطم أحدهما بالآخر فى الطريق ، وكأن ذلك حدث عفوا ، ثم يتبادلان الاعتذار والمجاملة . وينتهز السيد شياو هذه الفرصة فيدس فى يد المندوب الرسالة المعهـودة ، ثم يستأنف طريقه !**

وبعد ثمان وأربعين ساعة من اللقاء الذى تم بين شـياو والسيدة ينج نينج ، كان قد سلم المظروف ، فحمله المندوب فى المساء الى المدير الذى أطلع عليه . وكانت فحواه كما يلى :

« ان سفن الازهار ـ كما سبق أن أخبرت سعادتكم ـ مصدر للمعلومات لم نستغله بعد استغلالا كافيـا . فبعض

هذه السفن يتردد عليها ضباط حامية كانتون ، وبينهم ضباط الفرقة الثالثة والعشرين .. وان عقد ألسنتهم لتنحل بتأثير الشراب ، وقد تأكدت أنه من المفيد لنا ألا نضيع على أنفسنا بعض المعلومات النافعة التى يمكن تصيدها هناك .

« ولقد سنحت فرصة فذة ستكون على تمام الاهبة قبل الشهر القمرى السابع . وهذه الفرصة ستقدرون سيادتكم قيمتها . وهى كما يلى : **فبين السفن الراسية عند الضفة اليسرى للنهر ، سفينة تسمى ((سفينة الملذات)) ، يمتلكها السيد تشانج فاى ، الذى يعتبر من أخلص عملائى ، اذ اننى أمده ـ منذ أكثر من عشرين سنة ـ بالآنسات اللواتى قامت على جمالهن شهرة سفينته !** .. وبناء على المعلومات غير المباشرة التى وصلت الى ، تأكدت من أن كبار الضباط فى المدينة يترددون على سفينته كثيرا . وسعادتكم تدركون بلا شك مغزى ذلك . وقد سنحت فرصة نادرة لنا بانتواء السيد تشانج فاى بيع سفينته ، اذ أثقلت السنون كاهل الشيخ الجليل فرغب فى التقاعد فى مسقط رأسه نانتج ، بمقاطعة كوانج سى . ولقد ساومت السيد تشانج فاى طويلا ، وانتهى الامر باستعداده للنزول عن « سفينة الملذات » لى شخصيا ، مقابل ثمانية آلاف دولار نقدا .

« فاذا توفر لديكم المبلغ اللازم لهذه الصفقة ، استطعت أن أنجز العملية ، وأعهد بادارة السفينة الى شخصية موثوق بها ، تقومون باختيارها . **وسأعين فى السفينة حسناوين أو ثلاثا ، من بينهن الحسناء ((شوشاو)) التى ستجتذب السادة أركان حرب القيادة الى السفينة . فتصبح مركزا للمعلومات الثمينة لنا !** .. وانا فى انتظار أوامر سعادتكم ، وأرجو أن يتمكن السيد شياو من تسليمى المبلغ ـ فى رحلته القادمة ـ كى أتمكن من انهاء الصفقة مع السيد تشانج فاى »

ووضع فان كونج الرسالة فوق المكتب ، وراح يفكر طويلا

فى اقتراح السيدة ينج نينج ، اذ بدا لعينيه براقا بالآمال . وفى صباح اليوم التالى ، استدعى فرانسيس الى مكتبه ، وسلمه رسالة مكتوبة بالشفرة ، وموجهة الى رئيس المخابرات السرية فى الجيش الوطنى بتايبه عاصمة فورموزا . فأقلع فرانسيس على الفور الى فورموزا ، وعاد فى الليلة ذاتها بالرد .. وكان هذا الرد يتضمن تفويضا للسيد فان لونج لاجراء اللازم بغير تأخير . فقد اتفقت كلمة أركان الحرب هناك على وجوب انتهاز هذه الفرصة النادرة !

* * *

• **وبعد** عشرين يوما ، وصل الكولونيل « هان لو » الى هونج كونج ، واجتمع بفان لونج طويلا – فى « الفيلا » القائمة فى شارع (سيمور) – وأبلغه وجهة نظر رئيس المخابرات السرية . فكانت أولى عباراته : **« ما هى آخر خطواتك مع قوادة شامين ؟ »**

– سيتم توقيع عقد التنازل عن السفينة بعد بضعة أيام . وفى وسعنا أن نقرر ابتداء ادارة « سفينة الملذات » – تحت اشرافنا التام – قبل العاشر من الشهر القادم .

– ولكى نحصل على كل فائدة نطمع فيها من وراء امتلاك هذه السفينة ، قررنا – بعد تفكير طويل – وجوب العناية الشديدة باختيار النساء المخصصات لاجتذاب الزوار اليها .

– فى وسعنا يا كولونيل أن نثق بالسيدة ينج نينج ، التى تنوى تعيين حسناء من اقليم (سوتشاو) ، يضرب بسحرها المثل ، وستكون فتنتها بعيدة الاثر فى كانتون .

– ولكننا نرغب فيما هو أكثر من هذا . فنحن لا نعلم أن كانت هذه الفتاة الحسناء سترغب فى العمل لحسابنا أم لا . وفى حالة رغبتها ، فنحن لا نعلم هل لديها الذكاء الكافى لاستخراج الاسرار النافعة لقضيتنا .. **ولهذا قرر رئيس**

مخابراتنا السرية انتهاج خطة أعتقد أنها عبقرية .. نعم انها خطة عبقرية يا سيد فان لونج . فهل تذكر الجنرال كيانج تاو ، من قواد الجيش الجمهورى ؟

ـ نعم أذكره . فقد كان يقود الكتيبة السابعة عشرة المصفحة .

ـ بالضبط . وقد قتل أثناء الحرب الكورية .

ـ اذكر هذا ايضا ، فقد وصلت الينا أنباء ذلك منذ سنتين على الاقل !

ـ لقد خطرت لرئيس مخابراتنا السرية فكرة الاستعلام بدقة عن الحياة الخاصة للجنرال كيانج تاو ، فاتضح أنه فضلا عن زوجته الشرعية ـ التى دخلت الدير بعد وفاته ـ كان يقتنى ثلاث محظيات .. المحظية الاولى منشورية ، والثانية من زشوان ، والثالثة من هانج تشاو . فكانت السيدة المنشورية تعتبر المرأة « رقم ٢ » فى حياته . وقد اعتكفت فى منشوكو على أثر وفاة سيدها ومولاها . أما المرأة « رقم ٣ » ، فماتت بالكوليرا فى شنج تو .. والمرأة « رقم ٤ » تزوجت موظفا صغيرا فى تسنج تاو ، بمقاطعة شانتونج . والآن استمع يا سيد فان لونج لما سأقوله جيدا ! . **لقد فكرنا فى أننا لو استطعنا أن نضع فى « سفينة الملذات » هذه ، امرأة يظن الجميع أنها المرأة « رقم ٢ » سابقا فى حياة المرحوم الجنرال كيانج تاو ، لاستطاعت هذه النسخة الزائفة من المحظية الاصلية ، أن تستدر الاسرار من ضباط كانتون ، بما لها من ماض ومكانة يجعلانها شخصية عظيمة جديرة باكتساب مودتهم وثقتهم .. فتكون لنا جاسوسة من نوع ممتاز !**

ـ الفكرة فى الواقع بارعة . ولكن ...

ـ انتظر ! .. لقد أحضرنا صورة فوتوغرافية للسيدة « رقم ٢ » هذه ، وكانت تسمى الآنسة « عطر السماء » . وقد حملتها اليك .. ها هى !

ووضع الكولونيل هان يو على المكتب صورة فى حجم بطاقة

البريد . وشرع الرجلان يدرسان معا ملامح المحظية . وكانت سمراء ، جميلة ، رشيقة جدا ، وأنيقة جدا فى ثوبها الحريرى ذى الياقة العالية ، المفتوح جانبه الايمن حتى الركبة ، والمطرز بعناية وفن .. وكان فى أذنيها قرطان طويلان من الذهب ، يمثلان معبدا صينيا مرصعا بالجواهر الكريمة .. وحول معصمها الايسر ساعة مستطيلة الشكل من الذهب ، ذات سوار على شكل حلقات بيضاوية .. وهز فان لونج رأسه – أخيرا – وقال : « لقد كانت مخلوقة جميلة حقا يا كولونيل ! »

– وواجبك الآن أن تبحث – بغير تلكؤ – عن امرأة تشبه الآنسة « عطر السماء » الى أقصى حد ممكن . وتذكر أن المرحوم الجنرال كوانج تاو لم يعتد أن يظهر زملاءه فى الجيش على محظياته اللاتى كان يقتنيهن فى بيته . فقد بلغنا أنه كان مولعا بالنساء ، عارم الشهوة .. وكان يفضل – حين يلهو مع أصحابه – صحبة القيان المحترفات .. **على أنه يحسن – من باب الاحتياط – ان تكون المرأة التى ستقوم بدور الآنسة « عطر السماء » شبيهة بها !**

– سأشرع فى البحث عن هذه الشبيهة ياسيدى الكولونيل .

– ومتى عثرت عليها وتحققت من امكان الاعتماد عليها فى المهمة الدقيقة التى ستناط بها ، فأرسلها الى (تايبه) . وهناك سنعهد بها الى خبراء قلم المخابرات ، الذين سيعلمونها ألف باء المهنة ، وخصوصا دقائق حياة الفقيد الخاصة ، اذ يجب أن تعرفها جيدا ، لانه لا يجوز أن تفاجأ الآنسة « عطر السماء » المزعومة بمقابلة قائد يسألها عن علاقتها بزميله . ثم يكتشف وقوعها فى أخطاء فاضحة .. وانى أطمئنك الى أن هذه المرأة ستدرب أحسن تدريب ، ولن تجهل كبيرة أو صغيرة من حياة الرجل الذى كان مفروضا أنها ملأت فراغ حياته بالمتعة والسحر !

وما أن انصرف الكولونيل يان هو ، حتى شرع فان لونج فى البحث عن هذا الطائر النادر . وكان أول ما فعله فى هذا الصدد ، انه استدعى ياوره وسلمه الصور الفوتوغرافية التى تمثل الآنسة « عطر السماء » . فوعده تشو لى لانج بأن يجتهد فى البحث .. وقضى بضعة أيام يجوب انحاء هونج كونج وكون لون أملا فى العثور على شبيهة معقولة ، ان أعجزه العثور على شبيهة مطابقة لها مطابقة التوأم .. وتصادف ان كان — ذات يوم — فى حانوت للعطارة الصينية ، بين عقاقير الثعابين المجففة ، وأرجل الضفادع ، والاعشاب التى توصف لعلاج العقم ، ودهن الثور الذى يشفى الروماتزم ، والاقراص المقوية للباه .. واذا به يلتقى بشابة فى العشرين من عمرها ، فاتصل بينه وبينها الحديث ، لانه أنس فيها ذكاء . وكانت تشبه الى حد كبير الآنسة « عطر السماء » .. **وعلم منها أنها كانت طالبة ، وأن والدها كان جنديا فى جيش الجنرال المسيحى فونج يوسيان . وكانت الديانة المسيحية التى اعتنقها والدها نذير شؤم عليه ، لانه خنق بعد عامين بأيدى جنود شانج كاى شيك** . وأرهف الياور أذنيه جيدا لهذه التفاصيل ، اذ أدرك منها على الفور أن هذه الطالبة لا يمكن أن تقبل العمل سرا لنصرة الرجل الذى قتل جنوده والدها .. وتخلى مكرها عن هذه المرشحة !

وبعد أسبوع من البحث العقيم ، بدأ السيد شو لى لانج يشعر ببوادر اليأس ، وكأن العثور على شبيهة للآنسة « عطر السماء » من قبيل البحث عن كائن خرافى .. الى أن قادته المصادفة — فى مساء يوم السبت — الى دار «اللوتس الاسود» . وكان بالمكان خلق كثيرون ، فوقف تشو لى لانج يثرثر مع كاتب الحسابات الصينى الذى انتحى به ركنا . واذا به يلمح فرانسيس — فى أقصى القاعة — يحتسى الويسكى مع نينا . وحملق الياور مشدوها .. **حقا أنها ضربة من ضربات التوفيق**

لم يكن يحلم بها ، فقد كانت صاحبة الطيار تشبه الآنسة «عطر السماء» شبها مذهلا ، حتى أن شو لى لانج تسمر فى مكانه مشدوها ، اذ كان قد نقب فى كل ركن وتحت كل جحر فى الاقليم ، مع أن ضالته المنشودة كانت صاحبة السيد أرنولد !

واقترب من المائدة ، وحيا فرانسيس ، الذى قدمه بكل ترحيب الى الآنسة نينا . ثم استأذن فى الانصراف . وركب «ركشه» الى «فيلا» فان لونج وطلب مقابلته على الفور . وأفضى اليه باكتشافه الثمين فى بار «اللوتس الاسود» فقال هذا : «لقد كنت أعرف بالطبع أن للسيد أرنولد علاقة بشابة من منشوريا ، ولكنى لم أكن قد رأيتها من قبل . ولم يخطر ببالى أنها من طراز المرأة التى نبحث عنها !»

ـ يا سيدى . اننى أسمح لنفسى بأن اقترح على سيادتكم التحدث اليها لتحكموا شخصيا ..

ـ قيل لى أن الآنسة نينا موظفة بمحلات الاخلاص ، فى قسم ملابس السيدات .

ـ نعم يا سيدى . فبماذا تأمرون ؟

ـ استخدم اسم أحسن عميلات ذلك المحل . واتصل يوم الاثنين بمديرته ، وقل لها أن السيدة ترجوها أن ترسل الآنسة نينا وونج فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، لتتباحث معها فى اختيار الثياب التى تنوى شراءها .. ثم ترقب وصول الآنسة نينا الى مكاتبنا ، واذكر لها أن العميلة المشار اليها تنتظرها فى شارع (سيمور) ، ثم ائتنى بها لاتولى أنا باقى المسألة !

ـ حسنا يا سيدى .. تستطيع أن تعتمد على فى ذلك !

وفى الساعة الخامسة والنصف ، كانت «نينا» تنتظر فى صالون «الفيلا» وصول العميلة المثرية التى استدعتها . وكم كانت دهشتها عندما رأت فان لونج داخلا . فحياها ، وقدم اليها مقعدا . فقالت له : «سيدى ، ان مديرتنا أرسلتنى

لمقابلة السيدة سن » . فافتر فم فان لونج عن ابتسامة ساخرة وقال : « كان لا بد من استخدام الحيلة ، كى نحصل من مديرتك على تصريح لك بالخروج . وانى أقدم لك نفسى : أنا فان لونج ، مدير الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير »

ولم تستطع نينا اخفاء ذهولها .. فان لونج ؟ ! .. الرجل الذى يستخدم فرانسيس لقيادة طائرته ؟ **ما معنى هذا التصرف ؟ وما الذى يثير اهتمام مدير هذه الشركة — التى لا علاقة لها بتجارة الثياب والازياء — حتى يستدعى لمقابلته نينا البائعة المتواضعة فى محلات الاخلاص ؟**

وطلب فان لونج الشاى كى يدخل شيئا من الطمأنينة على زائرته ، وبدأ يحدثها بعد ذلك بلطف وكياسة : « انك — ما لم تخنى الذاكرة — صديقة للسيد فرانسيس أرنولد ؟ » . فقالت : « أجل يا سيدى »

— انه طيار بارع ، أقدر له خدماته تقديرا عظيما .

— أعتقد يا سيدى أنه سعيد جدا بالعمل فى مؤسستكم .

— اذن يا آنسة فسأتيح لنفسى — ما دمنا لم نعد غريبين تماما — بتوجيه بضعة أسئلة تمهيدية ، أرجو أن تصفحى عما فيها من فضول ، وسوف تدركين فيما بعد الباعث عليها .. من أنت بالضبط ؟

فحدثته نينا عن أجدادها وعن أسرتها . وكان فان لونج يصغى لما تقوله ، لا سيما حين توسم فى ماضيها بوادر الخير لموضوعه .. ولما أشبعت فضوله ، نفذ الى الموضوع مباشرة : « **والآن يا آنسة وونج ، وقد عرفت الى أى المعسكرين المتقاتلين يميل قلبك ، اسمحى لى بأن أسألك سؤالا : ترى لو أتيحت لك الفرصة لايذاء من يحق لك أن تعتبريهم أعداء ، فهل تقدمين على انتهازها ؟** »

— بلا تردد يا سيدى !

— ولو كانت فى ذلك مجازفة ؟

ـ ما كان هذا ليفزعنى !

ـ سأزيد اقتراحى تحديدا : **هل أنت مستعدة للتخلى عن وظيفتك المتواضعة ، التى تشغلينها فى الوقت الحاضر ، كى تنتظمى فى شبكة جاسوسيتنا ، لصالح قوات فورموزا الوطنية ؟** .. مما لا شك فيه أن مرتبك سيتضاعف خمس مرات . سندفع لك أربعمائة دولار شهريا ، اذا اتضح لنا اقتدارك على القيام بالدور الذى سنكله اليك !

ـ سأجتهد يا سيدى فى أن أكون جديرة بذلك .

ـ حسنا يا آنسة وونج .. وما قولك فى عمل سيتيح لك الحصول بصورة طبيعية جدا ـ بل وبصورة حتمية ـ على أسرار هامة جدا من أفواه ضباط جيوش الاعداء ؟

ـ وكيف ؟

ـ بأن تتقمصى ، بفضل الصدفة المواتية ، شخصية الصديقة السابقة لواحد من جنرالات الجيش الصينى ، قتل منذ ثلاث سنوات .

ـ زدنى ايضاحا من فضلك !

فقدم فان لونج الى نينا صورة الآنسة « عطر السماء » وسألها : « ما رأيك فى هذه المرأة ؟ » . وأجابت وهى فى



دهشة : « انها تشبهنى بصورة مذهلة » . فقال : « انها الآنسة عطر السماء ، التى حدثتك عنها .. وقد اختفت هذه المنشورية الشابة منذ وفاة مولاها ، وفى نيتنا أن نحييها فى شخصك الموقر ! » . فتساءلت : « أين ؟ »

— فى كانتون . فوق متن « سفينة الملذات » ، حيث ستقومين بمهمة « المضيفة » ، وستكون تحت امرك امرأتان سنتولى نحن اختيارهما للقيام بالترفيه عن هؤلاء السادة الضباط . **أما مهمتك فتقتصر على استقبالهم وتقديم الشاى والخمر اليهم ، ومنادمتهم منادمة ربة الدار الباشة الهاشة .. سيسكرون ، وستغرينهم بالخمر ، وتستقطين الاسرار التى تنتثر من أفواههم فى تلك اللحظات . ثم تبعثين الينا بتلك الاسرار ، فى تقارير منتظمة ، كى نتمم بها ما لدينا من المعلومات .** ولكننا سنتولى — قبل قيامك بتلك المهمة — تدريبك فى فورموزا تدريبا خاصا ، على يد ادارتنا السرية . هل فهمت ؟

— سيدى ! سوف يسعدنى أن أستطيع مد يد العون لكم فى المعركة التى أناصركم فيها بقلبى !

— **عظيم .. ولكن الوقت ضيق ، ولهذا أرجوك أن تستعدى للسفر فى صباح الغد الى فورموزا .. فى الساعة التاسعة تماما .**

— بالباخرة ؟

— **بالطائرة . وسيتولى السيد أرنولد نقلك الى (تايبه) .**

— أهو على علم بالمشروع ؟

— **ليس بعد . وسأبلغه تعليماتى فى هذا المساء .**

وبلغ تأثر نينا عندئذ غايته ، فعصرت منديلها الصغير بين يديها الجميلتين ، وسألته : « واذا رفض السيد أرنولد ؟ » . فتصنع فان لونج الدهشة وقال : « يرفض ؟ ولماذا ؟ .. ان السيد أرنولد مجرد صديق من أصدقائك ، فليس له أن يقرر مصيرك بدلا عنك ؟ » . فكان ردها : « اراني مضطرة

الى أن أصارحك بأن السيد أرنولد أكثر من صديق بالنسبة لى » . فتساءل : « لعله عشيقك ؟ » .. فغضت نينا بصرها، وهزت رأسها ايجابا . واذ ذاك وضع فان لونج صورة الآنسة « عطر السماء » فى درج مكتبه .. وساد الصمت لحظات ، ثم قال لها :

ـ واذا توسل اليك السيد أرنولد أن ترفضى مشروعى ؟ فماذا يكون قرارك ؟

فرفعت نينا رأسها ، وثبتت نظرها فى نظـــر فان لونج ، وقالت ببساطة : « سأقبل مشروعك على أية حال ! »

ـ وفى هذه الحالة ، اذا رفض السيد أرنولد حملك الى فورموزا ، فستحملك الى هناك احدى طائرات شركة ماتسوبا . . .

* * *

• **وظل** قلب نينا يخفق من شدة الانفعال ، حتى بعد أن غادرت « الفيلا » ، لان مشروع فان لونج غير المنتظر باغتهـــا وأذهلها .. كان مشروعا من شأنه أن يثير الخوف أو يلهب الحماسة ، وقد أمدها دمها المنشورى بالشجاعة والاقدام ، وحفزها دمها الروسى على قبول الدعوة للنزال سرا ضـــــد الصفر المتحالفين مع أولئك الذين ساموا والدى أمها سـوء العـــذاب !

وكانت الساعة السابعـة مســـاء . ولا بد لها من موافاة فرانسيس فى فندق « الملك ادوارد » .. وكانت متلهفة على التحدث اليه ، فدخلت حجرته التى لزمها منذ ثلاثة أيام ـ لفراغه من كل عمل ـ منصرفا الى القراءة لقطـــع الوقت . ووجدته ممددا فوق فراشه ، يطالع روايات « ادجار ولاس » البوليسية العتيقة ، فأفسح لها مكانا الى جواره ، وتطلع اليها بفضول قائلا : « لست عرافا ولا منجما حاذقا ، ولكنى أحس أنك لست فى حالتك الطبيعية . فهل كدرك شىء فى المتجر ؟

هل فصلوك ؟ » . فأجابته : « أوه ! كلا ! »

ـ وان فعلوا فلا داعى للكدر يا ملاكى الصغير ! انى الآن من الثراء بحيث أستطيع كفالتك كفالة تامة !

فابتسمت نينا ابتسامة مصطنعة ، لان حالتها لم تكن تسمح لها بالمزاح . وتناولت رأس فرانسيس بين يديها ، وقربتها من صدرها ، وراحت تداعب وجنتيه ، وهى تغمغم : « انك لم تبعد عن الصواب كثيرا .. فمع أنهم لم يطردونى من متجر الاخلاص ، الا اننى تركتهم ! » .. فهتف فرانسيس : « هذا مستحيل ! .. أترينك تركتهم لتعملى عند احدى الحائكات المشهورات ؟ » . ولكنها أجابت : « اطلاقا ! .. بل سأعمل لدى السيد فان لونج ! »

وقفز فرانسيس مذهولا .. فقد كان يتوقع كل شىء الا هذا ! .. وهتف مشدوها : « ماذا تقولين ! » . فأجابته : « أجل يا عزيزى .. سيكون مخدومنا واحدا نحن الاثنين ! » . فارتسمت معالم القلق على وجه فرانسيس ، وغمغم : « لا يسرنى أن تكونى فى خدمة فان لونج ... فليس العمل عنده مريحا » . ولكنها قالت : « اسمع ! .. دعنى أشرح لك كل شىء ، وعندئذ ستفهم الموضوع ! »

وأطلعته نينا على التفاصيل ، فما أن وضحت له مهمتها الحقيقية ، حتى قطب حاجبيه . وأخيرا لم يتمالك نفسه ان يصيح : « أنه لمجنون ! انه يطلب شططا ! ألا تدركين ما الذى ستفعلين ؟ .. أتكونين مضيفة فى احدى سفن الزهور فى كانتون ؟ .. لماذا لا يكرهك ـ اذن ـ على تصيد الرجال فى شارع فيكتوريا ؟ ان هذا لفظيع ! »

ـ ولكن هذا العمل يا عزيزى فرانسيس جزء من الحرب الباردة بين دولتى الصين !

وسألها : « وبماذا أجبت فان لونج ؟ » . فأجابت : « بالقبول ! » . وهنا صاح : « انك لاشد منه جنونا ! » .

واذ ذاك هتفت في رجاء : « فرانسيس ، لا تغضب ! » . وحاول أن يملك عواطفه ، وان يتحايل على اقناعها ، فقال برقة : « يا عزيزتي نينا ! أتوسل اليك ! .. تصوري الموقف ، فأنت تعلمين ماذا يحدث في هذه المواخير التي تسمى سفن الازهار . ولا أظنك تحسبين روادها يكتفون بقضاء الليل في لعب الورق ! ولست بحاجة أن أضع لك النقط فوق الحروف ! »

ــ أنك تنسى شيئا هاما يا عزيزي : ان المضيفة ــ في تلك السفن ــ ليست من طبقة الفتيات القائمات بالترفيه نظير أجر معلوم . بل هي موضع الاحترام !

وغمغم : « أواه ! » . فاستطردت : « أجل ! أجل ! هذا هو القانون غير المكتوب في تلك السفن . انها تقاليد صينية عريقة محترمة . وفي تلك الوظيفة ، سأقوم بمهمتي في استقاء الاخبار وأنا آمنة ، وأخدم من يقاتلون ضد أعدائي . لقد كنت أحلم منذ زمن طويل بأن أقوم بعمل نافع في هذه الحرب الباردة التي تعرف ــ كما أعرف ــ مبلغ خطورتها . فان كنت تحبني حقا .. » . وهنا قاطعها قائلا : « انت تعلمين جيدا كم أحبك ! »

ــ اذن فلن تمنعني عن الانضمام الى الجيش السري الذي يقوده فان لونج .. فأنت ضمن هذا الجيش فعلا ، مع أن مستقبل الصين لا يؤرقك كما يؤرقني !

فقال : « ولكني رجل .. » . بيد أنها قطعت عليه الحديث قائلة : « على النساء أيضا أن يحملن نصيبهن من العبء في هذا العصر ! » . فصاح : « يا لك من عنيدة ! .. انني ما قبلت هذا العمل لدى فان لونج ، الا لان الفاقة كانت لي بالمرصاد . وحينما تعوز الانسان اللقمة ، فانه يقبل أي عمل : كناسا ، أو بائع صحف ، أو جاسوسا ! .. اما أنت ، فلا ضرورة تدفعك الى ذلك .. لاني هنا ! »

ــ ولكن ما دمنا انسانين متكاملين منسجمين ، فيجب ان

يربطنا هدف واحد وخطر واحد : انت لتضمن حياتك المادية، وانا لانتقم لموتاى !

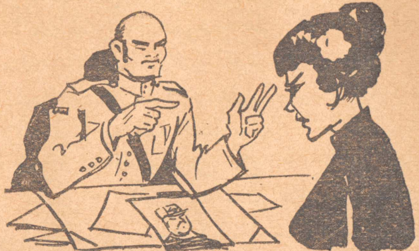
وشرع يقول : « اسمعى يا نينا ! » فقاطعتـه قائلة : « لا فائدة من محاولة اقناعى بالبقاء فى هونج كونج لابيع الثياب والمشدات ! .. لقد عزمت عزما أكيدا ، وقبلت العمـل ، وطلب منى فان لونج أن أرحل غدا — فى التاسعة صباحا — الى فورموزا ، ليدربونى على مهمتى ! » .. فأشار فرانسيس اشارة عجز وتسليم وسكت طويلا ، ثم قال : « هل سترحلين غدا حقا الى فورموزا ؟ » . فأجابته : « نعم . وانت الـذى ستحملنى الى هناك فى الطائرة » . وهنا تساءل فى دهشة : « كيف ؟ »

— هذه أوامر فان لونج .

— تخطفت جثته الزبانية ! هذا القذر ! انى ارفض هذا ..

— اذن سأكون مضطرة لركوب طائرة تجارية يا فرانسيس ، يا حبيبى ! انك لست لطيفا ! .. لئن كتب علينا أن نفترق فترة من الزمن ، فلننتهز لحظات اجتماعنا الاخيرة لنقضى حق الهـوى ! .. قل لى انك لن ترفض نقلى الى هنـاك ؟ .. سنسافر معا ، وسنبقى معا الى آخر لحظة . وانى أشـعر أن ذلك سيكون فألا حسنا لى !

وارتمت « نينا » على صدر عشيقها ، فضـمها اليه وهـو يعجب فى سريرته بشجاعتها . وشعر بأنه يحبها أكثر من ذى قبل ، فلعن القدر الذى انتزع منه فجأة ، تلك الصـاحبة الرائعة المدلهة ، التى لم يعرف نظيرة لها فى الفتنـة والاغراء والاثارة !



الفصل السابع

تشجعى يا زهرتى الصغيرة !

• **كان** الكولونيل « فينج » هو مدير مدرسة الجاسوسية فى تايبه .. وهى مدرسة ملحقة بوزارة الحرب فى فورموزا ، حيث يتم اعداد وتدريب المبعوثين السريين الى الصين الشعبية كى يمدوا القوات الوطنية بالمعلومات العسكرية . وبعد تمام التدريب يرسلون بالطائرات ليهبطوا بالمظلات الى داخل الصين ـ فى مقاطعات هنان وشكيانج وغيرهما ـ أو بطريق الزوارق التى تتسلل عبر مضيق فورموزا ليلا .. وقد استقبل الكولونيل فينج المتطوعة الشابة « نينا وونج » بكل رعاية واحترام ، على أثر قبولها القيام بذلك الدور الهام فى كانتون. وكان فرانسيس قد نقلها على متن طائرة الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير .. وشهدت أرض المطار وداع العاشقين الحار بالقرب من تايبه ، ثم قام ضابط شاب بمرافقة « نينا » الى مكتب الكولونيل

وكان لا بد من أن يمتد هذا التدريب أسبوعا ، تولى خلاله الكولونيل نينج - شخصيا - تلقينها كل مايجدر بها معرفته. فأطلعها - أولا - على صورة للجنرال كيانج تاو ، فاذا هو رجل فى نحو الخمسين من عمره ، على شىء من البدانة ، حليق الذقن ، أشدق ، منحـرف العينين صغيرهما ، وله يدان ضخمتان وشعر قصير ينحدر على جبينه .. وتم - فى اليوم الاول - تزويد نينا بجميع التفاصيل الخاصـة بماضيه العسكرى ، فعرفت أنه ولد فى بكين ، وتلقى العلوم العسكرية فى مدرسة (وامبواه) الحربية ، ثم عين ضابطا فى أركان حرب الجنرال ليتسنج - فى سنة ١٩٣٢ - وقاد جيش كوانج سى ، وتزوج امرأة من اقليم (هوبه) .. ورقى الى مرتبة « كولونيل » ، ثم انشق على جيشه وقائده ، وانضوى تحت لواء الجنرال شوته ، الذى كان - اذ ذاك - معاونا لماوتسى تونج فى تكوين جيش ثورى شيوعى كفيـل بانتزاع الصين من قبضـة تشانج كاى تشيك . وكان يؤمن بأن الماريشال وبطانته - من الانتهازيين الرأسماليين - هم سبب بلاء البلاد ، ولذا أخلص - قلبا وقالبا - لتحرير الصين من سلطانه !

وعرفت نينا كذلك ، دقائق أخرى نافعة عن حياة الفقيد الخاصة .. منها أن زوجته لم تنجب غلاما ذكرا ، فاشترى ثلاث محظيات على التوالى ، طمعا فى الحصول على وريث ذكر يكرم رفاته بعد وفاته ، ويقدم القرابين الدينية التى تكفل له حياة رضية فى العالم الآخر .. على أن سوء الحظ قضى بأن تظل المرأة « رقم ٢ » - وهى محظيته الاولى «عطر السماء» - عقيما . أما السيدتان « رقم ٣ » و « رقم ٤ » ، فلم تلدا له الا أناثا . **وكانت هؤلاء السيدات يعشن معا فى بيت الجنرال فى أطراف (مدينة التتر) ببكين ، بالقرب من باب (أنامن) . وكانت « عطر السماء» شديدة الغيرة من ضرائرها ، متكبرة**

قاسية مع النساء اللواتى يعشن معها تحت سقف واحد ، كما كانت شديدة التطير ، وتستطلع مجرة التبانة (١) عن طالعها ، وتستخبر النجوم وتتوسل اليها عسى أن ترزقها بغلام للجنرال !

أما السيدة « رقم ٣ » ، فكانت تدعى «الياقوتة الوحيدة» . وكانت على نقيض « عطر السماء » .. وديعة ، كسولا ، تقضى حياتها فوق مقعد طويل ، وتتجنب كل تعب ، وتفزع من كل مجهود .. حتى فى الليالى التى كانت تقضيها مع مولاها الجنرال ! .. فكانت تحتاج الى ثمان وأربعين ساعة من النوم ، لتستجم بعد تلك المعارك الغرامية الليلية ! .. بينما كانت السيدة « رقم ٤ » ـ واسمها « نينوفار الصيف » ـ أشد نشاطا من « الياقوتة » ، وكانت تحاول باستمرار احتلال المكانة الاولى فى قلب الجنرال ، ولكن « عطر السماء » كانت تصدها وتكيل لها الصفعات ، كما لو كانت تلميذة متمردة ! .. والواقع أن مباريات شد الشعر لم تكن شيئا نادرا بين هاتين السيدتين المتنافستين !

وبعد أن تم تلقين « نينا » هذه المعلومات ، انتقل الكولونيل فينج الى التدريبات العملية . **فأعد مسرحا مشابها لسفينة الملذات ، كى تستقبل نينا فيه ضابطا ذا رتبة عالية . وقام الكولونيل فينج بذلك الدور لتمرين تلميذته .** فأجلسها الى مائدة الشاى ، وجلس أمامها ، وشرع يتكلم : « لقد علمت يا سيدة عطر السماء أنك حظيت بالشرف العظيم ، بالحياة مع المرحوم الجنرال كيانج تاو » . فأجابته : « لقد كان لى بالفعل هذا الشرف العظيم ، وهذا الحظ العظيم ، يا سيدى الكولونيل . فهل كنت تعرف سعادته ؟ »

ـ نعم .. عندما كان قائدا للفرقة الحادية والعشرين

---

(١) مجرة التبانة مجموعة من الكواكب الكبرى التى تتبعها كواكب صغرى كالنظام الشمسى ، وفى « كتابى » ٧٩ بحث عن المجرات .

المدرعة ، متى مات سعادته ؟
ـ فى اليوم الثالث من الشهر القمرى الرابع فى عام ١٩٥١ ،
ـ أتعرفين أين بالضبط ؟
ـ نعم فى نينج وا ، بكوريا . على أثر غارة مدمرة قام بها المجرمون المتحالفون ، ولم يتسن العثور على جثته ، اذ مزقتها القنابل .
وسألها : « وهل كنت تسكنين بيبنج عندما كان الجنرال فى الجبهة ؟ » . فأجابت : « نعم يا كولونيل » . فعاد يسألها : « أين ؟ » . فأجابت : « كان بيتنا فى ضاحية أشجار اللوز المزهرة ، على مسيرة ربع ساعة ـ على الاقدام ـ من حى السفارات القديم » .
ـ يا للجنرال العزيز ! .. لقد كان محبا للحياة والطعام ، وكثيرا ما تعشينا معا فى هانكاو .. كان يحب ـ بوجه خاص ـ طبقا معينا اعتاد أن يطلبه دائما . وكان هذا الطبق .. كان ...
ـ الخنزير الرضيع المحشو بالتوابل ، والكوارع المحمرة فى زيت النخيل !
ـ بالضبط ! .. اننى لم أتعرف بزوجته الشرعية ، فهل تتذكرينها ؟
ـ أتذكرها جيدا .. كانت امرأة سكوتا ، شرسة . تضرب خادماتها وتحرمهن من الطعام . وكنا نتجنب الالتقاء بها بقدر الامكان ، فقد كانت تعتبر نفسها ذات نسب رفيع ، لان جدها كان من كبار الاشراف فى عصر الامبراطورة تشوهى . وكانت تروى لكل من يعيرها سمعه ، أن موكب المرحوم جدها ـ كلما خرج من البيت ـ كان يتألف من حملة الصنج ، وحملة الرايات والبيارق التى تحمل ألقابه المختلفة ، ومن فرسان ، ومن حملة المظلات والمراوح والمباخر الخ .. لقد كانت حقا متغطرسة لا تطاق !

ـ وأين هى فى الوقت الحاضر ؟

ـ انها أصبحت راهبة فى دير جبل الاحزان .

وقطع الكولونيل فينج ذلك الحوار ، كى يهنىء نينا قائلا : « عظيم . انك لم ترتكبى أى سهو أو نسيان . ولا شك فى أنك تقدرين أهمية جميع هذه التفاصيل ، اذا اتفق ان وجدت نفسك فجأة أمام قريب أو صديق للمرحوم ! » . فقالت : « ولكن كيف أتسلم عملى الجديد ؟ . . اذ يبدو أن سفن الزهور خاضعة لرقابة سرية من بوليس كانتون » . فقال الكولونيل : « **بالضبط .. ولكن عملية التنكر ستساعدك على مهمتك . ولا تشغلى بالك بتسلم العمل على ظهر السفينة ، لان السيدة ينج نينج هى التى ستدبر ذلك . وهى سيدة تتمتع بثقتنا ، وقد وضعت خطة فازت برضانا ! »**

وفى الايام التالية ، عهد الكولونيل بنينا الى ضابط من المكتب الثالث للعمليات الحربية ، أحاطها علما بأنظمة جيش كوانج تونج .. وهى معلومات فنية لا غنى لها عنها لكى تفهم أية اشارة عرضية ترد فى حديث الضباط ، فيما بينهم ، عن تلك القوات ! .. وما أن حان اليوم الثامن ، حتى كانت متأهبة للعمل ، فحملتها طائرة الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير . وكان سرور فرانسيس عظيما بنقلها الى هونج كونج . وكانت أول زيارة قامت بها « نينا » لفان لونج ، الذى قال لها : « لقد هنأنى الكولونيل فينج على اختيارى اياك . وهم يعدونك معاونة عظيمة القيمة ، وينتظرون من وطنيتك الكثير . فانتهزى عطلة الاسبوع للراحة فى هونج كونج ، وسوف نخبرك باليوم والساعة اللذين سيرافقك فيهما السيد شياو عبر الحدود » .

* * *

• **وكان** سرور فرانسيس ونينا عظيما بتلك المهلة التى سبقت المغامرة الكبرى ، فأمضيا الوقت يلعبان الورق ، أو

يتنزهان . وفى الساعة السادسة من يوم الاثنين ، حضر ياور « فان لونج » فقطع عليهما خلوتهما ، وأبلغ نينا بأن عليها أن تكون متأهبة للرحيل مع السيد شياو فى مدى ساعة من الزمن .. وكان مكان اللقاء أمام القطار الذى يربط هونج كونج بكانتون ، ونصح الياور فرانسيس بألا يصحب نينا الى المحطة

واستغرق عناق الحبيبين الاخير ساعة من الزمن . وكان عناقا حارا يخيم عليه الاسى واللوعة . **وماذا يستطيع فرانسيس أن يقول ، ما دامت نينا قد أقدمت بشجاعة على الانخراط فى الجيش السرى ؟ .. وكانت أول مرة فى حياته يكلفه الفراق فيها ذرف الدموع . ولما خرجت نينا من الحجرة شعر بوطأة الوحدة على نفسه .. ترى هل سيراها بعد ذلك ؟**

وجاء الرسول فى موعده تماما ، فعمدت نينا ــ بناء على أمر فان لونج ــ الى اخفاء وجهها بخمار أزرق لفته حول فكها ، وكأنها تشكو من اسنانها .. على أن تكشف عن ملامحها متى نجحت فى اجتياز الحدود .. وهكذا ركب السيد شياو ونينا القطار الانجليزى . وبعد ثلاثة أرباع الساعة ، نزلا فى محطة الحدود فى (شون شون) ، ثم اختفيا بسرعة بين الجمهور . ولم تكن نينا تحمل متاعا ، لانها أرسلت ثيابها بالقطار الى عنوان مدام ينج نينج .

وكان شياو يعرف دقائق الاقليم ، ومسالك داوريات الجنود الصينيين ، ومواقع نقط الحراسة الثانية على الحدود ، وعلى طول السكة الحديدية . فلما سجى الليل ، اخترق مع نينا الحقول ــ سيرا على الاقدام ــ خلال مزارع الارز وخمائل البوص والخيزران التى تنبت على سفوح التلال . وجعل يدور بها كمن يتخبط فى الطريق ، فى جوف الظلام الحالك ، اذ ان الليلة لم تكن مقمرة .. على أن شياو كان يتمتع بحاسة مرهفة لمعرفة الاتجاهات فى الظلام ، وكأنه الحمام الزاجل .

وبعد مسيرة ساعتين ، شعرت نينا بالتعب ، وطلبت اليه

أن تستريح ، ولكنه أبى . وقال : « بعد قليل .. بعد عشر دقائق على الاكثر ، سنكون فى امان ! » .. وفعلا ، لم يلبث شياو أن وقف أمام بيت صغير – من بيوت الفلاحين – لم يكن ينبعث منه ضوء ، فطرق الباب بطريقة خاصة .. وسرعان ما برز شبح يحمل مصباحا .. **ولم يقل الفلاح شيئا ، ولم يسأل عن شيء ، بل أرشد نينا الى حصير فوق مدفأة أفقية ، ودعاها بالاشارة الى الجلوس . فألقت « نينا » بنفسها فوق الحصير ، ونامت على الفور !**

وعند الفجر ، أيقظها شياو ، وقال لها : « فى وسعنا الآن أن نرحل .. وسنتجه صوب نهر اللؤلؤ ، حيث ينتظرنا زورق من زوارق الصيادين . وما لم يكن التيار عنيفا جدا ، فسنصل الى شامين هذا المساء ! » .. وكان الغسق يستولى على الكون ، حينما وقف الزورق أمام رصيف الميناء . وقاد شياو – لفوره – نينا الى بيت السيدة ينج نينج ، التى استقبلتها بكل ترحاب ، وقدمت لها العشاء . ثم اختلت السيدتان فى ضوء شمعتين حمراوين . وأتاحت معرفة نينا بلغة أهل كانتون فرصة الحديث مع مضيفتها بطلاقة ، فعرفت منها آخر تطورات الموقف .. ثم قالت ربة البيت : « الآن وقد عبرت الحدود بغير مشقة – بفضل معونة السيد شياو الثمينة – أشعر بالطمأنينة . أما من جانبى فقد نفذت تعليمات السيد فان لونج ، واتممت الصفقة بغير تأخير مع السيد تشانج فاى .. وأصبحت « سفينة الملذات » ملكى فى الوقت الحاضر . وقد قدمت عقد التنازل عن السفينة الى بوليس كانتون لاقراره ، والعلاقات بينى وبين بوليس كانتون على أحسن ما يرام .. **ولست بحاجة الى أن أقول لك أن مساعد حكمدار بوليس الامن السيد « هو وين يو » على صلة طيبة بى ، لاننى أمده – كلما سنحت الفرصة – بمعلومات لا قيمة لها عندنا ، اشترى بها رضاه ، حتى ان الرجل يعتبرنى من مصادر الاخبار**

المأمونة المضمونة .. ولهذا يمكنني أن أعتمد على حمايته .. واليك الآن الخطة التي أعددتها لك : لقد اتفقت مع فتاتين جميلتين ، هما الآنسة « لؤلؤة التنين » - من تشوشاو - والآنسة « صباح الخير » ، وهي فتاة مراهقة من كوانج سي ، دمثة ، تستطيعين أن تأمريها بما تشائين ، اذ أنها تحبني كما لو كنت أمها ، وستطيع توجيهاتك طاعة عمياء .. هاتان الفتاتان ستكونان تحت أمرك . أما أنت فقد فكرت في شيء يجعلنا أقرب حظوة من أي يوم مضى لدى السيد « هو وين يو » مساعد حكمدار بوليس الامن . فاسمعي جيدا ما سأقوله لك : « **أنك بعد وفاة مولاك قد أنفقت جميع مدخراتك . ولما كانت زوجته القاسية قد طردتك كما طردت جميع المحظيات من بيت الجنرال ، فانك توجهت الى شانغهاي ، التماسا للرزق . ولكن الاقدار حاربتك - للاسف - فجئت الى كانتون عسى أن تكوني فيها أسعد حظا . وقد أحضرك صديق لي وأوصاني بك ، فكان ماضيك مع الجنرال هو الذي أوحى لي باستخدامك على ظهر « سفينة الملذات » !** .. ولقد فاتحت السيد « هو وين يو » في ذلك فوافق مبدئيا ، لان السيدة « رقم ٢ » سابقا للجنرال كيانج تاو ، جديرة بأن تكون مضيفة لسفينة ازهار يؤمها كبار الضباط . فالطريق ممهد لك كما ترين ، وقد حرصت على أن أذكر لمساعد الحكمدار أن تعيينك رهن بموافقته . ومن ثم فهو سيحضر الى هنا مساء غد - في الساعة العاشرة - لاقدمك اليه »

- وأين أقيم الى أن أتسلم عملي ؟

- في بيتي طبعا ، فعندي حجرة مخصصة لك ، وجاريتي تحت تصرفك . وهي التي ستساعدك غدا على ارتداء ثيابك وتصفيف شعرك ، كي تتركي أحسن الاثر لدى السيد هو وين يو .

ونهضت السيدة ينج نينج ، وتناولت يد ضيفتها فقادتها

الى حجرة صغيرة تشبه مخزن التحف القـديمة .. وتمنت لها نوما هادئا .

* * *

• وفى الساعة العاشرة من مساء اليوم التالى ، كانت الرياح الجنوبية الغربية تهب على كانتون فتعبث بصفحة نهر اللؤلؤ وتثير سحبا من التراب فى شوارع المدينة .. وفجأة ، وقفت سيارة البوليس السوداء أمام باب بيت السيدة ينج نينج ، ونزل السيد هو وين يو برشاقة ، ففتحت له الامة العجوز الباب ، وقد انحنت نصفين لفرط الرهبة والخشوع !

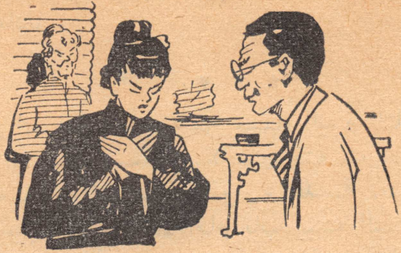
وكان مساعد حكمدار البوليس من أبناء كانتون ، قصـير القامة ، لم يجاوز الشباب ، رشيقا ، يقظـا ـ كأنه ثعلب ـ وفوق عينيه نظارة . وكان شعره الاسود مرجلا بعناية فوق جبينه . وخلع الرجل قبعته الرمادية ، وسلم على ينج نينج فى ترفع الرجل العظيم الذى يحتقر ـ فى نفســـه ـ مهنتها القذرة ولكنه يقدر خدماتها .. فكثـــيرا ما قدمت له الليلة الاولى مع فتاة صغيرة حسناء ، حصلت عليهـا لاسـتغلالها ، فى مواخيرها الفاخرة ! .. وبعد المجاملات المألوفة ســألها :

« هل وفقت يا مدام ينج نينج ؟ »

ـ أجل يا صاحب السعادة . لقد حصلنا على السـيدة « عطر السماء » . أترغب فى أن نقدمها الى سعادتك ؟

ـ أنما جئت لهذا الغرض يا مدام ينج نينج !

وصفقت بيديها .. وكانت نينا فى انتظار هذه الاشارة ، فى الحجرة المجاورة . وشعرت ـ رغم شجاعتها ـ بخـوف من هذه الخطوة الاولى التى ستضعها أمام ممثل البوليس . فقد كان مستقبل مهمتها كله رهنا بهذه الخطوة . ودخلت ضامة يديها أمام صدرها ، وحيت السيد هو وين يو كما ينبغى . فاستقبلها الموظف الشاب بالتلطف والمجاملة اللذين يليقان بالمحظية



الاولى لبطل من أبطال الجيش الشعبى سقط فى ميدان الشرف !
وكانت نينا ترتدى ثوبا جميلا من الحرير الوردى المزركش بالفضة والمطرز بالحرير الاحمر ، وقد زينت شعرها بزهرة الكاميليا البيضاء فوق أذنها اليسرى . وحدثتها غريزة المرأة – لاول وهلة – بأنها لقيت فى نفس الرجل حظوة عظيمة ..
وما لبثت الامة (الجارية) أن أحضرت الشاى واليوسفى . وبدأ السيد هو وين يو بتهنئة السيدة ينج نينج على نجاحها فى الحصول على السيدة « عطر السماء » . وقامت السيدة ينج نينج بدورها باطراء نينا التى قبلت القيام بمهام المضيفة فى سفينة يؤمها الصفوة المختارة . وأظهرت نينا الخجل والسرور العظيم لهذا الشرف الذى أتيح لها ، كى تقدم خدماتها فى هذه الظروف . وبعد انتهاء هذه التحيات ، خاطبها السيد هو وين يو مباشرة بقوله : **« سيدتى ، نحن حريصون على أن يجد زوارك كل راحة وسرور فى سفينتك ، وسوف يهز نفوسهم أن يعلموا ماضيك الى جانب بطل من أبطال الصين الشعبية ، وسوف يحدث ذلك أثره فى اطمئنانهم الى الاستجمام فى جو من الطمأنينة والثقة ! »**
– ثق يا صاحب السعادة من أننى سأبذل غاية جهدى للمحافظة على السمعة العالية التى اكتسبتها « سفينة الملذات » !

وأخذ السيد هو وين يو يسألها – بعد ذلك – عن الفقيد العظيم ، فراحت تجيبه بلا تلعثم ، مشيدة بالسعادة البالغة التى نعمت بها فى صحبة سيدها ومولاها ، عندما كانت تعيش فى كنفه فى بيبنج . وكان الرجل يصغى وهو يهز رأسه مؤمنا ، فشعرت نينا بمخاوفها تتبدد شيئا فشيئا . حتى اذا كانت الساعة الحادية عشرة ، نهض السيد هو وين يو ، فانسحبت نينا الى حجرتها ، وهمست السيدة ينج نينج الى ضيفها وهو خارج : « وبعد ياصاحب السعادة . . مارأيك ؟ » . فأجاب : « اننى راض جدا . لقد حالفك التوفيق ! » . وما أن أغلقت الامة العجوز الابواب بالمزلاج ، حتى طرقت السيدة ينج نينج باب « نينا » – التى كانت تنتظرها بفارغ الصبر – وبادرتها قائلة : « لقد نجحنا يا زهرتى الصغيرة كل النجاح . وبعد ساعات قلائل ستكونين فوق متن السفينة ، فتشرعين فى العمل العظيم ! »

* * *

• **ما أن** باع السيد تشانج فاى سفينته الى السيدة ينج نينج ، حتى طرد الفتاتين اللتين ظلتا تبيعان جسديهما وابتساماتهما هناك مدى ثلاث سنوات . .

وكانت « سفينة الملذات » قذرة ، سيئة الترتيب ، بسبب اهمال أمرها منذ فترة من الزمن . فلولا جمال الفتاتين لما اقترب من السفينة أحد الرواد . . وظلت السيدة ينج نينج ترسل ثلة من الخدم ثلاثة أيام متوالية ، لتنسيقها . وتمكنت – بفضل المال الذى أمدها به فان لونج – من تزويد السفينة بصناديق الكونياك الفرنسى الذى يقدره الصينيون تمام التقدير . وأخيرا ، أقيمت حفلة الافتتاح ، فحضر الكاهن الشيخ « ما يو » لطرد الارواح الشريرة . وكانت لهذا الكاهن شهرة مستفيضة – فى كانتون – لمقدرته على طرد الاشباح

المؤذية التى تكمن فى الاركان المظلمة ليلا ، وحول أسرة النوم ، فتجلب الكوارث والنحس . وقد صعد هذا الكاهن الى سطح السفينة ومعه اثنان من المساعدين مسلحان بالصنوج والدفوف . وظلت الضجة تصم الآذان مدى ساعتين ، لتخويف الاشباح وترويعها . ثم شهر « مايو » سيفا ضخما ، راح يطوح به فى الهواء عند مقدمة السفينة ودفتها . **وأحضر مساعدا الكاهن مقدارا من دماء الكلاب فى جرة ، اعتقادا بأن لون تلك الدماء يتغير اذا كانت هناك روح شريرة غير منظورة ، فاذا لم يتغير ، كان هذا دليلا على فرار جميع الارواح الشريرة من السفينة !**

وفى ظهر اليوم التالى ، صعدت السيدة ينج نينج الى ظهر السفينة مع نينا ولؤلؤة التنين وصباح الخير ، وراقبت بنفسها الترتيبات الاخيرة لاستقرار السيدات الثلاث . **وكانت الشائعات قد سرت بسرعة بين سفن الزهور المجاورة بأن « سفينة الملذات » قد تغيرت ملكيتها وتبدلت مستخدماتها ، فتجمعت السيدات فى السفن المجاورة ينظرن بفضول . وكانت السيدة ينج نينج ترد على تحيتهن ، وهى تبتسم ابتسامة من تقول لهن : « الآن سترين العجائب ! »** . ثم قادت « نينا » الى حجرتها ، وكانت خير حجرات السفينة ، بها سرير من خشب اللق الاحمر ، ومصباح كحولى يمكن استخدامه لتسخين الماء . أما « لؤلؤة التنين » و « صباح الخير » فكان فراشاهما فى حجرة واحدة — فى مقدمة السفينة — وكان يفصل بين السريرين ستار ثقيل ، يسمح لهما بالاجتماع بالرجال دون أن تزعج احداهما الاخرى !

وأصدرت السيدة ينج نينج تعليمات أخيرة الى نينا ، التى تقرر أن تكون السيدة المطلقة بعد الله فوق هذه السفينة .. ففى كل يوم سيمر زورق التموين — قرب الظهر — بالمواد الغذائية والماء العذب للشرب .. وفى كل أسبوع ستهبط نينا

الى البر لتزور السيدة ينج نينج وتقدم اليها الحساب والمال المتحصل .. فاذا ما فرغت ، قدمت اليها كذلك التقارير التى سترسلها السيدة ينج نينج الى السيد فان لونج ، عن طريق السيد شياو . فاذا قدر لنينا أن تحصل على معلومات عاجلة ، تتطلب سرعة فى الابلاغ ، كان عليها أن توقد ثلاثة مصابيح عند صارى السفينة . حتى اذا لمحت السيدة ينج نينج النور من الطابق الثانى فى بيتها ، أوفدت جاريتها فى زورق الى السفينة !

الفصل الثامن

ليلة عاصفة .. على نهر اللؤلؤ !



• **لم** تكن الآنسة « لؤلؤة التنين » صغيرة السن للغاية ، فقد بلغت العشرين . وقد اشتهرت ـ منذ بلغت الرابعة عشرة ـ بجمال عينيها اللوزيتين . وكان والداها فلاحين فقيرين فى أقليم (شوشاو) ، ولهما ثلاثة أبناء . فلما ولدت لؤلؤة التنين ، كانت لقمتها مشكلة لوالديها ، فلم يترددا فى بيعها ، مؤمنين بأن جسدها الجميل ووجهها الساحر كفيلان بأن يشقا لها طريقا فى الحياة .. فما أن صارت فى السادسة عشرة ، حتى كانت محظية لتاجر حبوب ثرى .. ولكن مولاها

مات — وهى فى السابعة عشرة — متخوما بالطعام ، فطردتها أسرته من البيت .. ورحلت لؤلؤة التنين الى شانغهاى — مع زميلة لها — حيث عملت فى مرقص صينى ، فى الحى الدولى .. **وما لبثت — وهى فى سن التاسعة عشرة — أن التقت بقوادة تتعامل مع السيدة ينج نينج فى كانتون وتمدها بالفتيات ، وتتبادل معها بضاعتهما من اللحم البشرى المعطر ، كما يفعل تجار المواشى سواء بسواء ، فتتساومان فى الثمن ، بعد فحص البضاعة الموردة ورفض المعطوب منها** . وكانت السيدة ينج نينج فى حاجة الى فتاة بارعة الجمال من (شوشاو) ، أوصى بطلبها أحد الهواة الذين لم يكونوا يستطيبون الا بنات ذلك الاقليم ، فارسلت قوادة شانغهاى الى السيدة ينج نينج — فى كانتون — تخبرها بأنها عثرت لها على ضالتها المنشودة .. وتم الاتفاق على توريد السلعة فى مقابل مائتى دولار .

وأرسلت « لؤلؤة التنين » الى كانتون ، حيث عاشت عاما مع ذلك الهاوى الثرى . ولكنه — لسوء طالعها — ما لبث أن راح ضحية الارهاب الشيوعى . فقد كان من المستغلين وتجار السوق السوداء ، وتم اعدامه — مع خمسين آخرين من كبار الاغنياء — رميا بالرصاص ، أمام خندق حفر حديثا لتلقى جثثهم .. وازاء هذا التعطل المفاجىء ، اضطرت « لؤلؤة التنين » للعمل لحسابها الخاص فى بعض المراقص ، الى أن وقع عليها اختيار السيدة ينج نينج للعمل فى « سفينة الملذات » ، لما عهدته فيها من خبرة بفنون الاثارة الجنسية — التى تستعبد طلاب الشهوات من الرجال — ولان الفتاة لم تكن تشعر بأى عطف على من قتلوا مولاها وشردوها فى الطرقات ، فلا شك أن « نينا » ستجد فيها معاونة نافعة .

أما الآنسة « صباح الخير » فكانت صغرى الحسان الثلاث ، اذ لم تكن سنها تبلغ الخامسة عشرة . **وكان والدها الفاضل اسكافيا من مدينة كوان تونج ، عرضها فى المزاد لمن يدفع الثمن**

الاكبر . وهى رحمة كبيرة بالقياس الى ما كان يحدث فى الجيل الماضى من القاء الفتيات المولودات حديثا للكلاب . واشترتها السيدة ينج نينج لتستغل جمالها ونضرتها ، لا سيما أن صوت هذه الصغيرة كان أشبه بشدو العصافير . ثم أنها ــ على صغر سنها ــ كانت خبيرة بفنون الخلاعة ، مشهودا لها بالحذق فى كل ما يتصل بالمجون وصلات الرجال والنساء .

وأوصت السيدة ينج نينج الفتاتين بالخضوع خضوعا تاما للسيدة نينا ، التى سميت « عطر السماء » ، فلا تترددان فى اطاعة أوامرها ، وعليهما أن تحرصا على اغراء الرجال الذين تعينهم لهما بصفة خاصة ، فهما كجنديين خاضعين لقائدهما خضوعا أعمى . وقد تقبلتا تعليمات السيدة ينج نينج بكل احترام واستعداد طيب . لانهما وجدتا فى العمل على متن « سفينة الملذات » فى عهدها الجديد شرفا كبيرا أمام الزميلات اللائى كن يعملن فى السفن الاخرى الحقيرة الفقيرة ..

* * *

ومر يومان ، ساد فيهما الهدوء ، واستسلمت الغوانى الثلاث للكسل والراحة . فقد ظن الناس أن رحيل تشانج فاى عن المدينة ، معناه اغلاق السفينة ، ومن ثم لا بد من مرور بعض الوقت الى أن تعمل الدعاية الشفهية عملها ، ويعلم القاصى والدانى أن « سفينة الملذات » بدأت عهدا جديدا فى تيسير المتعة المترفة لطلابها .. فلما كان اليوم الثالث ، هبت عاصفة شديدة على كانتون ، واشتدت الريح ووميض البرق خلال السحب المنخفضة . ثم أخذ المطر ينهمر فوق نهر اللؤلؤ ، فاستولى الخوف على « لؤلؤة التنين » و « صباح الخير » ، وأخذت « عطر السماء » تسرى عنهما بالاحاديث والاساطير .. واستزادتاها من تلك الحكايات المسلية ، **فلما همت بأن تروى لهما قصة أخرى ، اذا بلؤلؤة التنين تنهض عن مقعدها ،**

وتشير الى زورق بخارى قادم من كانتون ، متجها مباشرة الى « سفينة الملذات » .

ونهضت «نينا» بدورها ، ونظرت بدهشة الى مصباح الزورق الكشاف ، الذى يجتاح السفن الراسية فى عرض النهر . ثم توقفت آلات الزورق بجوار السفينة ، واستطاعت نينا أن تتبين مساعد حكمدار بوليس الامن — السيد هو وين يو — الذى صعد برشاقة الى السفينة ، وساعد على الصعود مرافقه .. وهو ضابط فى ثيابه الرسمية . فقام الفتيات الثلاث بتحية الرجلين كما ينبغى . ثم اقترب هو وين يو من نينا ، وقال لها : « لتسمح لى السيدة « عطر السماء » بتقديم السيد الكولونيل « لى تسونج ين » الذى سمع بجمالك وبشهرة سفينتك ، فأظهر الرغبة فى تمضية بضع ساعات ممتعة فيها ! »

وحيا الكولونيل نينا ، وأظهر لها — بوجه خاص — احتراما عظيما . فشكرته ، كما شكرت السيد هو وين يو لتشريفهما سفينتها الحقيرة . وسألتهما أن يتفضلا بتناول كأس من الكونياك الفرنسى . فما أن سمع الكولونيل تلك الكلمة حتى صاح : « كونياك ؟ كونياك ؟! .. هذا شىء عظيم يدفىء المعدة ! »

وأحضرت لؤلؤة التنين الزجاجة والكؤوس ، وأحاطت الحسان الثلاث بالرجلين . وبينما انصرف الكولونيل الى المزاح والمعابثة مع لؤلؤة التنين وصباح الخير ، انصرف السيد هو وين يو الى الحديث بصوت خافت مع نينا . فقال : « لقد وصل الكولونيل حديثا الى كانتون .. وصل أول أمس . وقد كان ضابطا فى جيش مقاطعة شاهار ، ثم نقل الى هنا رئيسا لاركان حرب الفرقة الجديدة القادمة الينا فى الطريق . وهو من عشاق المجون والليالى الملاح ، فأوصيك به ، اذ أنه ترمل حديثا ، ويهمنا أن يجد اقامته بيننا مسلية منعشة ! » .

فردت نينا قائلة : « لك أن تعتمد علينا — يا صاحب السعادة — فى هذه المهمة . فسيجد السيد الكولونيل لدينا كل ترحيب

وخدمة ممتازة ، مع الرعاية الكاملة لرتبه الرفيعة »

ــ يبدو لى أن لؤلؤة التنين تعجبه أكثر من صباح الخير !

ــ لسوف يشرفها كل الشرف أن تبرهن له على أن اهتمامها به لا يقل عن اهتمامه بها .

وخطر لنينا أن تنتهز الفرصة كى تكسب لمودة السيد هو وين يو ، فهمست فى أذنه قائلة : « وبهذه المناسبة ، ما رأيك يا صاحب السعادة فى صباح الخير الحسناء ؟ » .. فرماها مساعد الحكمدار بنظرة جانبية ، وظهر على وجهه السرور وقال : « لقد حدثتنى السيدة ينج نينج عن هذه العصفورة الصغيرة ! » . ثم رمق صباح الخير بنظرة أخرى ، وتساءل : «كم عمرها ؟» . فأجابته : «خمسة عشر عاما ياصاحب السعادة»

ــ خبيرة ؟ ــ جدا .

ــ لعوب ؟ ــ جدا .

ــ ساخنة ؟ ــ كأنها مدفأة .

ــ مشغولة القلب ؟ ــ كلا .

ــ أتنصحيننى بأن أقضى معها بعض الوقت الليلة ؟

ــ أنك ضيفنا يا صاحب السعادة ، والسفينة تحت أمرك ، وكذلك الآنسة صباح الخير !

وبينما كانت « نينا » ومساعد الحكمدار يتساران بهذا الحديث ، كانت « لؤلؤة التنين » قد استغلت الفرصة لتستهوى الكولونيل ، وصحبته الى مخدعها لتناول أقداح أخرى من الكونياك الذى كان يحبه كثيرا .. وبقيت « صباح الخير » ساكنة منكمشة فى مقعدها كالقطة . فلما نادتها نينا ، نهضت فى الحال ، واقتربت منها . فوضعت نينا يدها على خصرها وجذبتها اليها وهى تغمزها خلسة . وسألتها : «ماراأيك ــ أيتها الاخت الصغيرة ــ فى صاحب السعادة ، الذى تنازل بالحضور لقضاء بعض الوقت معنا ؟ » . فغضت صباح الخير بصرها . وقالت بصوتها الناعم الخافت ، الذى كانت تحاول



دائما أن تجعله كصوت الاطفال : « ان صاحب السعادة يولينا شرفا عظيما باضاعه وقته الثمين فى صحبتنا ! » . فاعترض مساعد الحكمدار ، وقد سحره صوتها . ونهض قائلا : « تعالى نتحدث معا ، على حدة ! »

ـ أوه ، يا صاحب السعادة !

ـ أجل، أجل !.. ستطمئنين الى، وسأشجعك . وسترين أننى لطيف جدا .. رقيق جدا .. فأنا أعرف أية لباقة يجب أن أروض بها غزالا نافرا ساحرا مثلك !

وأخذت نينا ترقب الرجل وهو يقترب من « صباح الخير » فى نهم ، فبدأت ترتاب فى مدى رقته المزعومة مع هذه الصغيرة . ثم نهضت فصحبت الاثنين الى حجرتها ، وأغلقت الباب .. وعادت فجلست فى مقعدها . وكان المطر قد انقطع ، وضوء القمر يشيع بريقا فضيا فى السماء التى انقشعت عنها السحب . وسمعت نينا ـ من بعيد ـ ضحكات ماجنة ، تنبعث من السفن المجاورة . وأشعلت سيجارة ، واسترخت فى مقعدها الوثير ، راضية عن ليلتها التى لم تضع هباء .. فغدا ـ عندما تحضر الامة العجوز ـ ستعطيها تقريرها الاول ، الذى سيسر له السيد فان لونج ورؤساؤه . فان فرقة جديدة كانت فى الطريق لتحل محل الفرقة الثالثة والعشرين . وهى

معلومات تهتم بها القيادة العليا فى فورموزا .

وفجأة ، سمعت نينا أنة طويلة صادرة من ((صباح الخير)) ، فأدركت أن السيد هو وين يو قد أفرط فى رقته مع الغزالة الصغيرة الفاخرة !.. وعندما انطلق الزورق البخارى بالزائرين – بعد ساعة – حضرت ((صباح الخير)) وألقت بنفسها بين ذراعى نينا باكية متأوهة ، فسألتها نينا عما حدث لها . وقالت صباح الخير ، وهى تنتحب وتشهق : ((ما أفظع هذا يا أختى الكبرى ! .. ان هذا القرد الملعون كان يغرس الدبابيس فى جسمى . انه قاس جدا ، ولا أريد أن اجتمع به بعد الآن !)) . فأخذت نينا تسرى عنها قائلة : ((لا تبكى يا عزيزتى الصغيرة ، وتذكرى تعليمات السيدة ينج نينج . أن السيد هو وين يو شخص عظيم النفوذ فى المدينة ، ويستطيع أن ينكل بك وبنا . واعلمى انك – حين تتنزهين فى الغابة – تجدين أشجارا متباينة الانواع . فهناك الصفصاف ذو الورق الناعم ، كما أن هناك الشربين ذا الغصون الشائكة . وهكذا الرجال أصناف واشكال!))

* * *

• **وكانت** الحياة على ((سفينة الملذات)) حرية بأن تغدو متشابهة راكدة فى نظر نينا ، لو لم يتضاعف عدد الزوار بسرعة . فبفضل وسائل السيدة ينج نينج ، انتشر فى المدينة الخبر العظيم ، فعلم الكافة أن المحظية السابقة لاحد أبطال الحرب الكورية ، هى التى تشرف على الملذات الليلية هناك . فتوافد الموظفون المدنيون وكبار الضباط – كل ليلة – على ((سفينة الملذات)) . **وكانت نينا تصغى بانتباه لكل ما يتفوه به هؤلاء السادة ، بين أقداح الكونياك والخمر الوطنية . حتى اذا خلت بنفسها فى مخدعها ، دونت كل شىء كانت ترى أن له قيمة فى نظر سلطات فورموزا . وصار ((فان لونج)) يتلقى أسبوعيا تقريرا مفصلا منها ، مما جعل ((نينا))**

من أعظم العملاء السريين وأثمنهم فى مقاطعة كوان تونج .

وكان فان لونج يقول لفرانسيس كلما سأله عن أخبار نينا : « ان الآنسة وونج تقوم بعمل رائع ، فلا تقلق عليها ، اذ أنها تحت رعاية السيدة ينج نينج الساهرة . وهى تبدى مهارة مذهلة فى عملها ! » . وكان فرانسيس يشـــعر بشىء من الطمأنينة ، وان صار مستاء حزينا لاستحالة اتصـاله بنينا ــ مع أنها لم تكن بعيدة عن هونج كونج ــ فكأن ستارا حديديا كان يفصل بينهما .. وكانت نينا تذهب يوم الاثنين من كل أسبوع ــ فى زورق الامة العجوز ــ الى (شامين) ، لتقـوم بزيارة السيدة ينج نينج ، التى كانت تطلعها على ما يجرى فى العالم الخارجى ، وعلى الاحاديث الجارية على الالسن فى المدينة .. وقد تصحبها الى كانتون لشراء بعض اللوازم أو للنزهة !

والحق أن السيدة ينج نينج كانت تشعر بالاغتباط لنجاح مشروع « سفينة الملذات » نجاحا مفيدا لها من جميع الجهات . لان السيد فان لونج كان يجزل لها العطاء جـــزاء المعلومات الثمينة .. كما أن أرباح « سفينة الملذات » كانت وفيرة جدا . فكأن العجوز كانت تأكل على جميع الموائد ، وتجنى ثروة كبيرة تكتنزها .

وذات غروب ، ذهبت نينا الى السفينة ــ بعد أن تناولت الشاى مع القوادة العجوز فى دارها ــ وقد أوشك الظلام أن يطبق . واذا بهــا تلتقى ــ فى طريقهــا ــ بزورق البوليس البخارى ، الذى استوقف زورقها .. وسئلت : « الى أين ؟ » . فأجابت : « الى سفينة الملذات » . وشـعرت بقلبها ينقبض .. واستولى عليها خوف شديد ، عندما رأت زورقا بخاريا آخر مشدودا الى مؤخرة « سفينة الملذات » ، وبه ثلاثة رجال بدا أنهم كانوا ينتظرونها . وعرفت من بينهم السيد هو وين يو . فصعدت الى السفينة وهى تبذل مجهودا جبارا لاخفاء جزعها ، وقالت لوكيل الحكمدار : « أسألك الصفح يا صاحب

السعادة ، لانى لم أكن موجودة لاتشرف باستقبالك كما ينبغى ! » . فأجابها بلهجة جافة : « لقد جئنا لتفتيش سفن الزهور »
ـ للتفتيش ؟ .. لماذا ؟

ـ ان جاسوسا تمكن من الاختباء هنا . ورجالنا يقومون بتفتيش كل سفينة .

ولم تجسر نينا على أن تتساءل عن جنس الجاسوس ، بل راحت تردد : « جاسوس ؟ لحساب من ؟ »

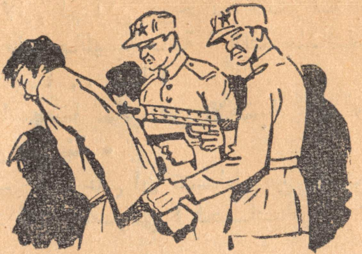
ـ لحساب عصابات فورموزا ! .. سنعثر عليه حتما !

وتنفست نينا الصعداء اذ قال : « سنعثر عليه » . فمعنى ذلك أن الجاسوس رجل ! .. وأظهرت استعدادها لمساعدة من يفتشون السفينة . فانحنى هو وين يو ، قائلا : « لقد فرغنا من التفتيش فعلا . لا لاننا نشك فى الآنسة لؤلؤة التنين أو الآنسة صباح الخير ، وانما خوفا من أن يكون هذا الكلب التعس قد تمكن ـ أثناء غيابك ـ من الاختفاء فى قاع السفينة ! »

ـ أرجو أن تكونوا قد فتشتم جيدا .. ألم تجدوا أحدا ؟

ـ كلا . لا أحد . ولكننا سنقبض عليه . فقد أرسلت عشرة رجال ليطاردوه ، كما أن أربعة زوارق بخارية مسلحة تكمن له فوق النهر .. فلن يستطيع الافلات ولو سباحة !

ومرت ساعة والسيد هو وين يو ورفاقه ينتظرون نتيجة التفتيش ، جالسين على ظهر « سفينة الملذات » . ونينا تدعو ـ فى سرها ـ أن يفلت هذا الجاسوس المجهول من شباك البوليس .. وفجأة ، نهض الرجال وتطلعوا الى زورق قادم من الضفة اليمنى . ثم صعد من هذا الزورق شرطيان يدفعان بينهما صينيا شدت يداه خلف ظهره . فعضت نينا شفتيها ، حتى لا تصرخ ، اذ كان هذا المجهول هو .. السيد شياو ، رسول فان لونج الذى ساعدها ـ ببراعة فائقة ـ فى التسلل عبر الحدود ، عندما حضرت من هونج كونج .



الفصل التاسع

« سنجبره على الكلام ! »

• كان السيد « شياو » فى خدمة « فان لونج » منذ عامين، صار خلالهما أشد عيونه ولاء . فكانت له فيه ثقة لا حد لها ، بعد أن وفق الى تهريب عدد لا يحصى من الرجال ، وحمل من الرسائل الهامة الخطيرة ما لا حصر له ، عبر الحدود . وكان شياو ــ عشية القبض عليه ــ يتجول فى أنحاء كانتون كأى مواطن وادع . اذ كان ــ حفظا للمظاهر ــ يحترف صناعة ، ويتخذ لممارستها مركزاً فى شارع الخراف البيضاء ، ويعتقد أن هذا كفيل بأن يصد عنه الشبهات . وكان قد عاد ــ فى هذه المرة ــ الى هونج كونج ليفضى الى « نينا » برسالة شفوية حفظها عن ظهر قلب ، لانه لم يكن يأمن جانب الرسائل المكتوبة .. وفحوى الرسالة أن على نينا الحصول على معلومات مفصلة بصدد مسألة معينة كانت تهم سلطات فورموزا ، وهى : هل تلقى مركز التجنيد ــ فى جنوب الصين ــ أمرا بدعوة جميع الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين التاسعة عشرة والرابعة والعشرين الى حمل السلاح ، كما كانت الشائعات تقول ؟ ..

وكانت نينا تستقبل ــ فى كثير من الاحيان ــ ضابطا من مكتب

التجنيد ، بوسعها أن تستقى منه المعلومات المطلوبة ، وأن تجد ما يبرر هذا الاستفسار .. فان تجنيد الالوف من الشباب ، وارسالهم الى مواقع بعيدة ، معناه ضياع كثير من زبائن « سفينة الملذات » ! .. ومن ثم فان فضول « نينا » أمر طبيعى !

وكان السيد شياو قد قرر التزام جانب الحذر المطلق ، ففضل أن يتحاشى زيارة السيدة ينج نينج حتى لا يقحمها فى هذا الموضوع . فلماذا لا يتوجه هو شخصيا الى « سفينة الملذات » ، كأى رائد عادى يلتمس الترفيه واللهو ؟ .. ان هذا من حقه على كل حال ، كأى مواطن كانتونى محترم ! .. ولكن نكد حظه كان قد قضى عليه بالافتضاح منذ غرة الشهر الثالث . فقد استطاع مفتشان من قوة بوليس الامن أن يتعقباه بالتناوب ــ على الرغم من حيله البارعة ــ وأن يجمعا حوله الشبهات . فأمر مدير ادارة مكافحة الجاسوسية أربعة مفتشين آخرين باقتفاء أثره . وتكونت بذلك شبكة كاملة من المراقبين والمطاردين ، توفرت لهم وسائل التعقب والرقابة

وعندما قرر السيد شياو أن يتوجه لزيارة نينا ، مستقلا زورقا اختاره من آلاف الزوارق الراسية على طول ضفة النهر ــ فى حوالى الساعة السادسة من مساء الاثنين ــ لم يخطر بباله أن صيادين وادعين ساذجين يتسكعان على شاطىء النهر ، كانا فى الواقع يترصدان حركاته ، كما كان ثمة صيادان آخران يحومان حول سفن الازهار ، وصيادان ثالثان يتشاغلان بقياس عمق مجرى النهر ، حول الصف الرئيسى لتلك السفن . ومن ثم مضى فى زورقه الصغير نحو « سفينة الملذات » .. **وفى منتصف الطريق ، لاحظ أن أحد الصيادين يهتم بحركاته أكثر مما كان مهتما بصيده . ووجد احدى سفن عبور النهر « معدية » تعترض طريقه ، وفيها نوتيان بدت عليهما امارات الجهل بمهنتهما ، فلم يحسنا ادارة الدفة .. واشتم رائحة**

الخطر ، فجنح على الفور نحو سفن الازهار الاخرى . اذ كان من الواجب ــ ان صح أنه كان تحت المراقبة ــ أن يتجنب زيارة « سفينة الملذات » ، مهما يكن الثمن . ولهذا جاس بين السفن ، ثم ارتقى خلسة « سفينة التنهدات » !

وكان السيد هو وين يو قد ارتقى ــ فى تلك الاثناء ــ «سفينة الملذات » بصحبة نائب مدير مكافحة الجاسوسية ، للاشراف على عمليات المطاردة ، وهو موقن من أن الشخص المنشود كان مختبئا فى مكان ما من سفن اللهو . ولذا أمر باجراء تفتيش دقيق ، تولاه المفتشون العشرة الذين كانوا تحت أمرته

* * *

. وارتبكت نينا عند وصول المشتبه فى أمره ، فما أن رأته يصعد الى السفينة ، حتى خيل اليها انها توشك أن تقع مغشيا عليها . وكان السيد هو وين يو فى شغل بقنيصته عن الانتباه الى الشحوب الذى اعترى وجه نينا ، لحسن حظها .. فقد راح يستجوب رجاله المسلحين الذين كانوا يحفون بالاسير . وقد غرسوا مدافعهم الرشاشة فى ظهره :

ــ **أين وجدتموه ؟** ــ فى سفينة التنهدات .

ــ **بمفرده ؟** ــ بل مع فتاة ، يشربان الخمر !

فالتفت السيد « هو وين يو » نحو نائب مدير مكافحة الجاسوسية ، وكأنه يدع الامر له . فاستأنف ذلك الموظف ــ الكالح الوجه ــ الاستجواب ، وسأل الاسير : « ماذا كنت تصنع فى سفينة التنهدات ؟ »

ــ **ذهبت لالهو ساعة من الزمن .**

ــ وهل تعرف مديرة السفينة ؟

ــ **كلا ، ولكنهم أتنوا لى على سفينتها .**

ــ لحساب من تعمل ؟

ـ لحسابى .. فى حانوت بشارع الخراف البيضاء .
ـ ليس هذا العمل الا ستارا للتمويه
ـ أؤكد أن هذا غير صحيح . فأنا أكتسب قوتى منه !
ـ انك فى خدمة لصوص فورموزا .. أعداء الصين !
ـ أبدا ! .. فأنا خادم مخلص للصين ولم أخن أحدا .
ـ أنت كذاب ، فقد جمعنا الادلة التى تدينك . وسنعرف كيف نرغمك على الاعتراف بجرائمك .

وكانت نينا واقفة فى المؤخرة ، تصغى الى هذا الحوار . أما لؤلؤة التنين وصباح الخير ، فكانتا متواريتين وراء باب موارب ، تصغيان هما الاخريان ، وقد ارتعدت فرائص ثلاثتهن ، اذ تصورن ألوان العذاب التى ستصب لا محالة على السيد شياو .. وازداد خوف نينا عندما سمعت نائب مدير مكافحة الجاسوسية يستطرد قائلا : « انك تعرف ـ ولا شك ـ ما ندخره للجواسيس من طرازك ، ما لم تعترف . ان كوانتنج موبوءة بجواسيس سادتك المناكيد .. والمجرمون الذين ساعدونا فى القاء القبض على تلك العصبة الحقيرة ، قد حمدوا مغبة تلك المساعدة ، اذ نجا كثيرون منهم من سيف الجلاد ، وخففت عقوبة السجن لبعضهم .. فالامر الآن اليك كى تختار مصيرك ! »

وقال شياو : « لست جاسوسا » . فأطلق مساعد مدير مكافحة الجاسوسية زمجرة تدل على الحنق ، والتفت الى السيد هو وين يو ، وقال له : « خذ أسيرك ، فسوف يتاح له أن يعيد التفكير ، خلال ستة وسبعين ساعة يجب أن يقضيها بدون شرب . **وسوف نستأنف تحقيق قضيته فى اليوم الرابع .. ولا بد أن ينتهى به الامر الى ادراك أن الاعتراف أفضل له من العطش ! .. وهناك أيضا ما هو أسوأ وأدهى ! »**
وأمر السيد « هو وين يو » رجاله ، فأنزلوا السيد شياو

الى زورقهم . ثم التفت الى نينا ، وقال لها بابتسامة عذبة : « اننا مدينون لك بألف اعتذار . ولكننا لم نضيع يومنا هباء ، اذ أن هذا الشخص جاسوس خطر ، كانت شكوكنا تحوم حوله منذ مدة . وقد بلغنا ــ أخيرا ــ من بعض مصادرنا أنه موجود فى هونج كونج . ولما لم نعثر على طريقة عادية مشروعة يتخذها شياو هذا ، لاجتياز الحدود ، فقد رجح لدينا أنه يتسلل خلسة عبرها ! » . فتظاهرت نينا بعدم الاكتراث وسألته : « هب أنه رفض الاعتراف ؟ »

فضحك ضحكة قصيرة جافة . وقال لها : « رويدك ! اننا نعرف كيف نحمل على الكلام أولئك الذين يرفضون أن يطلقوا لالسنتهم العنان . وعلى كل حال ، لا تشغلى خاطرك بأمره ، فهو رجل مقضى عليه بالهلاك . وانه ليدرك هذه الحقيقة . لانه ليس من ذوى البلاهة ، بل انه يعلم جيدا أن بوسعه أن يصل معنا الى الاتفاق ، على شريطة . . » ، وسكت ، **فسألته : « على شريطة أن يغير المعسكر الذى يخدمه ؟ » . فقال : « بل أكثر من هذا . . على شريطة أن يساعدنا على اقتناص جواسيس أشد خطرا ! »**

ووقع اعتقال السيد شياو وقع القنابل وسط الاسطول الصغير من سفن الازهار ، فانطلقت التعليقات طول الليل ، وأخذت النسائم تحمل تلك التعليقات من سفينة الى سفينة . وعلم الزوار بما حدث ، فتركوا صاحباتهم وانصرفوا للاصغاء الى تفاصيل التفتيش . . واستقبلت نينا ــ على ظهر « سفينة الملذات » ــ كثيرين ممن دفعهم حب الاستطلاع ، بعد أن سمعوا بالمأساة التى جسمتها الاراجيف والمبالغات ، فجعلت منها قصة جديرة بالشاشة الفضية ! . . وتركت نينا فتاتيها ــ لؤلؤة التنين وصباح الخير ــ ترويان للوافدين ما حلا لهما من الروايات . أما هى ، فكانت تعيش فى جو من الفزع ، لان القبض على السيد شياو كان أسوأ ما يمكن أن يقع لها ، وأصبحت

سلامة شخصها ـ بل وحياتها ـ متوقفة على الاعترافات التي قد ينتزعها البوليس من هذا المسكين الواقع تحت رحمة جلاديه !

* * *

• وفى اليوم التالى ، استيقظت نينا مذعورة ـ أثر كابوس مزعج ـ على يد لؤلؤة التنين وهى توقظها ، فى الساعة الحادية عشرة صباحا ، وتقول لها : « ان السيدة مديرة سفينة التنهدات ترجو مقابلتك ! » . ونهضت نينا من فراشها .. وكانت دائما متباعدة عن جاراتها ، لان مديرات السفن الاخرى كن يعتبرنها دخيلة عليهن ، متكبرة ، مغترة بصلاتها بكبار رجال البوليس . **ولم يكن بين جاراتها من شعرت بميل اليها سوى الآنسة سو شوان، التى كانت تدير«سفينة التنهدات» ، لان نينا كانت قد أعطتها يوما تعويذة مباركة !**

ودعت « نينا » الزائرة الى مخدعها ، وهذه تعتذر بحرارة عما سببته لنينا من ازعاج بهذه الزيارة . ثم طرقت موضوع زيارتها مباشرة ، فقالت : « ما أعجب قصة الامس ! .. اننى لابهت كلما فكرت فى هذا المنكود ابن السلحفاة ، الذى حضر الى سفينتى ليحتسى الشراب مع فتياتى ، فاذا به ـ فى حقيقة الامر ـ جاسوس ! .. اننى لاتمنى أن يقطعه السادة العسكريون اربا يلقوا بها للصقور والنسور على تلال الازهار الصفراء .. ولكنى يا سيدتى عطر السماء حضرت لزيارتك لغرض آخر ، فى الواقع . اذ يكربنى أن سفينتى تحت رقابة البوليس منذ الصباح ! » . فسألتها نينا : « وما الذى جعلك تعتقدين ذلك ؟ »

ـ ليست مسألة اعتقاد ، بل اننى أعلم عن يقين . فهناك زورق بخارى ألقى مراسيه على بعد عشرين مترا من السفينة . **ثم تلقيت الامر بالسماح لاحد مفتشى البوليس بالاختباء فى قاع**

السفينة . وأنذرنى قبل الاختباء بأنه سيلقى بى فى السجن اذا أنا أخبرت الزوار بوجوده فى السفينة . وكان هذا المفتش فى البداية فظا جدا ، حتى أنه أفزعنا كلنا .. وفى الساعة الرابعة صباحا ، خطرت لى فكرة ، فسألته ان كان به جوع أو ظمأ . فقال أنه يعانى الاثنين معا ! .. وقدمت اليه أرزا بالجمبرى والفلفل الاسود ، وقدحا كبيرا من الشراب ، فأكل وشرب بشراهة ، ثم فارقته فظاظته . واذ ذاك بت معه ليلتى أو ما بقى منها . فأسر الى بأمر مروع ! »

وخفضت « سو شوان » صوتها واستطردت : « قال لى ان السلطات مقتنعة بأن حضور هذا الجاسوس الى سفينتنا يدل على أنه كان على موعد هناك مع شريك له ، وأن أسطولنا أوشك أن يصبح مكانا لالتقاء جواسيس الماريشال الذين اختاروا سفينتى بصفة خاصة لهذا الغرض ! .. اننى وفتياتى فى غاية القلق .. ومن يدرى ؟ **ربما اتهمونا بالتآمر مع هؤلاء الجواسيس واعتقلونا ، وألقوا بنا فى السجن . فماذا كنت تصنعين لو كنت فى مكانى ؟**

ـ هل ضميرك مستريح ؟

ـ طبعا . ولكن هؤلاء الشرطة .. ما أكثر شكوكهم ! !



ــ أن وجود المفتش المختبىء عندك كفيل ــ على كل حال ــ بأن يطمئنك . وسيشاهد بنفسه أنكن بريئات !

ــ ربما ، ولكن مصالحنا ستتأثر بهذه المراقبة تأثرا جسيما ، لان الرواد اذا شعروا بوجود مفتش بوليس الامن مختفيا فى سفينتنا ، هجروا السفينة وفضلوا عليها سفينة أخرى ، لا يتعرضون فيها لمن يتنسم أحوالهم وكأنهم كلاب بها جرب !

وواست « نينا » الآنسة « سو شوان » ما وسعتها المواساة ، فعادت هذه الى سفينتها وهى تحمد للسيدة « عطر السماء » ظرفها وعطفها وكلماتها المشجعة .

★ ★ ★

• **وانقضت** ثلاثة أيام لم تكد « نينا » تتذوق خلالها للنوم طعما . وكانت ــ اذا أغفت ــ تستيقظ وقد تصبب جبينها عرقا ، واستولى عليها القلق . وما كان فى وسعها أن تنشد من فتياتها ما يقوى عزيمتها ، فقد نسيتا السيد شياو ولم تعودا تفكران فى حادث اعتقاله . ولذا ظلت نينا على أحر من الجمر ، تنتفض ذعرا لصوت كل زورق بخارى يمر فى النهر ، اذ تخال أن الشرطة قد حضروا لالقاء القبض عليها .

وفى مساء اليوم الرابع ، استقبلت ضابطين قضيا الوقت مع « لؤلؤة التنين » ــ الى منتصف الليل ــ ثم رجعا الى المدينة . ولم تجد فى نفسها أدنى ميل للتحدث اليهما أو سؤالهما عن شىء ، فقد بلغ من يأسها وانهيارها أنها تخلت عن كل شىء ، حتى عن رسالتها . . وانقضى على انصراف الضابطين ربع ساعة ، كانت « لؤلؤة التنين » قد دست ــ خلاله ــ الدولارات التى نالتها منهما ، بين ثيابها الداخلية . أما « صباح الخير » ، فكانت تتقلب على فراشها ، وهى تمضغ « اللادن » ، بينما جلست نينا كالمحمومة ، وقد شخصت ببصرها الى مياه النهر السوداء ، التى كانت تنساب فى صمت . **وعلى حين غرة ، وقفت لؤلؤة التنين عند السياج وصاحت : « أنظرى !..**

زورق البوليس بأنواره الحمراء ، انه قادم الى هنا ! » . فهبت نينا من مكانها ، وراحت تتطلع الى الكشافات الحمراء ، وقد توجست شرا . واقترب الزورق فقفز منه السيد هو وين يو بخفته المعهودة . ودهشت نينا حين رأته وحده ، لم يصطحب أحدا من رجاله . فهل جاء ليحيط معصميها بالاصفاد ؟ !

وهتف السيد هو وين يو يحييها باحترامه المعتاد : « طاب مساؤك يا سيدتى عطر السماء ! » . فردت قائلة : « طاب مساؤك يا صاحب السعادة ! » .. ولكنها لم تطمئن الى لهجة مساعد الحكمدار ، فقد كان ممن يستطيبون التعذيب ، ويشتد مرحهم حين يعلنون الى الناس أدهى الكوارث ..

وجلس مساعد الحكمدار فى مقعد وثير وقال : « لقد قضيت يوما متعبا يا صديقتى اللطيفة . ولهذا جئت أرفه عن نفسى لديك ! » .. فقالت : « انك دائما على الرحب والسعة يا صاحب السعادة . أترانى بحاجة الى أن أقول لك أن زيارتك تسبب لى السرور والرضى ؟ ما الذى أستطيع عمله لمرضاتك يا سيدى ؟ » . فسألها : « هل صباح الخير مشغولة ؟ » . وكان جوابها : « كلا .. بل هى نائمة »

ـ أيقظيها اذن، فسوف يسرنى أن أجالسها !

فأرسلت نينا « لؤلؤة التنين » لدعوة زميلتها . **ولما خلا وجهها الى السيد هو وين يو ، خطر لنينا أن تسأله عن السيد شياو ، فما كان ثمة عجب فى أن تسأله عن هذه المسألة ، على أن لا تظهر اهتماما شديدا** . فقالت وهى تتصنع الملل العميق: « أما من جديد فى المدينة يا صاحب السعادة ؟ » . فأجاب الرجل : « كلا ، فان حياة رجال الشرطة رتيبة مملة ! »

وحاولت نينا أن تتجه بالحديث الى الموضوع الذى يهمها قبل كل شيء ، فقالت : « وما اسم السيد مدير مكافحة الجاسوسية ، الذى كان فى صحبتك تلك الليلة ؟ » . فقال :

« آه ، السيد فونج تشي .. رجل ظريف ، أليس كذلك ؟ » . فكان جوابها : « انه يبدو ماكرا جدا ! » . وعقب هو قائلا : « رجل حصيف للغاية . وبهذه المناسبة ، أتذكرين ذلك الشخص الذى قبضنا عليه أثناء التفتيش ، فى تلك الليلة ؟ » . فتصنعت نينا نبش ذاكرتها ، ثم قالت : « ذلك الشخص الذى وجدتموه فى سفينة التنهدات ؟ »

ـ نعم . تصورى أننا لم نظفر منه حتى الآن بطائل !

ـ كان يجب أن يبقى فى زنزانته ستا وسبعين ساعة بغير شرب .

ـ لقد ظل يقاوم الظمأ ، مع أننا أطعمناه سمكا مملحا .. لا بد لنا من اكراهه على الكلام بأية وسيلة !

ـ أتعتقد أنكم تستطيعون ؟

ـ لا تقلقى .. سنستطيع ، وسيفرغ ما فى جعبته ، وسينتهى الى الادلاء بأسماء شركائه !

وأشرق وجه السيد هو وين يو بابتسامة غبطة وانشراح ، اذ أقبلت « صباح الخير » ، فأشار اليها بأن تجلس بجواره ، ثم قدم اليها كأسا .. واشتركت « لؤلؤة التنين » فى الحديث .. ولم تطمئن نينا الى ما سمعته من السيد « هو وين يو » ، فتحاشت أن يلتقى بصرها ببصر الرجل الذى جعل يغازل صباح الخير ، والذى قد يأتى غدا ليسوقها الى الجلاد ! .. وما لبث هو وين يو أن أبدى رغبته فى الذهاب الى مخدع تلك التى كان يسميها غزاله النافر ، فأشارت نينا الى « لؤلؤة التنين » ، فتبعت الاثنين الى حجرة النوم المشتركة . **وظلت نينا وحدها فوق سطح السفينة ، وأفكارها تضج داخل دماغها ، وقد أنهكها التفكير فى مصير السيد شياو ، الذى باتت حياة شركائه بين يديه .. بل رهن لسانه ! ..** ترى الى أى مدى يستطيع مقاومة التعذيب ؟ ان من المحتمل جدا أن

يعترف بأسماء شركائه انقاذا لحياته ، أو تخلصا من التعذيب الاليم ، أو الخنق البطيء !

* * *

• **وأحست** نينا بأنها باتت كطائر سقط فى شرك أخذت حلقاته تطبق عليه شيئا فشيئا بغير رحمة .. وتذكرت فرانسيس وكيف أنه قد يكون – فى هذه اللحظة – فى شوارع هونج كونج .. لقد كانت محرومة حتى من تسرية مراسلته ، واستمراء آلاف الاشياء الرقيقة التى طال شوقها الى سماعها منه . وتذكرت أيضا حجرتهما فى فندق « الملك ادوارد » بجوها الهادىء ، وعناقهما المحموم ! .. وكبحت نفسها حتى لا تنهمر دموعها .

وفجأة ، سمعت صرخة ثاقبة ، انبعثت من مقدم السفينة ، فأرهفت أذنيها ، وقد هبت واقفة . وما لبثت أن سمعت خطوات مسرعة ، وأقبلت « صباح الخير » مشعثة الشعر ، مشقوقة الثوب من فوق الصدر ، وقد ضمت يديها على ثدييها .. وارتمت بين أحضان « نينا » باكية متوجعة ، وهى تصيح : « اللعين ! لقد أحرقنى ! » . فهتفت نينا مشفقة : « أين ؟ »

– هناك .. فوق صدرى .. بسيجارته . كم أتألم يا أختاه !

وأقبل السيد هو وين يو بخطواته البطيئة التى لا يسمع لها صوت ، وقد ارتسمت على وجهه امارات السعادة . وصاح : « ماذا بها ؟ ان هذه الصغيرة قليلة الاحتمال ! » . فقالت نينا متلطفة : « لقد أحرقتها يا صاحب السعادة ! » . فابتسم فى استهانة وأجاب : « ان غزالتنا الصغيرة مفرطة الحساسية حقا ! .. وهل هذا يقتضى أن تبكى كأنها طفلة فى الخامسة ، انسكب منها طعامها ؟ ! »

وظلت صباح الخير تتأوه قائلة : « لقد أطفأ سيجارته فوق

ثديى .. هنا وهنا .. !» . فانفجر السيد هو وين يو ضاحكا ، وقال : « لقد كنت أمزح . اذ تباهت أمامى هذه الحمقاء برقة بشرتها ، فأردت أن أتثبت من ذلك . انها حمقاء جدا فعلا !.. »

وكان واضحا أن السيد هو وين يو لم يكن راضيا كل الرضا ، فأسرعت نينا قائلة : « طبعا يا صاحب السعادة .. طبعا ! »

وانحنى السيد هو وين يو محييا ، ثم عاد الى زورقه باسما . ولما اختفى ضجيج محرك الزورق فى سكون الليل ، تأوهت « صباح الخير » من جديد ، فأشفقت نينا عليها وقالت : « يا لاختى الصغيرة المسكينة ! انه وحش ! »

ـ لكم أكره هذا الرجل !

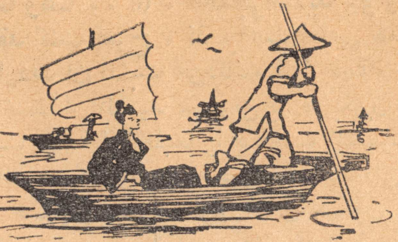
ـ عندى بلسم ستضعه لؤلؤة التنين على حروقك ، وستجدينه مخففا سحريا للآلام !

واقتادت « لؤلؤة التنين » زميلتها الى حجرتهما ، وبقيت نينا وحدها فوق سطح السفينة ، وقد ازدادت مخاوفها واضطرابها . فارتمت على وسائد المقعد ، وأخذتها نوبة نحيب ، لم تجد مجيبا عنها ، الا صدى صافرة سفينة بضائع كانت ترفع مراسيها من وسط النهر ، لتقلع الى مكان مجهول !

الفصل العاشر

بين الذعر والطمأنينة

• **كان** اليوم السادس من أيام اعتقال السيد شياو يمثل فى نظر « نينا » ذروة المأساة التى قلبت حياتها رأسا على عقب . وكان السيد هو وين يو واضحا حاسما فى هذا الصدد ، فلو أن الجاسوس صمد للظمأ ، فلا بد من استخدام الوسائل الكبرى . **وقد ظلت « نينا » ـ طوال النهار ـ على اعتقاد أن**



حريتها قد أوشكت على ختامها ، فتخلت عنها شجاعتها ، وأحست بأنها تنتظر الموت باستسلام كالفريسة المحصورة . حتى اذا كانت الساعة السادسة مساء ، استقر عزمها على قرار . ومن غير أن تطلع لؤلؤة التنين وصباح الخير على ما اعتزمت ، استقلت الزورق الذى جاء بمواد التموين ، وذهبت الى الشاطىء ، فاتجهت فورا صوب بيت السيدة ينج نينج . ودهشت الامة العجوز لمرآها حين فتحت لها الباب ، وأدخلتها على مولاتها التى أدهشتها ــ هى الاخرى ــ هذه الزيارة غير المرتقبة .. وتبادر الى ذهن القوادة أن احدى فتاتى السفينة قد أصيبت بمرض خبيث ، بيد أنها ذهلت عندما قالت لها نينا :

ــ لم أعد أستطيع البقاء أطول من هذه المدة التى قضيتها على متن السفينة . فان هذا فوق طاقتى ! .. هذا الانتظار يكاد يذهب بصوابى !

وقطبت السيدة ينج نينج حاجبيها وقالت : « وما الذى يفزعك على هذه الصورة ؟ » . فردت نينا بسؤال آخر : « هل نمى اليك نبأ القبض على السيد شياو ؟ » . وكان الجواب : « طبعا ! »

ــ سوف يعذبونه ويرغمونه على الادلاء بأسماء شركائه .

ــ مستحيل أن يخوننا السيد شياو !

ـ هذا ما يخيل اليك ، ولكنك تعرفين وسائلهم كما أعرفها أنا . وسينتهى بهم الامر الى انتزاع الاعترافات التى يبتغونها منه .. وهى اعترافات تعنى بالنسبة لى الموت الزؤام ، وليس فى نيتى أن أدعهم يجهزون على كشاة تساق الى الذبح ! .. لن أبقى هناك ، حيث أنا ..

ـ اذن ماذا تريدين أن تفعلى ؟

وأجابت نينا : « أريد أن أختفى ! » . فهتفت السيدة ينج نينج : « هذا مستحيل ! » . ولكن نينا راحت تهيب بها : « أتوسل اليك ياسيدتى ينج نينج . ساعدينى !.. أريد أن أهرب قبل فوات الاوان ! **سأغادر كانتون مرتدية أسمالا بالية كالمتسولين ، وأضع على رأسى ضمادة . وسأجتهد أن أنجو بنفسى من قبضة هذا السيد هو وين يو الذى تفزعنى ساديته !** .. الا تعلمين أن هذا الشرطى يطفىء سجائره فى صدر تلك الصغيرة المسكينة صباح الخير ؟ ! » . فقالت السيدة ينج نينج : « لو أنك هربت ، فسوف يضعون يدهم عليك ، قبل أن تصلى الى قرية نام يانج ! »

ـ أن الصين بلد مترامى الاطراف ، ومتى أفلحت فى العبور الى مقاطعة (هونان) ، فسأكون فى أمان .. سألجأ الى دير أختفى فيه . رحماك يا سيدتى ينج نينج .. لا أريد أن أموت !

وتحركت عواطف الرحمة فى صدر القوادة العجوز ، امام توسلات نينا ، فحاولت أن تهدىء روعها قائلة : « فيم هذا الفزع ؟ .. اننى أعرف السيد شياو جيداً ، فهو رجل شجاع كل الشجاعة .. انه رواقى الطبع ، يصمد للآلام ! » . ولكن نينا صاحت بها : **« كلا ، كلا .. انك واهمة . فهناك ألوان من التعذيب لا قبل لاحد بمقاومتها . وانى متأكدة من أنه سوف يذعن لهم الليلة ، أو غداً ، أو فى مدى يومين .. أو بعد ذلك . هذا لا يهم ، فعاجلا أو آجلا سيكون لهم ما يريدون ، وعندئذ**

سيأتى صاحبك هو وين يو ، بابتسامته الماكرة .. كأنى أراه الساعة أمامى ، وكلمات كالشهد المصفى تقطر من شفتيه ! .. وسيتلذذ بتعذيبى على نار هادئة بطيئة .. وأكاد أسمعه يقول لى : « يا سيدتى الحسناء عطر السماء .. انى آسف جدا لما حدث ، ولكن لا بد لنا من اقتيادك الى رئاسة بوليس الامن ، لمسألة تافهة جدا .. مجرد شكليات .. لا تقلقى ، وهيا معى الى كانتون ، فان مدير مكافحة الجاسوسية يتحرق شوقا الى التعرف اليك معرفة وثيقة ! » .. ثم يدفعنى الى ركوب قاربه البخارى ، وهو يفح من بين أسنانه قائلا : « يا لك من أفعى ! .. اتبعينى يا وقود جهنم ! سنجعلك تكفرين عن خياناتك الدنيئة ! » .. أجل ! »

ــ لقد طاش صوابك يا بنيتى ! .. ان خيالك يغرر بك !

ــ كلا ! .. لم أعد أريد البقاء فى السفينة منذ الليلة ! أستبقينى معك هنا هذه الليلة على الاقل ! .. خبئينى عندك يا سيدتى ينج نينج ، وأقسم لك اننى سأكون غدا قد اختفيت ، ولن تسمعى شيئا بعد ذلك عنى ! .. لن أحرجك أو أورطك فى شىء بعد الليلة !

وحاولت السيدة ينج نينج أن تهدىء من روع نينا ، ولكن انفعالها كان أشد من أن تجدى معه أية تسرية . وقدمت اليها السيدة ينج نينج كأسا من الخمر ، عسى أن تنام تحت تأثيرها ، فتجرعت « نينا » الكونياك دفعة واحدة .. وبعد دقائق معدودة كانت قد ارتمت على الاريكة التى كانت جالسة فوقها .. واستغرقت فى نوم عميق ! .. وجعلت السيدة ينج نينج تنظر اليها برهة طويلة ، وهى نهب للحيرة . فان حالة نينا الهستيرية انتقلت اليها بالعدوى ، فاذا القوادة العجوز ــ التى كانت لها كل الثقة فى رواقية شياو ــ تسائل نفسها : ترى هل ينجح رجال الشرطة فى انتزاع أسماء شركائه من فمه فى النهاية ؟ .. **انه يعرف أسماء كثيرة ، ويخشى دائما من انهيار**

مقاومته فى أى لحظة ! وإذ ذاك ، لن يشى بنينا فقط ، بل بتلك التى جهزت « سفينة الملذات » كذلك .. فيجهزون على ينج نينج وكأنها بومة عجوز ، ويلقون بجثتها للصقور والنسور على قمم الجبال الشمالية الشرقية !

وارتعدت فرائص السيدة ينج نينج ، فقد أفلحت هذه المخبولة « نينا » فى اذكاء جذوة القلق فى فؤادها ، مع أنها كثيرا ما ناقشت السيد شياو احتمال القاء القبض عليه ، فكان يطمئنها الى أن ألوان العذاب لا يمكن أن تحل عقدة لسانه ! .. قال لها هذا بنفسه ، ولكن لعل كلامه هذا لم يكن الا من قبيل التفاخر الاحمق .. وفى الساعة الفاصلة قد تخونه شجاعته !

* * *

• **وظلت** السيدة ينج نينج تحملق فى نينا النائمة فوق الاريكة .. وبدأت ترى أن القرار الذى اقترحته الشابة لم يكن يخلو من وجاهة .. ولا ضرر هناك من فرار مؤقت ، اذا افترض أن السيد شياو لم يعترف بشىء . ففى وسعها ــ بعد ذلك ــ أن تعود الى (شامين) ، وهى آمنة مطمئنة . أما اذا انهار جلده ، فسيكون الفرار هو المخرج الوحيد .. وقد تكون فرصة الفرار ضئيلة ، ولكنها ــ على أية حال ــ مبعث أمل ! لذلك لم تلبث أن نهضت فجأة ، ووضعت يدها المعروقة المتغضنة على كتف نينا ، فاستيقظت هذه فزعة ، وهى تنتفض ، وهتفت وفى عينيها ذعر شديد : « ما هذا ؟ .. ماذا جرى ؟ » . فمالت السيدة ينج نينج فوقها ، وقالت لها : « لقد فكرت فى الامر يا بنيتى ، وبدت لى فكرتك وجيهة .. فليس لنا أن نجازف بالتعرض للهلاك . سنرحل الليلة بالذات! »

ــ أجل يا سيدتى ينج نينج .. يجب ، فان حياتك ــ أنت الاخرى ــ فى خطر !

ورسمت المرأتان خطتهما للهرب : **فى الساعة التاسعة ستذهبان الى المدينة ، وقد ارتدينا ثياب الفقراء ، وتركبان عربتى ((ركشه)) الى الاطراف الخارجية لمدينة كانتون ، ثم تستقلان من هناك ، سيارة أو حافلة عامة من الحفلات التى تطوف قرى الريف . وتروحان تتنقلان من قرية الى قرية ، مبتعدتين عن المدينة الكبيرة . وتظلان تتسولان عيشهما متنقلتين بين المزارع . وبهذا قد تكتب لهما السلامة عن المصير الذى يتهددهما !**

وقامت السيدة ينج نينج لتخبر أمتها العجوز بأنها كانت مضطرة للخروج كى تزور احدى قريباتها . وعندئذ سمعت على الباب طرقات خافتة . فأطلقت نينا صيحة فزع ... **لقد فات الاوان اذن ، وسقطتا فى الشرك !**

واجتازت السيدة ينج نينج الدهليز فى غير ضجة . وكان الضوء فيه خافتا ، فنظرت خلال شق خفى فى الباب ، فاذا شبح رجل ينتظر أن يفتح له الباب ، فأمعنت السيدة ينج نينج النظر ، ثم زفرت فى ارتياح ، اذ عرفت فى الطارق السيد ((يانج تشو)) ، كبير كتاب محكمة العدل فى المنطقة رقم واحد . وكانت فى غمرة ارتباكها قد نسيت تمام النسيان أن اليوم يوم الثلاثاء ، وهو اليوم الذى اعتاد الموظف الكهل أن يحضر فيه لتناول الشاى معها ومجاذبتها أطراف الحديث .. وكان السيد يانج تشو مسنا ، يبلغ نحو الخامسة والخمسين من عمره . وقد عرفته منذ زمن طويل جدا . وكان يعنى بزيارتها ، لشعوره بالامتنان لها ، اذ قدمت اليه فى الايام الخالية فتاة يتيمة من مقاطعة كانتون ، اقتناها حظية له فى بيته القائم على ضفة النهر فى شامين .

وفتحت السيدة ينج نينج الباب للسيد يانج تشو ، وهى تتنفس الصعداء . ورحبت به ، ثم أسرعت فطمأنت ((نينا)) ، وقدمته اليها . وجلس الرجل شاكرا هذه الحفاوة .. وبينما

كان يحتسى الشاى ، قال : « يا لها من حكاية ! .. ان السادة ضباط بوليس الامن فى منتهى الهياج ! » .. ولم يكن يعرف - بطبيعة الحال - شيئا مما كان يشغل سريرة صديقته . على أنه لم يكد ينطق بكلمة « البوليس » ، حتى ارهفت نينا أذنيها ، وقالت بلهفة : « عن أية مسألة تتحدث يا سيد يانج تشو ؟ »

- معك حق ، فأنتما لستما على علم بما حدث طبعا ! سأخبركما بالمسألة فى ايجاز ، على أن يظل الامر سرا بيننا .. اننى لا أدرى ما اذا كنتما قد سمعتما بما تم منذ نحو ستة أيام ، من تفتيش سفن الازهار !

- سمعنا بذلك ، ولكن .. ماذا كان السبب ؟ سرقة طبعا ؟

- أواه ، كلا ! .. لقد قبضوا - على متن « سفينة التنهدات » - على شخص اسمه شياو ، اشتبه فى أنه يتجسس لحساب عملاء فورموزا . وقد حبسه بوليس الامن فى زنزانة مدة أربعة أيام بدون ماء .. وفى اليوم الخامس ، كان الظمأ قد استبد بالرجل استبدادا فظيعا ، فاقتادوه امام القوميسيير السياسى ، الذى أومأ الى قدح من الشاى المنعش ، وطلب منه أن يعترف ، واعدا اياه - اذا اعترف بكل ما يطلب منه - بأن يسمح له بشرب الشاى . ورفض شياو أن يعترف . فجلدوه خمسا وعشرين جلدة ، ثم ردوه الى زنزانته . وكنت جالسا على أهبة تدوين الاعترافات ، ولكنى لم أكتب شيئا ، لان السجين ظل صامتا صمت القبور ! .. وبعد ظهر ذلك اليوم حضر نائب مدير مكافحة الجاسوسية ، وقابل القوميسيير ، وابلغه اوامر السلطات العليا ، التى تقضى بوجوب حل عقدة لسان السجين بأية طريقة ، وبأى ثمن . وتناقش الضباط مع القوميسيير فى هذه المسألة طويلا ، ثم انتهوا الى الاتفاق على خطة واحدة ، وهى توقيع طريقة الفيران الثلاثة - فى

التعذيب – عليه !

وانتفضت نينا ، وصاحت السيدة ينج نينج جزعة : « الفيران الثلاثة ؟ ! » . فرشف السيد تانج تشو رشفة من الشاى ، وقال : « سأوضح لكما ما حدث : لقد جىء بالسجين الى (بدروم) السجن ، وذهبت فى صحبة القوميسيير وحارسين ، فاذا بهم يجلسون السجين على مقعد ويحيطون رقبته بحلقة من الحديد ثبتت راسه فوق قرص خشبى . ثم احضر السجانان كيسا وقفصا مستديرا فجعلا الثانى فوق رأسه ، بحيث صار رأسه داخل ذلك القفص . وشرع القوميسيير فى استجوابه لمدة عشر دقائق . وأصر شياو على الصمت . وعندئذ أشار القوميسيير الى الحراس ، ففتحوا الكيس وأخرجوا ثلاثة فيران كبيرة ، رمادية اللون ، حبسوها داخل القفص الذى كان به رأس شياو ! وكانت هناك مسافة تسمح للفيران الثلاثة بالحركة فى حرية حول رأسه . وظلت الفيران الثلاثة تجرى مدى بضع دقائق ، ثم أخذت تتسلق رأسه ، صعودا وهبوطا ، فى سياق غريب . وكانت هذه الفيران جائعة ، لم يقدم لها طعام منذ سبعة أيام . وفجأة ، انقض أحد الفيران على اذن شياو فقضم منها قطعة جعل يتلمظ متلذذا بها . وهجم فأر آخر على الفأر الاول وزاحمه لينال لنفسه قضمة من لحم السجين المسكين . وما هى الا هنيهة ، حتى كانت الفيران الثلاثة قد أتت على أذنه كلها ! .. ويظهر أن رائحة الدم أثارت وحشية أحد الفيران ، فهجم على أنف شياو يقرضه ، وحذا الآخران حذوه حتى التهمت نصف الانف . وعندئذ أمر القوميسيير بوقف العملية ، فقتل الحراس الفيران بسكاكين طويلة أدخلوها من بين قضبان القفص ، ثم نزعوا الحلقة من حول عنق شياو ! .. وكان وجهه ملطخا بالدم . واقترب منه القوميسيير وسأله قائلا : « أيها الكلب

العقور ! ألا تريد أن تتكلم ؟ » ، فأجابه قائلا : « بلى ! سأتكلم!» .. أجل ، كان هذا جوابه ! »

★ ★ ★

• **وكانت** السيدة ينج نينج ونينا تصـغيان بكل انتباه ، وقلباهما يدقان دقا عنيفا ، واستطرد السيد يانج تشو قائلا : « واستراح القوميسيير لهذا القول من شياو ، فأشار الى كى أستعد لتسجيل الاقوال التى سيدلى بها . **وتضرع شياو اليه أن يأمر بفك قيـود معصـميه ، كى يريه العلامات السرية والرموز المنقوشة على جسمه ويفسر له معانيها الخفيـة ، وكانت نية شياو الطيبة واضحة جدا ، فأمر القوميسـيير الحراس بحل الاغلال التى تقيد يدى السجين وأمر كذلك أن يقدموا اليه قدحا من الماء** • فشرب شياو من القدح جرعة واحدة ثم سقط على الارض كمن أصابه دوار ، وأفلح بصعوبة فى الجلوس على كرسيه مرة أخرى . ولما لم يتـكلم ، قال القوميسيير بغضب للحراس : « اخلعوا عنه ثيابه ، واكشفوا عن صدره وظهره وفخذيه . هيا ! » ... فنزعوا عن شياو ثيابه كلها ، وجعلوا يفحصون جلده ظهرا لبطن ، فلم يعثـروا على علامة واحدة . فاستشاط القوميسيير غضبا ، وتوعده



قائلا : « لقد خدعتنا أيها الوغد ! .. أجب عن الاسئلة المحددة التى سأوجهها اليك ، والا فسوف نجعل الفيران تأكل سائر رأسك ، أيها الخنزير ! » .. وأخذ القوميسير يوجه اليه سلسلة من الاسئلة : لحساب من تعمل ؟ ومن الذى يدفع لك ثمن خيانتك ؟ ومن هم شركاؤه فى كوان تونج وغيرها من الاقاليم ؟ .. ولم تفلح الاسئلة ولا التهديدات فى اخراجه عن صمته . وكان شياو ينظر الينا وكأنه لا يدرى ولا يسمع ولا يفهم . وكانت بشرته قد تحولت الى لون قريب من الخضرة الباهتة ، وأخذت رقبته تختلج كمن به تقلصات ، واعتراه فواق عنيف . **ولم يلبث أن سقط على الارض يتلوى ، وجعل ينبش التراب بأظافره ، ثم سكن بلا حراك ، فأطلق القوميسير صيحة غضب ، وركله .. ثم قلب جفنيه ، وأعلن انه مات بالسم !** ولما فحصنا ثيابه اكتشفنا أن احد أزراره مشقوق مجوف ، ولا شك أنه كان يحتوى على قرص سام لفوره ، ابتلعه بعد أن فككنا قيود يديه . وعلمنا أنه تصنع الدوار فى البداية ، وسقط على الارض بعد حل يديه ، كى يتمكن من تنفيذ خطته خلسة . وهكذا حمل سره معه الى العالم الآخر ، وأفلت من العقاب الذى يستحقه جواسيس الاعداء الخونة من أمثاله !

وسكت السيد يانج تشو ، وانصرف لارتشاف بقية قدح الشاى فى تلذذ . وتبادلت السيدة ينج نينج ونينا النظرات ، وقد أذهلتهما المفاجأة ، واستولت عليهما شتى المشاعر المتناقضة لسماع هذه الانباء العجيبة .. فقد كان معنى ذلك انقضاء خوفهما وقلقهما على غير انتظار ! .. وقدمنا قدحا آخر من الشاى الى السيد يانج تشو ، الذى انتقل الى الحديث فى مواضيع شتى ، من هنا وهناك ، بعد أن عقب على قصة شياو

بقوله : « أعتقد أن انتحار شياو بهذه الصـــورة ســـيكلف القوميسيير منصبه . اذ كان من واجبه أن يكون أكثر حذرا مما كان ، وأن يفتش ثياب سجينه تفتيشا دقيقا . ولـكن السجين ـ على كل حال ـ كان داهية فى مكره وحيلتـــه . فمنذا الذى كان يتصور أن زرا صغيرا مســـتديرا يمكن أن يخفى فى داخله حبة قاتلة بهذه السرعة ؟ ! »

* * *

• وفى نحو الساعة العاشرة مساء ، شكر السيد يانج تشو السيدتين على حفاوتهما البالغة ، واســتأذن فى الانصراف . وما أن صارت السيدتان وحدهما ، حتى تناولت القــوادة العجوز كفى نينا بين يديها وقالت لها همســـا : « والآن يا صغيرتى ، أظن أنك لن تشعرى بأدنى خوف ؟ » .. فأجابت نينا : « يا للسيد شياو المسكين ... لقد كان شجاعا حقا ! »

ـ كنت واثقة من أنه لن يشى بنا مهما يحدث له . والآن ، يحسن بنا أن نفكر تفكيرا واقعيا يا صـــغيرتى . لسنا الآن بحاجة الى الهرب . أليس كذلك ؟

ـ طبعا ... وسأعود الى السفينة .

ـ اننا للاسف قد خسرنا فى شخصه رسولا أمينا حاذقا ، وسوف أكلف شخصا أعرفه وأثق فيه ، كى يبلغ المأساة الى السيد فان لونج ، حتى يحتاط لنفسه ويتدبر شؤونه !

وبعد نصف ساعة ، كانت نينا تحتل مكانها المعهـود فوق سطح « سفينة الملذات » . أما « لؤلؤة التنين » و « صــباح الخير » ، فكانتا تنادمان ثلاثة من الضـــباط ، وأحد كبار الموظفين فى المحافظة . وكان الجميــع يضـحكون فى انشراح وحبور ، بينما انصرفت « نينا » الى التحديق فى مياه النهــر السوداء . وقد أحست بالخجل من خوفها وضعفها وجبنها ،

لا سيما بعد الذى علمته عن بسالة شياو وصبره وتجلده .. **لقد ضرب الرجل لها المثل والقدوة !** .. أجل ، لقد مات السيد شياو لكى ينقذ حياة زملائه فى شبكة الجاسوسية ، فعليها الآن أن تحمل الشعلة التى سقطت من يد الشهيد ، وتستأنف السباق نحو البطولة والمجد !

الفصل الحادى عشر

رحلة الى كانتون



• **شعر** فرانسيس بالضجر والملل فى هونج كونج ، فقدثقل عليه كثيرا فراق « نينا » . أجل ، لقد عرف مدة اقامته الطويلة فى الشرق الاقصى ، فتيات كثيرات من فتيات المراقص والملاهى ، وألف عاداتهن ومزاجهن وأذواقهن . وكان يعلم جيدا أن أهم ما يعنيهن فى ملاقاتهن للرجال هو « حفظ المظاهر » .. وطالما تسلى فرانسيس بألاعيبهن المكشوفة الساذجة ، دون أن يشعر بتعلق أو هيام صادق . **وكانت « نينا » هى المرأة الوحيدة التى استولت عليه استيلاء كاملا ،**

ولهذا شعر بأسى عظيم لفراقها ، وبفراغ ممل ، وبسخط على نوع الحياة التى كانت تحياها فى (كانتون) . وقد أعانه صدق حبه لنينا على التخلص من مغريات ومآزق كثيرة . فلم يكن له من تسلية ـ طوال شهور غيابها الثلاثة ـ سوى تلك المهام التى كان يكلفه بها السـيد فان لونج .. من الطيران الى فورموزا أو ماكاو ، ومن القاء المهربات ليلا فى ريف كوان تونج أو يونان . حتى اذا عاد الى هونج كونج ، ذهب لزيارة صديقه « ماك فيرسن » فى بار « اللوتس الاسود » ، حيث يحتسى الشراب مع هذا أو ذاك من المعارف السطحيين ، ثم يعـود بمفرده الى فندق « الملك ادوارد » ، حيث تراوده صـور وذكريات خلواته مع «نينا» فى تلك الحجرة ، فيسائل نفسه : ماذا عساها تفعل فى تلك الساعة ، فى الجـانب الآخـر من الحدود ؟ .. هل هى فى خطر ؟ .. وكثيرا ما كان يحلم بها ، ثم يصحو من نومه مجفلا ، فيحملق فى الوسادة التى بجواره ، والامل يملأ قلبه فى أن يجدها راقدة هنـاك ، وقد افترت شفتاها عن ابتسامة ملائكية ، وهى مستغرقة فى النعاس !

وفى ذات صباح ، اتخذ قرارا خطيرا ، فاتصـل تليفونيا بالسيد فان لونج وطلب منه موعدا للمقابلة . واستقبله مدير الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير فى داره ، فى السـاعة السابعة من الليلة عينها . فقال له فرانسيس : « يا سـيد فان لونج .. لقد قضيت فى خدمتك أكثر من ستة أشهر . وجدير بك ان تعترف بأنى قد خدمتك باخـلاص ، وان لم أكن أكترث اطلاقا للمنازعات التى تقسم الصين الى معسكرين فى الوقت الحاضر ، وجازفت بحياتى فى سبيل قضـيتكم . وقد يكون جوابك على ذلك أننى أتقاضى عن هذه الخـدمات ألف دولار فى الشهر ، وهذا صحيح . ولـكن المـال لا يكفى لشراء الاخـلاص . وأنا لست مجنـداً ولا ملزما بالخـدمة والولاء .. ومع ذلك وضعت حياتى فى كفة الميزان من غـير

تردد . ألست توافقنى على ذلك ؟ ! »

ـ يا سيد أرنولد ، أننى أوافقك وأقدر خدماتك . وبعد ؟

ـ انى فى خلال هذه المدة قد عرفت أشياء كثيرة ، منها أن الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير ، تتجر سرا مع الاعداء ، رغم سمعتها المتينة . وهذا يدل على ان الاعداء الشيوعيين يجهلون نشاط شركتكم السرى . وهذه براعة تهنأ عليها !

ـ أننى أقيم علاقات تجارية مع الاعداء ، لانه من الطبيعى أن أحصل من الذين أتجسس عليهم ، على مكاسب اغطى بها نفقات ذلك التجسس الباهظة .

ـ ان هذا يدل على ذكاء وضيع ، لا يكترث للمبادىء !

ـ هذا هو شأن جميع رجال الدولة والساسة والبرلمانيين . وهو أيضا حال جميع رؤساء أقلام المخابرات .

وقال فرانسيس : « يا سيد فان لونج . أنا أعلم أنك كنت من البراعة بحيث حصلت من الصين الشيوعية على ترخيص بوجود وكيل دائم لك يمثل شركتك فى كانتون . . » . فقاطعه الرجل متعجلا بقية حديثه : « هذا صحيح يا سيد أرنولد » . فاستطرد فرانسيس قائلا : « وهذا الممثل الدائم يدعى كارل فان دروتن . وهو هولندى قادم من باتافيا من جزر الهند الغربية ، وقد عاش ثلاثين عاما فى الشرق الاقصى على ماسمعت ! »

ـ وهذا أيضا صحيح . اذ أن فان دروتن يعاوننى فى عقد الصفقات والاتصال بسلطات كوان تونج ، حيث أبيع السلع المختلفة كالمصابيح والتوصيلات الكهربائية وما الى ذلك . وأضيف الى هذا أن السيد فان دروتن لا يقوم الا بالنشاط التجارى المحض ، فليست له أية مهمة سرية ، بل انه ـ فوق هذا ـ لا يعلم بالجانب السرى من نشاطنا . فهو يعمل فى وضح النهار وتبارك أعماله السلطات المحلية هناك .

وقال فرانسيس : « اننى أدرك هذه الحقيقة يا سيد فان لونج ، ولكن اقامة السيد فان دروتن فى كانتون جعلتنى أفكر

فى شىء آخر . **أفلا تظن أنه قد يحتاج ولو لمدة أسابيع قليلة الى مساعد خبير فى الادوات الكهربائية ، لخدمة عملائك هناك ؟ »** . فتساءل فان لونج : « ومن يكون هذا الخبير ؟ » . وكان الجواب : « أنا ! .. فان معلوماتى الفنية تتيح لى أن أؤدى خدمات جزيلة فى هذا الصدد ! » . واذ ذاك سأله فان لونج : « ولماذا داخلتك فجأة الرغبة فى الاهتمام بشئون السيد فان دروتن ؟ » . وأجاب فرانسيس : « لان آقامتى لمدة قصيرة فى كانتون ، ستسمح لى بالاتصال بشخصية عزيزة .. »

ونهض السيد فان لونج وجعل يذرع الحجرة ويداه فى جيوبه ، ثم قال دون أن ينظر نحو فرانسيس : « أن ما تطلبه منى جد خطير ، يا سيد أرنولد .. اننى أقدر أسباب رغبتك فى الاجتماع بالآنسة وونج ، لما بينكما من روابط عاطفية وثيقة ، ولكن التقاءكما فى (كانتون) قد يؤدى الى نتائج خطيرة على أعمالنا السرية ، وعليها هى ، وعليك أنت ! » . فقال فرانسيس : « لقد فكرت فى هذا كله ، وأنا آخر من يريد الاساءة الى أعمالكم فى الجانب الآخر من الحدود . ولكن اسمح لى ان أوجه اهتمامك الى العمل الذى تقوم به الآنسة « وونج » ، وهو أدارة سفينة من سفن الازهار . فان هذه السفن تستقبل الزوار المستعدين للانفاق بسخاء ، لمجالسة ومنادمة فتياتها ! »

ـ طبعا ، ولكنك أوروبى ، ولست صينيا !

ـ أنت تعلم ـ كما أعلم أنا ـ أن آلافا من الروس ـ خبراء ومستشارين فى كل نوع ـ موجودون الآن فى الصين ، وهم يتجولون ويتحركون بكل حرية ، فلا يثير منظرهم أية دهشة لدى حلفائهم الصينيين . **وبفضلك ، وبفضل علاقات السيد فان دروتن ، أستطيع الحصول على اذن بالاقامة المؤقتة هناك ، مما يخمد فضول الشرطة .**

ـ ومع هذا فمن التهور أن تقابل الآنسة وونج فى كانتون

ـ اعلم هذا ، ولكن السيد فان دروتن يستطيع أن يكلفنى

باصلاح المصابيح التى تضىء سفن الازهار ، وهى توقد بغاز الاستيلين .

فوقف فان لونج أمام فرانسيس وقال : « هل أنت مصر على رؤيتها ؟ » . فأجاب الشاب : « اذا كانت خدماتى الصادقة تستحق فى نظرك مكافأة صغيرة ، يا سيد فان‌لونج ، فأرجو أن تجيب رجائى ! » . ولزم السيد فان لونج الصمت بضع لحظات ، ثم قال : « كنت حريا أن أرفض طلبك ، لما ينطوى عليه من خطر بالغ للجميع ، لو لم يكن السيد « هو » قد قذف من الطائرة هذين الصينيين اللذين اعتديا عليك فى ماكاو . فقد علمنا بعد ذلك أنهما من رجال مقاومة‌الجاسوسية فى كوان تونج ، وأنهما كانا يتعقبانك منذ رحلتك الاولى الى ماكاو . ولولا حزم السيد « هو » فى القضاء عليهما فورا لما قدرت لك أكثر من ثلاثة أيام فى كانتون ، ثم تعتقل ويجهز عليك . فان أعداءنا ما زالوا يحققون فى أسباب اختفائهما . ولحسن حظك أن أحدا لا يشتبه فى أمرك ، فى الناحية الاخرى من الحدود ، ولذلك فلن أمانع فى اجابة طلبك بشرطين . يجب ان تتعهد بشرفك أن تحترمهما » . فتساءل فرانسيس : « وما هما ؟ »

— سأحصل لك على اذن بالاقامة لمدة أسبوع واحد فى كانتون . وفى خلال هذا الاسبوع تستطيع أن تدبر مقابلة واحدة مع الآنسة وونج ، على ظهر سفينتها .. مرة واحدة فقط ، وأنا أصر على هذا الشرط ! .. اذ أنك تعرضها للخطر اذا أصبحت زائرا مألوفا لسفينة الملذات ، ولا أظن أن هذا ما تسعى اليه .. أما الشرط الثانى ، فهو أن لا تسعى لاطالة اقامتك هناك أكثر من أسبوع واحد .. وثق من أننى لن أزكى أى طلب لك بمد الاقامة ، بل سأكون أول من يحرض بوليس كانتون على اعادتك بالقوة الى هونج كونج .. وفى هذه الحالة ستخسر الالف دولار التى تتقاضاها من شركتنا شهريا !

وأشعل فان لونج سيجارة أخرى ، ونفث دخانها نحو السقف واستطرد قائلا : « والآن ، هب أن مسلكى فى هذا الصدد ضايقك ، وانك فكرت فى الانقلاب علينا والوشاية بنا الى أعدائنا .. وهو طبعا افتراض خيالى جداً ، ولكن لواعج الغرام قد تدفع الانسان أحيانا الى أشد الاعمال نزقا .. وقد تحملك رغبتك فى ملازمة الآنسة وونج ، على شيء من ذلك القبيل . فلنفترض أنك ذهبت الى مدير مكافحة الجاسوسية فى كانتون ، وقلت له أن الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير مجرد مظهر خادع ، يخفى وراءه شبكة للجاسوسية ، وان فان لونج حقير منافق من أعوان الماريشال ، يبث عيونه فى جميع أنحاء كوان تونج .. **أتدرى ما الذى يحدث عندئذ ؟ سيتصل مدير مكافحة الجاسوسية فى كانتون بى تليفونيا ، ليخبرنى بأن أحد رجالى - وهو فرنسى يدعى أرنولد - يشيع صدى أراجيف لا أساس لها من الصحة ، وربما كان ذلك عن موجدة لقلة مرتبه أو لاسباب أخرى مادية !** .. وسأخبرك لماذا سيكون موقف مدير مكافحة الجاسوسية بهذه الصورة .. ذلك لاننى أقدم له - منذ مدة طويلة - معلومات قليلة الاهمية بالنسبة لنا ، ولكنها تكفى لاشعاره باننى أخون فورموزا . وفى مقابل ذلك ، أحصل على تسهيلات كثيرة أظننى فى غنى عن تعدادها لك . فهل فهمت الآن حقيقة موقفى يا سيد أرنولد ؟.. **اننى أتجسس لحساب الماريشال وفى الوقت ذاته ، أوهم الاعداء بأننى أخون الماريشال . وهذه هى أفضل سياسة فى أفضل عالم ممكن !** .. والآن أعود الى موضوعك الخاص يا سيد أرنولد .. انك لن تستطيع أن تقول للسلطات هناك - مثلا - أنك اشتركت فى انزال المخربين بالمظلات ، والا كان معنى ذلك اعدامك فى مدى أربع وعشرين ساعة . ومن هذا يتضح يا سيد أرنولد أن مصالحنا متلازمة ، وهذا كل ما أردت أن أثبته لك ، وان كنت قد نسيت أن

أذكرك بأن عزيزتك الآنسة وونج ستكون أول ضحية لتهورك فى هذه الحالة . وأرجو أن تغفر لى قسوتى الشديدة فى املاء شروطى ، فان أمورا هامة جدا فى كفة الميزان ، وهى أهم فى نظرى بكثير من قضائك بعض الوقت مع امرأة جميلة . اذ أن الآنسة وونج أصبحت من أهم العناصر فى جهازنا السرى ، وهى منذ شهرين - على الخصوص - تقوم لنا بخدمات رائعة ، ببراعة فائقة . وقد كان للمعلومات التى حصلت لنا عليها ، تقدير كبير فى فورموزا . وها أنذا قد صارحتك بكل شىء ، و « لعبت معك على المكشوف » ، لاننى أعتبرك رجلا رصينا ، يقدر الحجج المعقولة . وقد سمحت لك بفرصة الاجتماع بصديقتك مرة واحدة .. وهذا القليل خير من لا شىء ! »

- اننى أقدر صراحتك يا سيد فان لونج ، وأعدك بشرفى أن ألتزم الشرطين اللذين امليتهما على . وسأعود الى هونج كونج بمجرد انتهاء الاسبوع .. وتستطيع بعدها أن تعتمد على جهودى واخلاصى كسابق العهد !

- وما دمنا متفقين يا سيد أرنولد ، فسوف أجهز لك ما يلزمك من أوراق رسمية ، وأرجو أن يتم الحصول على اذن التصريح بالاقامة خلال أسبوع من اليوم ، كى تسافر بصفة رسمية الى كانتون . وهناك تستطيع أن تدبر أمورك مع السيد فان دروتن ، وسيكون قد تلقى تعليماتى ليرسلك بتكليف منه لتركيب مصابيح جديدة جميلة للسفينة التى تديرها السيدة « عطر السماء » !

* * *

• **وانقضت** أربعة أيام بذل فيها فان لونج جهده لاجابة ملتمس فرانسيس . وعلى متن « سفينة الملذات » ، كانت الحياة تمضى على وتيرتها المعهودة . ونينا تقوم بمهمتها

مطمئنة ، وعلاقاتها مع ضباط الحامية على خير ما يرام . وكذلك كانت لؤلؤة التنين وصباح الخير راضيتين كل الرضى .. بل أن صباح الخير كانت أكثر من راضية لان السيد هو وين يو المخيف لم يعد الى السفينة . وفى ذات ليلة قالت صباح الخير لنينا : « لقد توسلت الى السماء أن تخلصنى من هذا الرجل الشرير ، ووعدت الآلهة بنذور جليلة لو أنها استجابت لتوسلاتى ، ولهذا أسألك الاذن لى بالتوجه غداً الى معبد بوذا الاعظم ، كى أفى بهذه النذور » . ومع أن نينا لم تكن تؤمن بهذه الخرافات ، الا أنها لم تشأ أن تخالفها الرأى، فأذنت لها .

وفى المساء ، شاء سوء الحظ أن يقبل الزورق البخارى بأضوائه الحمراء ، وصعد منه السيد هو وين يو برشاقته المعهودة ، وكأنه قط وحشى من قطط سيام . وكانت صباح الخير نائمة فى مخدعها ، فلم تشعر بوصوله . وأسرعت نينا تستقبله بحفاوتها المألوفة وبشاشتها . فجلس بجوارها ، وأشار الى لؤلؤة التنين أن تبتعد . ثم نظر الى نينا وابتسم ابتسامة معسولة ، فتساءلت عما كان يخفيه ـ وراء هذا التلطف المفاجىء ـ اذ كانت تتوجس من أساليبه واغراضه . وأخيرا قال بعد صمت مقصود : « لقد حضرت الليلة ـ يا سيدتى عطر السماء ـ لغرضين : لكى أرى طبعا غزالتنا الصغيرة النافرة ، التى أرجو أن تكون قد خففت من نفورها .. ولكى أبلغك مفاجأة سعيدة تنتظرك » . فتساءلت نينا موجسة ، « ماذا تعنى بذلك يا صاحب السعادة ؟ » . فقال : « لست أملك أن أقول لك أكثر من هذا . ولكنى أستطيع أن أقول لك أنك بعد قليل جدا ستفاجئين بمفاجأة سارة للغاية ! »

ـ أريد أن أعرف مناسبتها ، على الاقل

ـ ليس لى أن أحدد نوعها . بل أن الذى أخبرتك به لم يكن مباحا أن أقوله !

ـ يا صاحب السعادة ، ان كلماتك الغامضة تثير فى نفسى الاضطراب ، لا سيما واننى لا أتوقع شيئا غريبا عن مألوف حيــاتى !

ـ أرجو ألا تلحى فى السؤال ، وقـــد قلت لك ما دفعنى شعورى العميق بالمودة نحوك الى قوله .. والآن ، سيسعدنى أن أشرب كأسا من الكونياك مع الحسناء الصغيرة صباح الخير. فأين هى ؟

فصفقت نينا ، حتى اذا أقبلت لؤلؤة التنين ، ســألتها أن تدعو زميلتها . **وما ان جاءت صباح الخير ووقع نظرها على السيد « هو وين يو » ، حتى ظهر الرعب على وجهها ، وأدركت أن الآلهة قد غررت بها ، أو أصمت أذنيها عن توسلاتها ..**
وباشارة من نينا ، أقبلت فجلست بجوار الضابط ، وكأنهـا عصفور بين مخالب صقر . وبعد ربع ساعة ، قام الضابط مع فريسته الى حجرة النوم . فهمست نينا فى أذن لؤلؤة التنين ، قائلة : « اذهبى معهمـــا . فربما كان فى قربك منهما بعض الحماية للمسكينة ! »

وأطاعت لؤلؤة التنين ، وبقيت نينـا وحـدها على ظهـر السفينة ، فأخذت تقلب فى ذهنها عبارات السيد هو وين يو ، دون أن تفقه كنه المفاجأة السارة التى أشار اليها .. وكانت توجس من الرجل شرا ، فخامرها القلق !

* * *

• **تستغرق** الرحلة بالقطار ـ بين هونج كونج وكانتون ـ ثلاث ساعات ، قضاها فرانسيس جالســا فى الديوان ، كأى مسافر عادى ، ومعه الاوراق اللازمة لتأمين سلامته رسميا . وأخذ صبره ينفد كلما أوغل القطار فى المسير . وشرعت الافكار الخيالية المفرطة فى الغرابة تنفذ الى ذهنــه . ففكر أولا فى قرب ضم فتاته بين أحضانه ، وشكر لفان لونج هذه المنة التى

تدل على مودة واكرام .. ولا بد أن الرجل كان على صـلات قوية بالسلطات – فى كوان تونج – وكانت له عـلاقات سرية مجهولة ، تتيح له الحصول فى مدى خمسة أيام على تصريح بالمرور والاقامة . فقد كان الحصول على مثل هذا التصريح يتطلب – فى الظروف العادية – مدة لا تقل عن ثلاثة أشهر ، مع السعى الحثيث ! .. وفكر فرانسيس كذلك فى موقفـه الذى لم يكن يخلو من طرافة ، على ما فيه من كدر وخطر . فها هو ذا يسافر حاملا أوراقا تحميه من سـلطان بوليس الامن ، وقد صدرت من بوليس الامن نفسه ، وهو الذى كان منـذ اسبوع واحـد يجتاز الحدود خلسة بالليل ، ليقذف بالمهربات ، وبرجال المقاومة السرية ! .. وكانت طائرات الميج الصينية الحمراء تطارده وهو يروغ منها !

وكان من المتفق عليه أن ينتظره السيد فان دروتن فى محطة كانتون . ولم يجد فرانسيس عناء فى التعرف الى ممثل فان لونج ، حين رأى أمامه هولنديا بدينا ، مجعد الشعر ، أحمـر الوجه ، له لحية طويلة كلحية « نبتون » اله البحـر ، وبطن عالية تنم عن حب للطعام والشراب .. وشد فان دروتن على يد فرانسيس ، وكأنه صديق له من أصدقاء الطفولة ، لم يره منذ ذلك الحين ، وقد جمعته به معجزة سماوية . وشـعر فرانسيس بميل فطرى نحو هذا الرجل الذى كانت عينـاه الزرقاوان تومضان فى لمعـان المـاس ، وتنمان عن الصراحة التامة والاستقامة المطلقة .. ودعا الرجـل فرانسيس الى سيارته « البويك » ، التى رفرف على مقدمتها العلم الهولندى ، وكتب على لوحة رقمها عبارة « هيئة سياسية » . ودهش فرانسيس لذلك ، فقال له فان دروتن ضاحكا :

– لقد نسى فان لونج أن يقول لك شيئا خطـيرا .. اننى قنصل هولندا فى كانتـون . ولئن كان الدخـول فى زمرة الدبلوماسيين أمرا غير سار ، الا أن هـذا الوضع لا يخلو من

فوائد ، لا سيما أننى قنصل صينى أكثر من الصينيين أنفسهم ، فلا يستطيعون اللف والدوران معى .. كما أننى أستطيع أن أكيل لهم الصاع صاعين بلغتهم التى أتقنها تماما ، بما فى ذلك دائرة معارف من الشتائم المنتقاة ! **ولقد كانت سياستى دائما – منذ عشرين سنة – ان أكون قنصلا لاية دولة فى أى مكان أحل به ، ولو لجمهورية صغيرة مثل سان سلفادور ، تقرب مساحتها من مساحة مائدة الشاى ! فان لى ثلاثين سنة فى الشرق الاقصى ، وأنا أعرف تماما عقلية هذه البلاد !**

وكان فان دروتن مضيافا كريما ، دعا فرانسيس الى الغداء فى بيته القائم فى الشمال من كانتون .. وهو بيت من الخشب ، أنيق البناء ، رشيق ، تحيط به حديقة أزهار غناء . وقدم لضيفه الويسكى فى قاعة الجلوس الحافلة بتذكارات وتحف من كل مكان ، لا سيما من الهند والهملايا والتبت ، والصين ، والهند الصينية ، وأندونيسيا .. وما لبث الهولندى أن ألح على فرانسيس بأن ينزل فى داره ، فقبل الطيار الدعوة شاكرا . وسرت اليه عدوى اللطف والثرثرة من فان دروتن ، فراح يروى له مغامراته فى بلاد الشرق الاقصى ، وهو يحتسى القهوة . فقال له مضيفه : « وماذا رأيت أنت من آسيا ؟ .. اننى هنا منذ ثلاثين سنة ، فلم أخضع – طوال هذه السنوات – لاغراء العودة – ولو لمرة واحدة – الى أوروبا .. أوروبا المنهوكة ، المكبلة بقيود من اللوائح والقواعد والقوانين . **صدقنى أن ليس بين القارات الخمس سوى قارة واحدة تصلح السكنى ، وتلك هى آسيا ! .. فهى الجدة الكبرى للحضارات الحقيقية ، وليست حضارتها كتلك المدينة الآلية ، التى يتخبط فيها أهل باريس ولندن ونيويورك ..** كلا ! فآسيا عظيمة ، كريمة ، سمحة رائعة .. انها مزيج عجيب من القذارة والفخامة ، ومن الجوع والتخمة ، ومن البذخ

والمسغبة !.. والعجيب من امر آسيا ان اصنام الهتها تمثلهم سمانا بطانا باسمين ، وحياة شعبها ترينا أهلها عجافا محرومين .. انهم قوم غرباء الاطوار ، هموا أن يذبحونى ذات مرة . أتدرى ماذا أنقذنى من هذا المصير الاليم ؟ »

فتساءل فرانسيس : « حصانتك الدبلوماسية ؟ » . فأجاب فان دروتن : « اطلاقا ! .. بل قدرتى على شفاء المرضى ! أجل يا سيدى ! لقد منحتنى الطبيعة سيالا مغناطيسيا أتاح لى أن أنافس السحرة من كهنة المعابد . أنظر الى يدى هاتين ! هذه الكف اليسرى ذات نشاط اشعاعى . أنظر اليها جيدا ... أجل يا صديقى الصغير ، وقعت ذات يوم أسيرا فى ايدى القراصنة ، فساقونى مكبلا فى منطقة مصب نهر اللؤلؤ .. والقرصان أشخاص غاية فى خفة الدم على شاشة السينما ، لا سيما فى الافلام الملونة ، بيد أنهم — فى الواقع — أشخاص فى غاية الرهبة . وكان زعيم الذين أسرونى رجلا يدعى « لى يو » ، أبغضنى بغضا شديدا ، لانى سمين وهو نحيف كأنه هيكل عظمى . **ولما أمر بى أن أشنق فى مدى أربع وعشرين ساعة ، ما لم تدفع الفدية المحددة ، نظرت فى عينيه وقلت له ، وأنا ألوح بسبابتى فى وجهه : « أقتلنى ان شئت ، ولكنك ستموت فى مدى أربعة أشهر ، لان الشيطان الاحمر الاعظم ساكن فى عمودك الفقرى ! » .. وكنت قد لاحظت ان القرصان يعانى « اللمباجو » . فشخص ببصره نحوى فى دهشة بالغة ، وتحسس كليتيه وهو مذهول .** واذ ذاك عرضت عليه صفقة طيبة ، اذ قلت له : « اذا عدلت عن شنقى فى فجر الغد ، فسأطرد الشيطان الاحمر الاعظم من ظهرك ! » . وظهر عليه التردد .. ولكن اللمباجو كان يزعجه منذ عدة أيام ، فقبل الصفقة .. وكان الامر سهلا هينا للغاية ، فقد أرقدت « لى يو » عاريا على لوح خشبى — وقد التف حولى رجاله القراصنة ، وفى عيونهم نظرات الارتياب والوعيد — واستحضرت

كل معلوماتى فى وظائف الاعضاء ، وأعدت احـــدى فقرات العمود الى موضعها بالتدليك ، وأنا أتمتم وكأنى أتلو صـــلاة لرب مجهول ، بينما كنت أنهال بشتائم ـ باللغة الفرنسية ـ على أجداد القرصان الميامين ، ثم ترنمت بأغنيـــة بذيئة من أغانى (مونمارتر) .. كل هذا وأنا مقطب الجبـين ، فى غاية الرهبـة والجد ! .. وما لبثت أن وقفت وأمرت « لى يو » بأن ينهض ، وأنا أضربه على عجيزته بلا احتشام .. فنهض القرصان بلا عناء ، وسار عدة خطوات متشـككا .. وانحنى وانتصب ، فتبين أنه استرد رشاقته المعتـــادة .. ولم يكد يصدق عينيه وحواسه . وتقدم نحوى ، ويداه معقودتان فوق صدره وصاح : « يا صانع المعجزات ! اطمئن ، فحياتك لم تعد معرضة للخطر ، وقد جعلناك سـاحرا خاصـــا لنا ! » .. وأطلق القراصنة الآخرون صيحات الاعجاب الشديد . وظللت بضعة أسابيع مضطرا لعلاج اوجاع هذه العصابة القذرة ، الى أن انتهزت فرصة ، وتسللت فى زورق وعدت الى البر ! »

ونظر فان دروتن فى ساعته وقال : « لقد صـــارت الساعة الآن الثالثة ، فهيا بنا الى مكتبنا ، لان فان لونج قال لى انك ستقوم باصلاح أجهزة الاذاعة الخاصة ببعض كبـــار رجال البلدية . وسأضع بين يديك هذه الاجهزة .. وفى المســاء ، سأحتفل بوصولك ، وأعرفك بخبايا كانتـــون ، وأطوف بك ملاهيها طواف الدوقات ! .. ها ها ! .. انها طوفة بسـفن الازهار .. فقبل ثورة « ماوتسى تونج » ، لم يكن السائحون يحضرون الى كانتون ، الا لكى يزوروا هذه السفن ، أو قل هذه المواخير .. حيث تجد آنســات مسـتعدات للهيام بك نظير خمسة دولارات ، وللتعبد اليـك مقـــابل عشرة دولارات ، وللذهاب معك فورا الى أقاصى الارض مقـــابل مائة دولار ، وللاقامة معك بصفة دائمة وخدمة بيتك نظير ثلاثمائة دولار ! »

* * *

• **وكان** هذا الاقتراح من جانب « فان دروتن » هو خير ما يصبو اليه فرانسيس ، فجعل ينتظر حلول المساء بصبر نافد . وبعد العشاء ، أستأجر فان دروتن زورقا ، وأمر الملاح أن يتوجه الى سفن الازهار الراسية وسط النهر .. وكان الليل صافيا ، ومصابيح آلاف من الزوارق تتلألا فى الظلام ، وتنعكس على صفحة النهر .. وقال القنصل الهولندى للملاح : « الى سفينة « المتعة الخالدة » ، فالخمر هناك طيبة ، ولديهم فتاة اسمها « ياسمين الربيع » ، تحسن لعبة بوذا والديك والنملة ! » ..

واستقبل القنصل على سفينة « المتعة الخالدة » ، وكأنه العم الثرى الذى سيرثه أهلها يوما ، فهم يتمنون رضاه . وكانت أشد الجميع حفاوة به ثلاث فتيات كانتونيات ، كلهن جميلات .. وكن شقيقتين وابنة عم لهما ، هن عماد العمل والنشاط فى هذا الماخور العائم ، فشعر فرانسيس بأنه فى مجتمع عائلى .. ولما قدم الشراب الوطنى المعروف بالساكى ، تحدى فان دروتن الآنسة ياسمين الربيع ، ثم أخذ يشرح لفرانسيس لعبة بوذا والديك والنملة : « أن الابهام هو بوذا ، والسبابة هو الديك ، والخنصر هو النملة . واللاعبان يجلسان مطبقى اليدين . وعند صدور الاشارة ، يبسط كل منهما نحو الآخر أحد هذه الاصابع الثلاثة . فاذا بسطت السبابة ، وأنت بسطت الابهام ، كنت أنت الرابح ، لان بوذا يأكل الديك . أما اذا بسطت أنا خنصرى ، فبسطت أنت الابهام ، فاننى أكسب .. لان النملة تستطيع أن تقرض بوذا ! »

واستمر فان دروتن يلعب هذه اللعبة المملة الساذجة مع ياسمين الربيع ، وابنتا عمها تضحكان .. ولكن فرانسيس لم يجد فيها تسلية ما ، فتمنى لو أن القنصل سئم اللعب ، لينصرفا الى استكمال جولتهما النهرية .. وفى نحو الساعة العاشرة أصدر فان دروتن أشارة الرحيل .. وقال الهولندى

أن زيارتهما – فى هذه المرة – لسفينة « التنهدات » ، فوافق فرانسيس ، وهو يضغط أعصابه . وصعدا معا الى سطح المآخور ، فوجدا المنظر واحدا ، ولكن .. مع مزيد من القذارة . فلم يستطع فرانسيس صبرا ، وقال لمضيفه : « ألم تسمع بسفينة من هذه السفن اسمها سفينة الملذات ؟ »

– **بلى! وهى ملك للعجوز شانج فاى الذى علمت أنه باعها ..**

– لقد امتدحوها لى كثيرا ، وانا فى هونج كونج

واستقلا زورقهما ويمما شطر « سفينة الملذات » ، التى فاقت فى منظرها السفن الاخرى . وكانت مصابيحها تضيىء لافتة حريرية ، عليها كلمات الترحيب بأحرف صينية .. وترامت الى سمعهما ضحكات رقيقة ، وأطراف أحاديث ، وصوت دندنة . فأخذ قلب فرانسيس يخفق بشدة .. ها هو ذا – أخيرا – سيرى حبيبته نينا !

واستقبلت لؤلؤة التنين فى ثوبها الحريرى القرمزى اللون هذين الزائرين . ودهش القنصل العملاق لفخامة السفينة التى كانت تختلف كثيرا فى اناقتها عن سائر السفن ، وكان فرانسيس قد تعلم شيئا من لغة أهل كانتون ، بما يكفى للأحاديث العادية الشائعة . فسأل لؤلؤة التنين قائلا : « أين السيدة عطر السماء ؟ » .. وسأله فان دروتن : « ومن تكون هذه السيدة ؟ » . فكان جوابه : « يبدو أنها السيدة التى تدير هذه السفينة ! » . بينما قالت لؤلؤة التنين : « سأتولى ابلاغها خبر حضوركما ، فهى الآن تجالس ثلاثة من الضباط ومعهم الآنسة صباح الخير ! »

* * *

• **وبعد** لحظات ، ظهرت نينا .. فلما التقت بفرانسيس وجها لوجه ، أبدت قوة خارقة على ضبط أعصابها ، الامر الذى أدهش عشيقها كثيرا .. وحيت الزائرين بكل رزانة

وتهذيب ، ودعتهما للجلوس فى المقاعد الوثيرة . وكان فان دروتن يجهل – بطبيعة الحال – أن عطر السماء تتكلم اللغة الفرنسية ، فمال على فرانسيس وقال بتلك اللغة : « لعمرى أن حوريات هذه السفينة رائعات ! » . ثم راح يثرثر مع لؤلؤة التنين ، بينما وقف فرانسيس وسأل نينا عن الاضواء التى تتراءى على الضفة الاخرى من النهر . وكان هذا السؤال مجرد ذريعة لينسحب بها الى طرف السفينة . حتى اذا صارا هناك قالت له نينا هامسة : « أية معجزة أتت بك الى هنا ؟ »

– أين يمكن أن نتكلم على انفراد ؟

فأدخلته نينا الى مقصورتها . وهناك احتواها فرانسيس بين ذراعيه ، وأخذ يغمرها بالقبلات .. فأجابت قبلاته بحماسة فضحت سرورها العميق به . وجلس فرانسيس على حافة الفراش ، وقال لها بسرعة وبصوت منخفض : « انني لم أستطع أن أعيش أكثر من هذا الوقت فى (هونج كونج) ، وأنا أجهل جهلا تاما ماذا حدث لك . ولهذا رتبت الامور ، بحيث أحضر لزيارتك ، فقد كنت أشعر بشقاء مقيم ! »

– ولكن هذا جنون ! أتدرى مقدار الخطر الذى يحيط بك ؟

– كلا ، اطمئنى ، فقد كان فان لونج من اللطف والكرم بحيث حصل لى على اذن بالدخول والاقامة هنا كمهندس كهربائى يساعد فان دروتن ، ممثل الشركة الاسيوية للاستيراد والتصدير فى كانتون . وقد سمح لى بالحضور لزيارتك مرة واحدة . ولكن زيارة هذا المساء لا تدخل فى الحساب ، لان فان دروتن نفسه هو الذى دعانى لقضاء السهرة فى المرور على سفن الازهار !

فقالت نينا منزعجة : « لكنك تلعب بالنار يا فرانسيس ، يا حبيبى ، فان سفينتى يتردد عليها العسكريون وبوليس الامن يرقبنى عن كثب ! » . ولكن فرانسيس طمأنها قائلا :

« أن جميع أوراقى مستوفاة فلا تخافى يا يمامتى الصغيرة ! .. والآن أريد أن أقضى معك ليلة على ظهر السفينة ! » . فتساءلت : « متى ؟ » . وأجاب : « فى أى وقت ترينه مناسبا » .

ــ يوم الاربعاء اذن .

ــ وفى أية ساعة ؟

ــ ليس قبل الساعة الواحدة صباحا . وسأدبر الامر بحيث ينصرف الزوار قبل ذلك الوقت . وأين نقيم الآن ؟

ــ لدى القنصل فان دروتن . والحقيقة أن حظى من السماء . فهو مضيف ساحر كريم !

ــ لا تطل المكث الآن معى !

وضمها الى صدره ، وسألها : « ألست سعيدة بهذه المفاجأة ؟ »

ــ بل انى فى غاية الذهول حتى الآن .. وأوصيك بالحذر .. الا تعلم ما حدث لشياو ، الذى كان يعبر الحدود برسائلنا السرية ؟ .. لقد قبضوا عليه وعذبوه . واعتقدت انه سيبوح لهم بالاسماء ، ولكنه كان من الشجاعة بحيث انتحر حتى لا يضعف ويتكلم بما يعرفه .. فاحذر ، فنحن هنا تحت رحمة أقل هفوة !

وتبادلا قبلة طويلة فى القمرة المظلمة ، ثم صعدا الى سطح السفينة ، حيث كان فان دروتن يروى للؤلؤة التنين حكاياته المضحكة .. وانصرف الزائران متجهين الى كانتون . وكان فرانسيس يجلس فى الزورق مفكرا مطرقا ، وفان دروتن ينظر اليه باسما .. وفجأة ضرب فرانسيس على ظهره ، وصاح : « ماذا بك ؟ .. انك تبدو ساهما ! » . فقال فرانسيس : « لا شىء ، انما كنت أفكر فى هذه السيدة اللطيفة ! » . ولكن الهولندى قال : « أراهن أنك تعانى الوجد والهيام بالحسناء عطر السماء ؟ .. ومن حسن حظك يا عزيزى أنك ستقوم بتركيب أجهزة جديدة للاضاءة فى هذه السفينة .. وأنت شاب جميل ، فانتهز هذه الفرصة واستمتع ، فالحياة قصيرة ، والابدية طويلة جدا ومملة ! »



الفصل الثانى عشر

السيدة «عطر السماء» ليست .. للبيع !

• لم يشعر فرانسيس باستطالة أمد نهار ، كما شعر بطول ذلك النهار من يوم الاربعاء .. وكان - فى فترة الصباح - قد فحص جهاز الاستقبال الاذاعى الخاص بموظف كبير فى بلدية المدينة ، ثم تغدى مع مضيفه ، واستطاب مرة أخرى كرم هذا الرجل ومرحه العظيم .. ولو أنه كان فى ظروف أخرى - أقل ارهاقا للاعصاب - لاسلم نفسه للذة الحياة وسرورها لدى هذا النديم اللطيف الروح .. وعند تقديم الحلوى ، أخذ القنصل يداعب ضيفه حول مغامرته - التى كان موعدها تلك الليلة - قائلا : « آه . آه ! .. أهكذا تخطف - على أسنة الرماح - حوريات كانتون ؟ تهنئتى الحارة لك أيها الصديق العزيز ، على نجاحك السريع ، المكتسح ! .. فلقد خبرت هؤلاء الصينيات الصغيرات القدود البديعات الحسن ، عشرين عاما .. وكنت - أثناء اقامتى فى (بيبنج) - استبقى فى متناولى جيشا كاملا منهن ، بحكم الضرورة لا الترف ! .. فان هؤلاء الراقصات - من فتيات الملاهى والمواخير - من أكثر

نســاء العالم تقلبــا ونزقا ، حتى أنك لا تدرى فى أية لحظــة ستتسلل الواحدة منهن من بين أحضانك كالزئبق .. فلا بد من أن يكون لديك « احتياطى » كاف لمواجهة هذه المواقف ! **ان الواحدة منهن تعطيك موعداً فى الساعة السادسة ، ثم تصل ناضرة مشرقة فى الساعة العاشرة . فلا بد أن تكون تحت يدى أخرى لملء هــذا الفراغ بدلا من الانتظار الممل !..** واذا غلى دمك وثرت على احداهن لهذا التكاسل المزعج ، ابتسمت فى اشراق خلاب ، وقالت لك وهى تهز كتفيها برشاقة مثيرة : « مى يو فاتسى ! » .. ومعناها بالصينية الفصحى « لا حيلة لى فى ذلك ! » .. **ومن ثم ترانى مبهوتا لاسراع السيدة عطر السماء الى إجابة رغبتك فى امضاء ليلة معها ! »**

وانفجر القنصل مقهقها ثم استطرد : « لا بد أن لديك حيلا رائعة لا تخيب مع النساء ... ! يا لهؤلاء الفرنسيين ! » .

فقال فرانسيس بتواضع : « بل أننى أشد دهشة منك لهذه النتيجة الباهرة ! »

وبعد العشــاء اســتأذن فرانسيس مضيفه ، وذهب الى رصيف الضفة اليسرى ، حيث استأجر زورقا . وكان قد عرف الآن كيف يسير الزورق متسللا بين سفن الازهار الكثيرة .. ولبث ينتظر بفارغ الصبر الاشارة المتفق عليها بينه وبين « نينا » ، عندما يغادر آخر زائر « سفينة الملذات » .. وما أن آوت لؤلؤة التنين وصباح الخير الى قمرتهما ، حتى لوحت « نينا » بمصباح من نافذة قمرتها . فقفز فرانسيس برشاقة من زورقه الى ظهر الســـفينة الخالى المعتم ، واحتواها بين ذراعيه !

* * *

• وفى القمرة المظلمة المعطرة ، أسكرته لذة السعادة التى نعم بها . فقد ظل ثلاثة شهور يتوق الى هذه الدقائق السحرية

.. وراحا يتهامسان بصوت ناعم خفيض ، ونينا تداعب جبين حبيبها الذى دفنه مستكينا مستطيبا دفء صدرها الناعم الغض المعطر.. وفجأة قالت له : « حبيبى، أريد أن أقول لك شيئا يقلق خاطرى .. لقد زارنى – قبل وصولك المفاجىء الى كانتون – السيد هو وين يو .. **انه مساعد حكمدار بوليس الأمن هنا .. وكانت السيدة ينج نينج قد حرصت على أن تقدمنى اليه قبل أن أمارس أعمالى هنا .. وكانت حصيفة حقا فى ارضاء الرجل الذى سيكون رقيبا رسميا وسريا علينا . وقد عرضت عليه السيدة أوراقى المزورة التى كانت أشد اتقانا من أية أوراق أصلية ، فأظهر اغتباطا لحسن اختيارها ، واعتبرنى أهلا للثقة .** ثم أكثر من التردد علينا ، لانه أغرم بالصغيرة المسماة « صباح الخير » .. ولكن الذى يدهشنى حقا أنه حضر ذلك اليوم ، وأخبرنى – وهو يسيل رقة وظرفا – بأن مفاجأة سعيدة جدا فى انتظارى عما قريب !»

– ألم يحدد لك نوع هذه المفاجأة ؟

– كلا ، بل ظل متكتما ، يزعم أنه لا يملك أن يوضح لى أكثر من ذلك .. وبعد ثلاثة أيام ، تمثلت أمامى هذه المفاجأة فى شخصك .. فما رأيك فى ذلك ؟

– انه لغز يعجز عن حله عقلى يا نينا . فأنا أعرف أن فان لونج قام بالمساعى اللازمة للحصول من بوليس كانتون على التصريح اللازم لحضورى واقامتى هنا أسبوعا . **ولكنه كان حريصا – كما تعهدينه – على الا يخبرهم أن المهندس خبير الكهرباء ، الذى سيساعد فان دروتن ، هو – فى الوقت ذاته – عشيق السيدة « عطر السماء » ! وطبعا من باب أولى لم يقل لهم أنه ينوى زيارتها !**

– اذن ، فلست أنت « المفاجأة السارة » التى عناها !

– **بالطبع لا .. فهذا غير معقول !**

– انه موضوع محير ومزعج لى ! .. هل مررت على

البوليس للتحرى عنك ، يوم حضورك الى كانتون ؟

ــ ذهب معى القنصل الى مكتب البوليس ، وقلبوا أوراقى ، ثم ختموها بما يفيد الاطلاع والموافقة .. وهذا كل شيء !

ــ انى عاجزة عن فهم الموقف .. فما حضر الثعلب الماكر « هو وين يو » ليقول لى ذلك الكلام عبثا .. لا بد أن لديه سببا معقولا ! .. هل تعقبك أحد وأنت سائر فى المدينة ؟

ــ أنا واثق ان أحــدا لم يتعقبنى . فأنا أعمل هنا جهارا لحساب السيد فان دروتن .. بل اننى ذهبت الى دار موظف كبير فى البلدية فأصلحت له المذياع .. ولا أعتقد أن أحــدا يرتاب فى !

وظلت نينا ساهمة .. وفى نحو الساعة الثالثة صباحا ، أيقظت فرانسيس من اغفاءة انتابته ، وقالت له : « يجب أن تعود الآن الى كانتون ! » . فتساءل : « ولماذا ؟ نحن هنا معا فى غاية السعادة ! » .. فهتفت فى ضراعة : « أرجوك يا حبيبى! فما من أحد يمضى الليل طوله هنا . ولو اكتشف أنك أطلت المكث لثارت الشكوك ! » .. وأذعن فرانسيس فى النهاية لحجج نينا ، واقتنع بأن من مصلحته الخاصة ألا يجازف دون طائل . فودعها ، ثم هبط الى زورقه ويمم شطر الضفة اليسرى للنهر!

* * *

● **وجفا** النوم عينى فرانسيس حين أوى الى فراشــه ، فى حجرة الضيوف بمنزل القنصل فان دروتن ، فان الموضوع الذى صارحته به نينا أقض مضــجعه . ومع أنه حاول فى اللحظة الاخيرة أن يطمئنها ، الا أنه شخصيا لم يكن مطمئنا . اذ أنه لم يستطع أن يصدق وجــود تلك الطيبة التى دفعت مساعد حكمدار بوليس الامن الى تجشم عناء الذهاب اليها ليخبرها بأن مفاجأة سارة ستحدث لها !.. **وتبادر الى ذهنه ، أن مساعد الحكمدار انما قال لها ذلك ، ليحملها على ملازمة**

السفينة .. واذا كان الامر كذلك ، فان أول واجبات الحرص تفرض على نينا أن تختفى بأسرع وقت من هذا المكان ... ولكن كيف ؟

وفكر فرانسيس فى السيدة ينج نينج .. لم يكن ثمة شك فى أنها تنتمى الى شبكة الجاسوسية التى يرأسها فان لونج . وقرر فرانسيس أن يحاول من هذه الناحية انقاذ صاحبته أو مساعدتها . فاذا أتضح أن هناك خطرا عليها ، فعليه أن يجبرها على الفرار .. لذلك تظاهر فرانسيس ـ بعد العشاء ـ بالمزاح مع فان دروتن ، الذى كان يعاتبه متندرا بمغامرة الامس ، فقال له فرانسيس : « أوكد لك أن السيدة « عطر السماء » قد تركت فى نفسى أثرا لن أنساه ! » . فهتف الرجل : « أحقا ؟ .. ظننتك محصنا ضد هذه الصواعق ! »

ـ وما حيلة الرجل وهو ضعيف أمام الحب ! وما دمت يا سيدى فان دروتن تعرف أسرار المدينة وشخصياتها ، وعادات الصينيين . فسأستشيرك فى مسألة هامة :

ـ اننى مصغ اليك ايها الصديق العزيز ...

ـ لنفترض أنك افتتنت باحدى فتيات أو سيدات نهر اللؤلؤ ، حتى انك قررت اختطافها ... فماذا تصنع ؟

ـ أوه ! .. ان الامر سهل جدا ، فهناك تقاليد مرعية فى هذا الصدد : لو اننى كنت فى مكانك ، لذهبت الى القوادة العجوز التى ترعى شئون هذه السيدة الحسناء ، لاساومها فى التخلى لى عنها .. هذه هى الاصول المرعية فى الصين منذ ألفى سنة !

ـ جميل جدا .. ولنفرض أن هذه الحسناء هى مديرة « سفينة الملذات » !

ـ وهذا أسهل وأسهل ! فان قوادتها هى السيدة ينج نينج التى تعرفها كانتون بأسرها . وهى تسكن ضاحية شامين ، ويستطيع أى شخص أن يدلك على بيتها !

وقطع القنصل سيجارا ضخما بخنجر فارسى ، ثم أشعله بتلذذ ، وصاح : « انك يا سيد أرنولد آخر شخص كنت أتوقع أن يحدث له هذا ، فقد ذهبت الى هذه السفن مرارا مع السائحين الاجانب الذين يمرون بالمدينة ، فما من واحد منهم خطر له أن يتخذ له محظية من هؤلاء الفتيات سواك ! .. ولكنى لا أريد أن أمنعك من ذلك ، بل أتمنى لك أن تحظى وبنعيم الفردوس بين أحضان عطر السماء ! »

وبعد ساعة كان فرانسيس يجتاز الجسر الصغير الذى يفصل ضاحية شامين عن كانتون ، ثم طرق باب منزل السيدة ينج نينج ، ففتحت له الباب أمتها العجوز ، ونظرت اليه نظرة ارتياب . وادهشها ان ترى هذا الاوروبى يدخل البيت بجرأة . فأسرعت الى حجرة سيدتها ينج نينج . ووجدتها تدخن غليونا نحاسيا ، فقالت لها : « سيدتى ! .. لقد حضر رجل غريب وطلب مقابلتك . انه شيطان أجنبى يتكلم لغتنا بصعوبة ، وقد ذكر فى كلامه اسم السيدة عطر السماء ! » .. فنهضت السيدة من مكانها ، وهتفت : « عطر السماء ؟ ! »

وأمرتها بأن تقود الزائر الى حجرتها .. ولم يضيع فرانسيس وقتا ، فسرعان ما طرق موضوعه مباشرة ، فى خليط من لغة أهل كانتون واللغة الانجليزية : « أيتها السيدة الجليلة ينج نينج . لقد حضرت لاسألك مكرمة .. هى أن تساعدينى فى تحقيق رغبة عزيزة على نفسى ، وستجدينها - ولا شك - رغبة طبيعية للغاية ! .. اننى راغب فى شراء السيدة عطر السماء ! »

ولاحت على وجه العجوز المتغضن ابتسامة باهتة ، ثم رفعت يديها الشاحبتين وقالت ببساطة : « آه ! .. لا أستطيع ! » . فعاد فرانسيس يلح عليها قائلا : « لقد ذهبت أمس الى « سفينة الملذات » ، وشاهدت بنفسى السيدة « عطر السماء » ، فوجدتها امرأة جميلة جدا . وهى فى نظرى تستحق

حياة أفضل من هذه الحياة التى تحياها هناك . ولهذا فأنا مصمم على شرائها ! »

وعقدت العجوز يديها على صدرها وارتسمت ابتسامتها الشاحبة على وجهها المتغضن وهى تقول له مرة اخرى : « لا أستطيع ! .. ولا حيلة فى ذلك ! » . فقال : « تذكرى أيتها السيدة الجليلة ينج نينج ، أننى مستعد لشراء السيدة المذكورة بثمن غال .. سأشترى السيدة عطر السماء بأى مبلغ تحددينه أنت » . فصاحت : « ولكن السيدة عطر السماء ليست للبيع ! »

– ربما غيرت رأيك نظير مبلغ كبير من الدولارات الامريكية . فانى أحسب أنك وحدك التى تملكين تقرير تلك المسألة .

– كلا . فهى راضية عن العمل الذى تقوم به فوق السفينة ، وليست لديها أية رغبة فى الرحيل !



فأخرج فرانسيس حافظة نقوده من جيبه ، وهزت السيدة ينج نينج رأسها قائلة : « كلا ، كلا .. قلت لك أن هذا غير ممكن ؟ » . وقرب فرانسيس حافظة نقوده من وجه السيدة ينج نينج ، ثم قرب مقعده منها ، وقال لها بصوت منخفض : « اننى من أصدقاء السيد فان لونج » .

وتوقع أن يرى فى عينيها نظرة تدل على الفهم . بيد أن وجه العجوز ظل جامدا لم يعتوره تغير ، وقالت : « عفوا .. من ؟ » .

فقـــال : « السيد فان تونج ، من هونج كونج » . وأجابته فى هدوء : « لست أعرفه ! »

وكان فرانسيس واثقا من أنها تكذب ، فحاول مرة أخرى أن يثنيها عن موقفها : « اننى من أقرب أصدقائه اليه ، وأخلص معاونيه ! » . ولكنها قالت باصرار : « لم أسمع فى حياتى بهذا الاسم » . فقال : « ولكن السيدة عطر السماء تعرفه جيدا » .. ومع ذلك فقدظلت السيدة على تجاهلها : « جائز جدا .. ولكنى لا اعرفه ! » .. ولجأ الى حيلة اخرى .. وكانت نينا قد ذكرت له أثناء الليـل قصتها مع السيد شـيـاو ، فحاول فرانسيس أن يزعزع ينج نينج ، مستخدما هذا الاسم : « لن تستطيعى أن تتجاهلى ـ مع ذلك ـ اسم السيد شياو ! » .. فتساءلت : « من ؟ » . وعاد يكرر : « السيد شياو »

ـ لست أدرى عمن تريد أن تتكلم .

وبدأ فرانسيس يشـعر باليأس . فمما لا شـك فيه أن القوادة الماكرة كانت تتشبث بالحذر ، وتأبى أن تتورط مع مجهـول يذكر لها ذلك الاسم . فأطاق رصاصـته الاخيرة قائلا : « لقد جئت أقترح عليك شراء السيدة « عطر السماء » ، سعيا وراء مصلحتها الخاصة . فأنت تجهلين يقينا أنها تلقت أخيرا زيارة من السيد هو وين يو ، الذى بشرها بمفاجأة سارة قريبا . وأنا أيتها السيدة الجليلة ينج نينج أخشى كثيرا على السيدة « عطر السماء » من هذه المفاجأة السارة ، لانها وردت على لسان ذلك الضابط . وأعتقد أن سلامتها فى خطر . وأن كنت لا أدرى كيف .. والآن ، هلا ساعدتنى على انقاذها قبل ان يفوت الوقت ؟ .. سـيكون لك أجر كبير على هذا ، اذا نجحت فى اقناعهـا بعدم البقاء فى « سفينة الملذات » ، فانى واثق من أنها لن تترك عملها هناك ، ما لم تأمريها أنت بذلك أمرا صريحا ! »

وكانت السـيدة ينج نينج تصـغى باهتمام عظيم الى

فرانسيس ، فان جهلها بالدور الحقيقى لفرانسيس فى شبكة جواسيس فان لونج ، جعلها على حذر . كما أن المعلومات التى ألقاها على سمعها ، كانت سببا فى قلقها على نينا .. وبدهاء الشرقيات ، قالت العجوز له ما كان يخشاه : « لقد قلت يا سيدى أنك صديق السيد فان لونج فى هونج كونج ، فقلت لك أننى لا أعرف هذا الاسم .. ولكنك ذكرت أن السيدة عطر السماء تعرفه أيضا . **فان كان هذا الرجل الغامض معروفا لك ولها ، وهو صديق مخلص كما تقول ، فلماذا لا تلجأ اليه ؟ .. ولماذا لا تتصل السيدة عطر السماء بذلك الرجل كى تطلب اليه النصح والمساعدة ؟** أما أنا يا سيدى ، فلن أزج بنفسى فى أمور البوليس والعلاقات التى بين الضباط والسيدات ! »

ولم تكن هناك فائدة من الالحاح ، فنهض فرانسيس واستأذن فى الانصراف ، وهو يشعر بخيبة الامل !

* * *

• **واذ** عاد فرانسيس الى منزل فان دروتن ، وجد مضيفه يحتسى كوبا من عصير الليمون المثلج ، فى حديقته الصغيرة . وحياه الهولندى قائلا : « مرحبا بقناص القلوب ! .. لقد ذهبت لزيارة القوادة العجوز فى شامين ، فهل أفلحت فى عقد الصفقة ؟ » .. ولكن فرانسيس أجاب فى أسى : « قالت لى ان هذا مستحيل ! »

ــ هذا يدهشنى جدا ، لان تلك العجوز لا يمكن أن ترفض صفقة رابحة .. فهى تحب المال حبا جما !

ولم يستطع فرانسيس أن يكشف للقنصل جميع ما لديه من المعلومات . واكتفى بأن هز كتفيه وقال كالمستكين ، وهو يقول : « لا بأس ! .. سأنشد السلوان فى مكان آخر ! » ..

وكان لدى فان دروتن وسيلة عاجلة للسلوى .. اذ كان قد دعى الى حفلة ، عشاء أقامها رئيس أركان حرب الجيش الثالث ،

فى أفخم مطعم بالمدينة ، فاستأذن ليصطحب فرانسيس اليها .
وفى الساعة السابعة ، وقفت سيارة القنصل « البويك » أمام مطعم « يو ينج » ، عند ناصية شارع الفأر الصغير . وكانت قاعة المطعم فى الطابق الاول .. وهى قاعة طويلة ، زينت للمناسبة السعيدة باعلام الجمهورية الصينية الشعبية ، وبصورة ضخمة للرئيس ماوتسى تونج . وبدلا من الموائد الطويلة ، التى تستخدم فى المآدب الاوروبية ، جلس المدعوون الى موائد صغيرة، مستطيلة ، غرست فوقها أعلام صغيرة .. ووجد فرانسيس والقنصل نحو ثلاثين ضابطا من جميع الرتب ، قد بكروا بالحضور ، وراحوا يدخنون ويتحدثون ويضحكون بصوت عال . ونهض الكولونيل تاى تشن لتحية القنصل وصديقه الفرنسى ، وأرشدهما من بعيد الى مائدتهما .. وأقبل فان دروتن يحيى رجلين أوروبيين كان يعرفهما ، وقدم اليهما فرانسيس . وكان أحدهما هو « هاريسون » ـ المهندس الانجليزى الذى يتعاون مع بلدية كانتون فى مشروع بناء أحد جسور السكك الحديدية ـ أما الآخر فهو « بوريس » .. مستشار فنى أوفدته موسكو لبحث الاحوال المائية فى ذلك الاقليم . وكان المرح يسود بين الاوروبيين البيض ، بالرغم من اختلاف معسكراتهم السياسية !

وجذب القنصل بوريس من ذراعه ، وسأله : « قل لى أيها الرفيق ، لماذا أقيمت هذه المأدبة ؟ » . فأجابه المستشار : «كيف ؟ ألا تعرف ؟ .. انها أقيمت احتفاء بوصول الجنرال الجديد الى كانتون ، ليتولى قيادة الجيش الثالث من المشاة »

ـ هذا جميل . ويجب أن تكون الانخاب كثيرة .

وضحك الروسى .. وكانت الحفلة فى هذه اللحظة قد وصلت الى ذروتها، وقد أجتمع فيها بضع عشرات من الضباط ـ من جميع الرتب ـ وبضع عشرات من المدنيين البارزين فى (كانتون) . وفجأة ، برز الكولونيل تاى تشن ، وصاح بصوت

جهورى : « أيها السادة ! لى عظيم الشرف أن أعلن لكم وصول قائدنا الجديد .. والآن .. انتباه ! »

فوقف الجميع ثابتين ، ثم ظهر رجل بدين يرتدى الثياب العسكرية ، وعليها علامات رتبة الجنرال . وكان رأسه عاريا أصلع ، كأنه بيضة .. كما كانت ساقاه نحيلتين تكادان تعجزان عن حمل جسمه الممتلىء . وكان وجهه سمينا لامعا ، وحاجباه يتقصدان عرقا ، رغم غزارة شعرهما ، فكأنهما قطعتان من فرش تنظيف الاظافر !.. ورد الجنرال التحية للحاضرين . وانقطع الصمت ، فاستأنف الجميع أحاديثهم والتفت القنصل نحو هاريسون ، وسأله : « من هو هذا الجنرال ؟ .. من أين أتى ؟ » . فقال هاريسون : « لست ادرى يا عزيزى . سل بوريس ! » .. ونظر هذا الى ضيف الشرف فى المأدبة ، ثم قال : **« انتظروا انتظروا ! .. ان هذا الجسم البدين يذكرنى بشىء .. بشخص .. فى مكان ما . ! سأتذكره .. عجبا ! لا أدرى ما الذى دهى ذاكرتى ؟! .. آه ، أجل .. انه الجنرال كيانج تو ! »** . **فاعترض هاريسون قائلا « مستحيل ، فقد أذيع موته منذ سنتين أو ثلاث »** .

ــ ولكننى أؤكد لك أنه هو .. ويبدو لى ان هناك أمواتا ليسوا أمواتا مائة فى المائة !

الفصل الثالث عشر

ميت بين الاموات

• **كان** الضيوف جالسين حول الموائد .. وبدأ العشاء الصينى الطويل ، المكون من ثلاثين لونا مختلفا . وكان ضجيج القوم يصم الآذان .. والقنصل الهولندى فى غاية



الانسجام ، كأنه تلميذ انطلق فى أجازة ، وراح يروى آخر النوادر والنكات للانجليزى هاريسون ، والرفيق بوريس ينافسه فى رواية النكات والقهقهة!

أما فرانسيس ، فلم يكد يصيب من الطعام شيئا ، لان اسما معينا كان يطن فى رأسه طول الوقت ، وهو : « كيانج تاو .. كيانج تاو .. كيانج تاو ! » . وكان من المستحيل عليه أن يصدق أن هذا الاسم ، هو الذى ذكرته له نينا عندما قالت له فى (هونج كونج) أنها ستقوم بتمثيل المحظية الاولى لجنرال قتل فى الجبهة الكورية !.. وكان فرنسيس يتذكر جيدا ان اسم ذلك الجنرال ينتهى بلفظ «آو» ، ولكن ما أكثر الاسماء التى تنتهى فى اللغة الصينية بلفظ « آو » ، فيجعل ذلك الشك يثقل على نفسه ويكاد يخنقه ويفسد عليه استمتاعه !

وراح فرانسيس يختلس النظرات فى اتجاه المائدة الرئيسية ، حيث كان الجنرال البدين يتكلم باستمرار ، وهو جالس بين رئيس اركان حربه وكولونيل فى الطيران .. وكان يتساءل – طول الوقت – فى قلق متزايد : « أتراه هو الرجل الذى كان فيما مضى مولى لعطر السماء ؟.. لو أن ذلك كان صحيحا لكانت كارثة لا مفر منها ! » .. وفجأة ، تصبب فرانسيس عرقا باردا ، **لانه ربط بين هذه الفكرة وبين المفاجأة السارة الغامضة التى بشرت بها نينا ، على لسان مساعد حكمدار**

بوليس الامن . فلا شك ان هذه المفاجأة السارة هى العودة المفاجئة لمولاها الذى كانت مدلهة بحبه .

وكان القنصل ينظر - بين الحين والحين - الى جاره الفرنسى ، ويقول له : « انك لا تبدو على ما يرام يا صديقى !» . فتعلل بأنه كان يعانى صداعا حادا .. وتحول الهولندى يحدثه عن الطعام الصينى ، فكاد فرانسيس أن ينطلق باكيا متضرعا الى فان دروتن أن يكف عن هذا الحديث ، فقد كان القلق يعذبه ، والحيرة تضنيه !

وكانت المأدبة التى بدأت فى السابعة ، قد سلخت ثلاث ساعات ، توالت خلالها الاطباق العجيبة طبقا بعد طبق .. وفجأة نهض الكولونيل « تاى تشن » ، وأعلن أن صاحب السعادة سيلقى كلمة . فساد الصمت التام أرجاء القاعة ، واختفى الخدم منها كما تختفى الفيران مذعورة عند ظهور القط الضخم .. وتكلم الجنرال بلغة صينية فصحى ، فقال: « أيها السادة ! أنكم ترون أمامكم الليلة ميتا نفض الاكفان ، وعاد اليكم من بين الموتى ! .. وهذا صحيح حتى اننى حين أتطلع الى وجهى فى المرآة ، أخال أننى أرى شبحا . **وانى أعترف لكم أن عظامى كانت خليقة - فى هذه اللحظة - بأن تكون قد أصبحت رمادا تذروه الرياح فى سهول كوريا الشمالية المثلوجة لولا رعاية الارواح الطيبة .** والذين خدموا منكم فى منطقة (بيبنج) قد يذكرون أن الحكومة - فى اثناء الحرب الاخيرة - كلفتنى بأن أكون الخبير الفنى فى المصفحات ، فى جيش الجنرال «تام» ، فى اقليم (يم هوا) ، جنوبى خط عرض ١٧ .. ثم حدث هجوم من طيران الاعداء ، امطرنا بقنابل كالسيل المنهمر . وكنت فى خط النار الامامى ، فى موقع للمراقبة ، ومعى فصيلة من الرماة . واندلعت الحرائق والانفجارات . ونسف الموقع بالقنابل الحارقة - على ما علمت فيما بعد - فطرنا فى الهواء ، واحترقت ثيابنا وأجسامنا . واعتقد

الكوريون الشماليون أننا متنا ، فتركونا منسحبين من ذلك القطاع .

« وكان جرحى شديدا بالغا . ولكن ناقلى الموتى من الامريكيين - فى ذلك القطاع - عثروا على بعد اثنتى عشرة ساعة ، فاذا هم أمام رجل عار ، محترق ، ثلاثة أرباع ميت ، وليس هناك ما يدل على شخصيته ، ومن المرجح أن يموت فى تلك الليلة .. ولكن روحا كريما كان يشملنى بعنايته ، كما قلت لكم ، فنقلونى الى المؤخرة . ويجب ان اعترف بأنهم عالجونى بعناية وصبر ، ثم نقلونى الى المستشفى العسكرى الكبير فى طوكيو .. **وأرجو ان تتذكروا - أيها السادة - أن الصدمة العصبية الناتجة عن الانفجار والحروق والجروح ، كانت قد أفقدتنى الذاكرة فقدانا تاما ، فلم أستطع أن أدلى بشىء يكشف عن شخصيتى فان كل حياتى - قبل الانفجار - محيت تماما من ذاكرتى . ولم يبق لى الا فهم لغتنا ، من غير معلومات شخصية !..** وقد ظللت عامين تحت ملاحظة الاطباء اليابانيين الذين اهتموا اهتماما عظيما بحالتى . وأجروا على بحوثا وتجارب كثيرة ، بقصد اعادة ذاكرتى . ولكن شيئا لم يفلح فى اثارة شىء فى ذاكرتى الخامدة . وأخيرا ، أدركهم السأم فقرروا اعادتى الى (بيبنج) ، لكى تتولى شأنى الادارة الطبية فى الجيش الصينى .. وعندما نزلت الى أرض أجدادى ، لم أتذكر شيئا ، فنقلونى الى المستشفى العسكرى فى (بيبنج) ، باعتبارى جنديا صينيا بغير اسم ، محيت من ذهنه جميع آثار اربعين عاما من عمره . **ووضعونى مع الجرحى من عامة الجند ، لان أحدا لم يخطر بباله أننى جنرال ، ولا سيما بعد أن أذيع أن الجنرال « كيانج تاو » قد استشهد !**

« وذات يوم ، كنت جالسا متضجرا - مع خمسين مريضا آخرين - فى بهو المستشفى ، واذا برجل يدخل . وكان شيخا أبيض اللحية من علماء العهد البائد ، وهو شاعر له آثار

جليلة . وكان قد حضر لزيارة ابن أخت له ، فمر من أمام سريرى ، ووقف وقد بدت عليه دهشة بالغة ، ثم صاح : « سيدى الجنرال !.. بأية معجزة من السماء أنت على قيد الحياة ؟ لقد ظننا جميعا أن المنون استأثرت بك براثنه ! » .

وظن الممرضون ان الشيخ قد اختبل ، ولكنه أصر على استدعاء كبير الاطباء . فلما حضر هذا أشار الشيخ نحوى وصاح :

ـ أيها الكولونيل ، ألا تعرف من هذا ؟.. انه الجنرال كيانج تاو !

ـ انك واهم أ .. هذا جندى مسكين فقد ذاكرته وقد عجزنا عن علاجه .

ـ لست واهما يا كولونيل ، فقد عرفت هذا الجنرال منذ كان فى العشرين من عمره .. وقد تعلم على يدى نظم الشعر أ

« وازاء الحاح الشاعر الشيخ ، استدعى أخى ـ الذى كان يعيش عندئذ فى مدينة تين تسن ـ واستدعوا أيضا ضباطا كانوا قد خدموا معى فى الجبهة الكورية ، فاتفقت كلمة الجميع على أننى الجنرال كيانج تاو !.. وكنت أنا وحدى الذى أجهل ذلك !.. حتى اسمى القديم لم يكن يعنى فى نظرى شيئا . فخطر لكبير الاطباء عندئذ ان يأخذنى الى حى هونونج فى بيبنج . وكان لى هناك ـ فيما مضى ـ بيت .. وكانت أرملتى قد اختفت منذ زمن طويل ، واعتزلت العالم فى دير بعيد . أما محظياتى ، فقد تشتتن فى أرجاء الصين .. وبناء على نصيحة الطبيب أعدوا لى تمثيلية متقنة ، فصعدوا بى الى الطابق الاول ، حيث كانت حجرة نومى .. وكان السلم معتما ، والحجرة مضاءة بنور قوى ينبعث من وراء بابها المقفل . وكان الطبيب قد ثبت وتدا وراء الباب ، بحيث اصطدم به عندما أفتحه . فلما اصطدمت وقعت وارتطم رأسى وأصابنى دوار دام لحظات قليلة . ثم أخذت أحملق فى تفاصيل تلك الحجرة . وفجأة شعرت بأغرب ما يمكن أن يشعر به انسان .. وتصوروا

أنكم أمام منظر رائع فوق قمة جبل ، وأن غمامة سوداء تحجب عنكم ذلك الافق، ثم اذا بسيف خفي يشق تلك الغمامة فجأة، فتنجاب ، وتبدو لكم المنطقة كلها مكشوفة بجبالها وغاباتها وسهولها وبحيراتها !.. **هذا بالضبط هو ما حدث لى . فقد أخذت الذكريات تقفز من كل جانب، وكأنها تتزاحم وتتدافع! .. وهكذا أيها السادة استطاع ان يعود الى شرف الخدمة ذلك الذى مات فى كوريا ، وفقد ذاكرته فى طوكيو ، وأسعده الحظ بقيادتكم فى كانتون !))**

ودوى التصفيق الحاد للجنرال الذى استطرد قائلا :

((وأحب أن أضيف ـ أيها السادة ـ اننى فخور وسعيد بأن أكون على رأس الجيش الثالث، الذى سيكون ـ كما تعلمون ـ فى المقدمة ، حين يدق الناقوس ، ويقرر قادتنا العظام تحرير (فورموزا) من عصابات شانج كاى شك . وتعلمون أيضا ـ كما أعلم ـ أن أيام هذا الماريشال قد باتت معدودة . فقد عرف منذ سنوات قدر قوة الصين الجديدة ، التى عرفت كيف تطهر أرضنا من هذا القرصان ومن وزرائه الخونة وموظفيه المرتشين !))

وكان فان دروتن قد فهم خطبة الجنرال وراح يلخصها لفرانسيس ، الذى كان يفكر طول الوقت فى شىء آخر غير بلاغة الخطبة .. فقد كان هذا آخر يوم له فى (كانتون) ، وغدا تنتهى رخصة الاقامة المؤقتة ، ويجب ان يعود الى (هونج كونج) .. فلم يكن أمامه اذن وقت طويل للعمل .. **يجب بأى ثمن ـ ان ينبه ((نينا)) الى الخطر الماحق الذى يتهددها. فان المسألة لم تعد تحتمل الانتظار الى حين الحصول على اذن من فان لونج برحيلها ، لان واجبها نحو فان لونج لايقتضيها ان تلزم مكانها الى ان تطبق عليها الشراك . وربما كان الانتظار الى الغد معناه الهلاك !..** وصمم على اخطار نينا، كى تهرب ناجية بنفسها الى داخل كوان تونج ، ثم تبحث عن

وسيلة تذهب بها الى ماكاو ، حيث تغدو فى أمان .. أجل ، ينبغى أن تنفذ هذا العزم منذ الفجر، فلم تعد المسألة مسألة أيام ، بل هى مسألة ساعات فحسب !

وكان العشاء قد انتهى ، فلم يلبث الجنرال ان نهض ، فنهض الجميع ، واتجهوا الى صدر القاعة ، حيث صفت موائد صغيرة من الخيزران ، عليها الاكواب والاقداح .. والتف حول فرانسيس الانجليزى هاريسون والروسى بوريس والهولندى فان دروتن ، الذين أخذوا يتناقلون ذكرياتهم عن الشرق الاقصى . فكان فى وسطهم اشبه بفريسة احدقت بها كلاب الصيد المدربة ، وهى تتلمس ثغرة للنجاة !.. **وفى ركن من القاعة المزينة بالنباتات جلس الجنرال ((كيانج تاو)) - وقد شبع وشرب فوق كفايته - يصغى مسرورا لما كان يهمس به اليه مساعد حكمدار بوليس الامن ، السيد هو وين يو :** ((يا صاحب السعادة . مادام الجو قد خلا لنا الآن ، فاسمح لى ان أقدم لكم بكل احترام نبأ لا شك عندى فى انه سيقع منكم موقع السرور .. فلعله لم يخطر ببالكم أن المصادفة شاءت أن تجدوا فى كانتون شخصية عزيزة !))

- ومن الذى تعنيه بهذا ؟

- انى اعنى بهذا السيدة ((عطر السماء)) !

فبهت الجنرال وقال : ((هنا فى كانتون ؟.. وماذا تصنع ؟))

- لقد عثرنا عليها يا صاحب السعادة . منذ اربعة أشهر .. وهى المشرفة على ادارة ((سفينة الملذات)) ، على ضفة نهر اللؤلؤ .

- مستحيل !.. مستحيل أن تكون ((عطر السماء)) كذلك !

- انها ليست وحدها على السفينة ، بل معها فتاتان هما اللتان ترفهان عن الرواد ، أما هى ، فتستقبلهم فحسب !

- لعمرى .. اننى مازلت أحبها .. اننى أتحرق شوقا للقائها !

- انني أضع تحت تصرفكم زورقا من زوارق البوليس ،

وسأسبقكم بزورقى الى هناك لكى امهد ذهنها ، ونخلى السفينة من الرواد حتى لا يزعجوا خلوتكما السعيدة ..

وحياه السيد « هو وين يو » باحترام وانصرف . فاتجه الجنرال الى رئيس أركان حربه ، وهمس فى اذنه ، ثم تسلل خارجا . وكان فرانسيس يرقب عن بعد تحركات الجنرال . فأسرع يتسلل بدوره ، واندفع نحو السلم ملهوفا ، اذ أنه أيقن أن هذه فرصته الاخيرة لانقاذ « نينا » !

الفصل الرابع عشر

الصقر العجوز « كيانج تاو » !

• **وفى** تلك الليلة، كانت صباح الخير ولؤلؤة التنين تلعبان الورق مع تاجرين من الاثرياء .. وكانت نينا مضطجعة على اريكة فى قمرتها ، فى العتمة ، تستعيد بخيالها تلك الساعات الجميلة التى قضتها فى احضان فرانسيس .. وانتهى بها الخيال السعيد الى نعاس هنىء ..

ونظرت لؤلؤة التنين ـ وكان مجلسها فى مواجهة الضفة اليسرى للنهر ـ واذا بها تقطب حاجبيها ، وتقول : « ها هما زورقان باضواء حمراء ! هل سيقوم البوليس بجولة تفتيشية أخرى فى هذه الليلة أيضا ؟ »

وبعد دقائق معدودة رسا زورق مساعد حكمدار بوليس الامن بجوار « سفينة الملذات » ، وحيا السيد هو وين يو الفتاتين ، واومأ الى لؤلؤة التنين ان تدنو منه ، ليهمس فى اذنها . وسألها عن الرجلين ، ثم قال : « واين السيدة عطر السماء ؟ » . فأجابته : « انها فى قمرتها . هل أدعوها ؟ »

ـ ليس الآن . يجب اولا صرف هذين الرجلين ، لان



شخصية عظيمة الخطورة ستحضر الى هنا !

وذهبت لؤلؤة التنين ، فتحدثت الى التاجرين اللذين كانا ينظران خلسة الى مساعد حكمدار بوليس الامن ، فلم يلبثا ان انصرفا مغادرين السفينة . واذ ذاك أمر مساعد الحكمدار بتنظيف السفينة ، لتكون مهيـأة لاستقبال الزائر العظيم . فسألته لؤلؤة التنين : « ومن هو ياصاحب السعـادة ؟ » . فأجابها : « انه رجل ستسبب رؤيته فرحا عميقا للسيدة عطر السماء ! » .. وما لبث أن وصل الزورق الثانى ، فأسرع هو وين يو نحو الجنرال ليساعده على الصعود الى السفينة . وألقى الجنـرال نظرة على السطح الخلفى للمـاخور ، وقال مازحا : « انها لسفينة رشيقة لتبادل الهوى ! » . ثم أردف :

ــ عظيم ، عظيم !.. هذا لايعنينى . ابلغوا السيدة «عطر السماء» بوجودى .

فقالت لؤلؤة التنين بتردد : «انها نائمة ياصاحب السعادة » . وهنا صاح السيد هو وين يو : « ايقظيها ! .. وقولى لها أن الجنرال .. » . فقاطعه هذا قائلا للفتاة : **« لاتقولى لها اسمى ، فانى أريد أن أفاجئها .. قولى أن قائد الجيش الثالث حضر ! »**

واختفت المرأتان . فجلس الجنرال فى المقعد الكبير الوثير . بينما جلس السيد هو وين يو فى مقعد صغير ، ثم قال : «اننى

كلما فكرت فى أننا ظننا سعادتك قد مت منذ زمن طويل، أجد ماحدث لكم شيئا خارقا للمألوف حقيقة ! » .. فقال الجنرال: « أجل .. والمثل يقول ان المرء لايعيش الا مرة واحدة . أما أنا فأعيش للمرة الثانية ، مع ان العالم كله كان يظننى تحت التراب . حتى النســاء اللواتى أحببتهن والــلائى أحببننى تفرقن فى أنحاء الارض ! ؟ » .. فبادر « هو وين يو » قائلا : «ماعدا السيدة عطر السماء التى كان من حظى أن أعثر عليها!»

ــ هل حدثتك عن مولاها الراحل ؟

فقال السيد هو وين يو الذى كان يجيد ارتجال الاكاذيب: « أوه ! كثيرا جدا ما حدثتنى عنه يا صاحب السعادة ، وبولاء رائع !.. وكم بكتك بدموع غزار ياصاحب السعادة . معأنها كانت تستحيى ان تظهر عواطفها أمامى بطبيعة الحــال ! »

وبينما كان الجنرال ومساعد الحكمدار يتحدثان معا، ذهبت لؤلؤة التنين الى قمرة نينــا ، وايقظتها قائلة : « لقــد وصل السيد هو وين يو ، ومعه ضابط كبير بدين، أمرنى بأن أقول لك أنه قائد الجيش الثالث. والسيد هو وين يو يناديه بلقب صاحب السعادة !» .. **فنهضت نينا بتكاسل ، وأخذت تتزين أمام مرآتهــا الصغيرة ، وأمرت لؤلؤة التنين قائلة : « اذهبى وقولى لهــذا الرجل البدين اننى قادمة ! »** . فأسرعت لؤلؤة التنين نحو السطح الخلفى للسفينة ، وانحنت باحترام عظيم أمام الجنرال ، قائلة : « ان السيدة عطر السماء تتأهب للقدوم يا صاحب السعادة ، وقد أمرتنى ، بأن أبلغ ســعادتكم أنه سيشرفها جدا ان تقابلكم بعد برهة ! »

واذ ذاك نهض السيد هو وين يو ، وانحنى امام الجنرال قائلا : « ياصاحب الســعــادة ، أعتقد انك ترغب فى الانفراد بالسيدة عطر الســمــاء . ولهذا ألتمس الاذن بالانصراف .. وسيكون الزورق والملاح رهن اشارتكم !» وانحنى من جديد حتى كاد يلمس الارض بجبهته مرتين على التوالى ، ثم قفز

الى زورقه وانصرف.. وكانت لؤلؤة التنين قد لحقت بصباح الخير فى قمرتها ، فبقى الجنرال وحده فى مؤخرة السفينة ، ينتظر بفارغ الصبر عزيزته السيدة « عطر السماء » ، التى روت موته وذكراه بالدموع الصادقة !

* * *

• **وأخيرا** ظهرت نينا .. وتقدمت على مهل نحو الجنرال الذى راح يحدق فيها ، وقد حيره ظهور هذه المرأة فى الوقت الذى كان يرجو أن يخلو فيه الى محظيته السابقة .. واذ رآته « نينا » صامتا ، حيته وقالت : « يا صاحب السعادة ، أبلغنى السيد هو وين يو حكمدار بوليس الامن أن قائد الجيش الثالث يرغب فى مقابلتى » . فقال : « ومن أنت ؟ .. وماذا تصنعين هنا ؟ »

ـ أنا ؟ أنا مضيفة « سفينةالملذات » .. مديرتها ياصاحب السعادة !

فمط الجنرال شفتيه شأن المتسامح الذى يفهم المزاح ووضع يديه البدينتين على خديه النديتين بالعرق ، وقهقه ضاحكا ، ثم قال : « هكذا ؟ .. هل نصبت نفسك فجأة مديرة للسفينة ؟ ولى أنا تقولين هذا ؟ هذا مضحك جدا ! »

ولم تفهم نينا شيئا من كلام الجنرال ، فقالت : « نعم يا صاحب السعادة . ويؤسفنى أن السيد « هو وين يو » ليس موجودا هنا كى يقدمنى الى سعادتك رسميا .. أنا السيدة عطر السماء ! » . فكف الجنرال عن الضحك ، وجعل يحدق فى « نينا » بنظرات ثاقبة ، وقال ويداه متشابكتان فوق حزامه : « أأنت السيدة عطرالسماء ؟ » . فأجابته : « أجل! »

وراح يتفحص « نينا » بعينيه الجاحظتين ، وقد بلغت به الحيرة الآن غاية مداها ، وانقلبت أفكاره رأسا على عقب .. فان السيد هو وين يو قد قال لها بنفسه ان السيدة « عطر

السماء » فوق هذه السفينة ، فتحلب لذلك ريقه ، وسال لعابه .. واذا به يفاجأ ـ على ظهر السفينة ـ بشابةمنشورية تزعم أنها السيدة « عطر السماء » . وتريث الجنرال ، فلم يكشف عن أفكاره ، وقال متمشـــيا معها : « ما دمت أنت السيدة عطر السماء ، فأنا أعتــذر ألف مرة لظنى أنك امرأة اخرى .. وسوف أشرح لك لمــاذا رغبت فى مقابلتك هــذه الليلة . فقد حدثنى الســيد هو وين يو عن علاقاتك بأحد زملائى فى جيش الشمال . فهل ترينه كان يخدعنى ؟ »

ـ اطلاقا يا صاحب السعادة . هل التقيت يوما بالجنــرال كيانج تاو ؟

وأغمض الجنرال عينيه ، كمن يبذل مجهودا فى التــذكر ، ومر بيده فوق جبينه برهة ، ثم قال بلهجة طبيعية جــدا : « آه .. الجنرال كيانج تاو ؟ .. كيانج تاو .. طبعا ، طبعا ! هو الذى قتل منذ ثلاث سنوات فى كوريا الشمالية » . فقالت فى أسى : « أجل ، مات فى الميدان وذهب ضحية بطولته . وجميع جنوده يذكرونه كما يذكرون المثل الاعلى للبسالة الخارقة ! »

.. وفى حذر ورفق ، أخذ الجنرال كيانج تاو يستدرج تلك المرأة البارعة فى التمثيل ، كى تتورط فى مزيد من الاكاذيب . وتصنع الاشفاق عليها قائلا : « يا للسيدة عطر الســـماء المسكينة ! .. اننى أشاركك عواطفك ! »

وأطلق الجنرال زفرة عظيمة ، وهو يستطيب ذلك التمثيل ، ثم قال : « يبدو أنك كنت المحظية الاثيرة لدى الجنرال » . فأجابت : « أجل ، وقد بكيته طويلا »

ـ اذن ، فقد كنت تحبين ذلك الصقر العجوز كيانج تاو ؟

فغضت نينا بصرها ، وهى تمثل دور الارملة المفجــوعة ، التى تخجل من الكشف عن عواطفها ، وقالت : « نعم ، كنت أعبده . ولكن يحرجنى أن أتحدث فى هذه الامور أمام شخص غريب . فلا تؤاخذنى ! » . فقال : « اننى لست غريبا تماما ،



فقد كنا زميلين فى الجيش الصينى الباسل ، وكنا طالبين معا أنا وكيانج تاو فى الاكاديمية العسكرية .. ولذا نستطيع أن نتكلم عنه معا بصراحة ! » .. واقترب من « نينا » ، وقد ازداد اتقانا للنفاق المموه . وخفض صوته وهو يسألها : « خبرينى ، بينى وبينك .. أين كنت تشاطرينه فراشه ؟ » . فأجابت : « فى بيبنج يا صاحب السعادة »

— وكم كان عددكن فى بيته ؟

— كنا ، فضلا عن زوجته الاولى الشرعية ، ثلاث محظيات .

— وهل كان كريما جدا معكن ؟

وأخذت أسئلة الجنرال تتطرق الى العلاقات الخفية فى الفراش ، فتصنعت « نينا » الحرج ، وقالت : « لا يليق ، ولا يمكننى أن أحدثك عن هذه الامور ! » ..

— بل تكلمى . تكلمى يا سيدتى عطر السماء فالمسكين الآن تحت التراب . وكم يرضيه أن تتحدثى بمحاسنه للناس !

— أوه يا صاحب السعادة ! انك تسألنى أسئلة محرجة حقا .

— « أليس قد مات ؟ . ان الثناء على الموتى أشبه الازهار التى توضع على قبورهم . والآن قولى لى .. كيف كان ، فانى لم أره لخمس عشرة سنة قبل وفاته ؟ .. أكان بدينا قليلا ؟ »

فقالت : « أجل » . وعاد يسألها : « وفي مثل قامتي ؟ » .. ومرة أخرى ، أجابت : « أجل » . فقال : « لقد كان مشهورا بين زملائه في الجيش بولعه بالنساء .. فهل كان كذلك حقا ؟ » .. فارتبكت ، وتفرج وجهها ، ولكنها قالت تحت الحاحه : « كان عاشقا عظيما ، ومثقفا ، وذكيا في نفس الوقت ! » واستمرأ الجنرال هذا المديح ، واندمج في اللعبة مع « نينا » . ثم غير لهجته ، وتصنع الجد ، وهو يسألها : « أرجو أن تكوني مواظبة على تقديس ذكراه بحسب الشعائر الدينية ! »

ـ لم أكن لاتواني عن ذلك ، لو انني كنت أعرف مثواه . ولذا أحمل دائما القرابين المقدسة الى معبد السحاب الذي تتبعه جميع الجثث المجهولة المقر !

فزفر الجنرال زفرة أليمة . وقال : « هذا شيء مؤثر حقا .. مؤثر جدا .. جدا ! »

* * *

• **لم** يكد فرانسيس يغادر المطعم ، حتى أسرع نحو الشاطيء ، فاستأجر زورقا ، ويمم شطر أسطول سفن الازهار . وكان الليل حالك الظلام ، والمصابيح التي تزين السفن تكون هالات مضيئة فوق الماء ، تسمح لفرانسيس بأن يحدد طريقه .. وراح ـ وهو يجدف ـ يدبر خطته .. ولكي لا يلفت اليه الانظار في السفينة ، قرر أن يتسلق المقدمة ، وهي عادة غير مضاءة بالمصابيح . وكان يعلم أن الكوة الثانية من المقدمة ، تفضي الى قمرة نينا الخاصة ، فوقف بزورقه تحت تلك الكوة مباشرة ، وقد عول أن يتسلل الى داخل القمرة ، ثم ينتهز أية فرصة لاشعار « نينا » بوجوده واخبارها بالخطر الذي تتعرض له بين لحظة وأخرى . **ثم يحملها في زورقه الى (شامين) ويعهد بها الى السيدة ينج نينج التي**

ستقدر الموقف حق قدره ، وتدبر لهما أسباب الفرار ، حتى لا يفتضح أمرها .. أما هو فسوف يعود الى بيت مضيفه السيد فان دروتن .

وقبل أن يقفز خلال الكوة ، سمع من فوق السفينة لغط حديث ـ باللغة الصينية ـ فى المؤخرة ، فاعتقد أن هناك روادا عاديين . وظن أن اللحظة مناسبة كى يتسلل الى السفينة ، فتعلق بالكوة ، وتسلل الى القمرة . ثم فتح الباب المفضى الى الدهليز ، ووقف يترقب مرور « نينا » كى يشير اليها ويدخل معها الى قمرتها . ولكنها كانت مشغولة مع زوارها ، فظل ينتظر وقد عزم على أخذها فورا ـ عن طريق الكوة ـ الى الزورق ليهربا تحت ستار الظلام !

وفى هذه الاثناء ، كانت الخلوة مستمرة بين « نينا » والجنرال كيانج تاو ، الذى كان يؤدى دوره بمهارة عظيمة ، وكأنه ممثل عريق .. الى أن اكتفى من التمثيل ، فغير لهجته ـ مرة أخرى ـ واستخدم اللهجة العسكرية التى تفرض السيطرة والطاعة . وسأل نينا فجأة : « ما دمت المحظية الاولى للجنرال كيانج تاو ، فلا بد أنك رأيته على طبيعته فى الخلوة .. أعنى الحالة التى يوجد عليها رجل وامرأة تحت تأثير الغرام ! » . فقالت نينا : « طبعا يا صاحب السعادة ، ولكن لماذا تسألنى هذا السؤال ؟ »

ولم تكن نينا بحاجة الى فطنة شديدة لتحس بالخطر فى لهجة الرجل الذى دخل فى ميدان حافل بالمزالق والشراك . واستطرد الرجل بلهجته الحازمة : « **ستفهمين مرادى ياسيدتى عطر السماء فورا .. أعنى أنك رأيت مولاك الراحل متخففا من ثيابه ، بل وعاريا فى بعض الاحيان فيما أظن .. فلا بد ـ فى هذه الحالة ـ انك لاحظت شيئا خاصا فى جسمه ..** » .

وشعرت نينا على الفور بقطرات العرق تتجمع تحت شعر عارضيها ، فقد كانت هذه النقطة ـ للاسف الشديد ـ مما

نسى أساتذة مدرسة الجاسوسية فى (فورموزا) أن يحسبوا حسابها . وبذلت مجهودا أخيرا كى تتحاشى السؤال والجواب، فتصنعت الخجل والارتباك ، وقالت فى تذلل : « آه ياصاحب السعادة ! .. لا أستطيع أن أحدثك فى أشياء من هذا القبيل .. أشياء خاصة جدا ! » .. ولكنه ألح فى اصرار . ولما فرغ صبره ، قال بصراحة : « قولى أية علامة كانت على صدر الجنرال .. هنا ! .. اننى آمرك ! »

ــ لا تسألنى .. رحماك !

ــ لقد كان الجنرال كيانج تاو يحمل فوق موضع القلب وشما باللونين الاخضر والازرق ، يمثل كف بوذا ، وقد اتجه أصبعاه الاوليان نحو خط الزوال !

وفجأة ، فتح الجنرال قميصه ، فرأت « نينا » الوشم الازرق والاخضر ! .. وأحست بركبتيها تتخاذلان من تحتها .. وبذلت جهدا جبارا لتظل واقفة تنظر كالمشدوهة الى شبح خرج من القبر ، وتمثل فى ذلك الرجل البدين القوى المخيف ، الذى كان يواجهها ــ اذ ذاك ــ وقد عقد ذراعيه فوق صدره ، صائحا : « ان الجنرال ــ على عكس اعتقادك ــ لم يمت .. أجل ، أن الجنرال كيانج تاو هو الذى يكلمك الآن شخصيا . ومنذ نصف ساعة وأنا أسمع منك سلسلة من الاكاذيب تتساقط حلقاتها من فمك كالحبوب السامة .. منذ نصف ساعة وأنا أسمعك ترددين لى ما لقنوك اياه عنى . ولكن من هم الذين لقنوك ذلك ؟ .. هذا ما سنراه ! » .. وأرادت نينا أن تخفف من حدة غضبه فقالت : « لا تحكم على ياصاحب السعادة ، قبل أن تعلم .. » . فقاطعها قائلا : « قبل أن أعلم ماذا ؟ .. قبل أن أعلم انك امراة حقيرة تزعم أنها محظيتى مع انها لم ترنى فى حياتها ؟ »

ــ انى أعترف بجريرتى يا صاحب السعادة ، ولكن لاتتهمنى بنوايا اجرامية . لقد كنت فقيرة ، بائسة ، فاردت أن أكسب

قوتى بأمانة . وقد قالوا لى اننى أشبه السيدة « عطر السماء » ، فكانت غلطتى أن اتخذت لنفسى شخصية حبيبتكم كي أظفر من السلطات بتصريح لادارة هذه السفينة .. وهذا كل ما فى الامر !

فصاح : « وهذه جريمتك الكبرى فأنا لا أصدق أسطورة فقرك وحاجتك ، اذ أن البوليس ذكر لى أن هذه السفينة يتردد عليها ضباطنا ، فهى مكان صالح جدا لالتقاط الاحاديث التى تنساب عفوا ، وجمع المعلومات المفيدة لعصابات فورموزا التى تقاتل تحت لواء تشانج كاى تشيك » . واذ ذكر اسم عدوه ، بلغ غضبه القمة ، واحمرت عيناه وهو يثبتهما فى « نينا » بهياج وحقد ، فكأنه صورة مجسمة للشيطان الذى تزدان به بعض المعابد ، رمزا لآلهة الشر التى تهيمن على الاوبئة والكوارث والمذابح والحروب . واعتقدت نينا أنه سيقتلها فى الحال ، فتراجعت قليلا قليلا نحو الدهليز المفضى الى قمرتها .. فتسلطت عليها نظرات الجنرال الذى تقدم فى أثرها ، باسطا يديه ، وقد تشنجت أصابعه مثل مخالب الصقر !

* * *

. **وكان** فرانسيس يقف فى فرجة باب القمرة — فى عرض الدهليز — حين سمع احتداد لهجة الحديث . وعلى ضوء ذبالة ساهرة فى الدهليز ، رأى نينا تتراجع مذعورة ، متجهة نحوه بظهرها ، والجنرال كيانج تاو يتقدم فى بطء . **فتوارى فرانسيس الى أن تجاوزته نينا متقهقرة فى الدهليز ، وترك الجنرال يتقدم خطوة أخرى ، ثم قفز خارج القمرة ، ورفع فى يده مقعدا خشبيا صغيرا ، وجذب به مؤخرة رأس الجنرال الصينى فهوى على الارض فاقد الرشد !**

ولم تفقه نينا — فى غمرة الذعر — كنه هذا التدخل الذى أنقذها ، الى أن سمعت صوتا يناديها قائلا : « نينا ! نينا ! لا

تخافى ! » .. فارتمت بين ذراعى فرانسيس ، وانفجرت تبكي بكاء هستيريا ، بذل الطيار جهده كى يخفف من حدته فوق فراش القمرة .. وجعل فرانسيس يهمس لها ، وهى تجهش بالبكاء : « لا تخافى ، سندبر كل شيء ! .. كنت أعرف الخطر الذى يتهددك ، لاننى حضرت الليلة مأدبة ضباط الحامية للجنرال الجديد ، فلما عرفت حقيقة شخصيته ، أسرعت الى هنا ، ولكن .. بعد فوات الاوان للاسف الشديد . فقد كنت أريد أن أنذرك بالكارثة قبل وقوعها كى تهربى ! »

— لقد هلكنا نحن الاثنين ، يا فرانسيس !

— لا تقولى هذا ، فان الجنرال سيظل فاقد الوعى ساعة أو ساعتين . ولن يحضر أحد قبل انبلاج الصبح ليبحث عنه ، لعلمهم بأنه سيقضى الليلة هنا معك ، والآن خبرينى ، كيف حضر الجنرال ؟

— مع هو وين يو ، الذى انصرف على الفور فى زورقه ، تاركا للجنرال زورقا آخر ينام فيه ملاحه الآن ، فى انتظاره !

— وأين هذا الزورق ؟

— هناك فى الناحية الاخرى من السفينة .

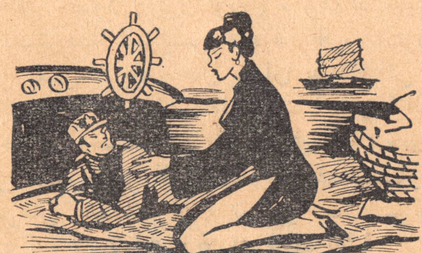
ونهض فرانسيس وأطل فوجد الملاح نائما ، وعاد الى نينا فى القمرة وقال لها : « ان وجودنا فى كانتون معناه الموت ، يا حبيبتى .. أى تأخير معناه الموت ، فيجب أن نهرب . ووسيلتنا الوحيدة هى زورق البوليس ! » . فصاحت نينا مأخوذة : « هل أنت مجنون ؟ » . ولكنه قال فى هدوء : **« مهلا ! ايقظى الملاح وقولى له بلسانه ان صاحب السعادة كلفك بالذهاب لاحضار راقصة تقضى الليلة معكما على ظهر السفينة .. واننى صديق للجنرال مكلف بأن أصحبك فى هذه** المهمة ! » فهتفت فى قلق : « ثم ؟ » . فأجاب : « ثم اركب معك ، فتسنح لى الفرصة لتوجيه الزورق » . فعادت تتساءل : « فى أى اتجاه ؟ »

ـ فى اتجاه (كون لون) ، طبعا . وأؤكد لك يا عزيزتى أن هذه هى فرصتنا الوحيدة للنجاح

ـ **والملاح ؟** ـ دعى هذا لى !

الفصل الخامس عشر

خمسمائة دولار ، أو الموت !



• **ربتت** « نينا » كتف الملاح النائم فى زورق البوليس ، فرفع رأسه على الفور ، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى امرأة جميلة تبتسم له فى بهمة الليل ، وأبلغته «نينا» ـ باللغة الصينية ـ الرسالة التى كلفها بها الجنرال ، فبادر برفع المرساة وفك الحبال . وفى تلك الاثناء ، قفز فرانسيس الى الزورق . فقالت نينا للملاح أنه كولونيل روسى صديق للجنرال . فظهرت على الملاح علائم الفطنة وقال لنينا باسما : « اذن ، فمن أجل سيادة الكولونيل سنذهب لاحضار هذه الراقصة ؟ .. اننى أعرف راقصة حسناء فى شمال شامين ، فهل تريدين أن .. ؟ »

ـ **لقد ذكر لنا صاحب السعادة عنوانا معينا . فاتجه**

بالزورق نحو الجنوب . وسوف ندلك على الموقع ..

وأدار الملاح المحرك ، واتجه جنوبا نحو المصب . نحو البحر . وكان تيار النهر يضاعف من سرعته ، فلما طوى الزورق حوالى ثلاثين كيلو مترا ، التفت الملاح وسأل : « هل اقتربنا ؟ » . فقالت نينا : « كلا .. استمر ! » . واستأنف السير فى دهشة . حتى أذا ابتعد الزورق تماما عن (كانتون) مال فرانسيس على اذن نينا ، وأخذ يقول لها بالفرنسية، التى لم يكن الملاح يفهمها : « لا بد الآن من عمل حاسم ، فنحن نقترب من خط حدود (كون لون) ، وهناك سيتوقف الملاح عن السير ويستوقفنا البوليس فيعيدنا الى كانتون . كما أن هذا الملاح لن يقبل — بأى حال — أن يقودنا الى هونج كونج فى المياه الانجليزية ! » . فتساءلت نينا : « وما العمل ؟ »

— هناك حلان : أحدهما أن ألقى به فى الماء ، ونهرب نحن فى الظلام فنصل عند الفجر الى الحدود ، فنحاول اجتيازها بالزورق مسرعين رغم النيران ، تاركين مصيرنا للحظ .. **وهى مخاطرة كبيرة ، لا أحب أن أعرضك لها !**

وقالت نينا : « والحل الآخر ؟ » . فأجاب ببساطة : « ان نكسب الملاح الى صفنا » . وعادت تتساءل : « وكيف ؟ » . فأجاب : « بالارهاب أو بالترغيب . ولعلك نسيت أننى اختلست من حزام الجنرال مسدسه .. فلنقم الآن معا ، ونقف وراء الملاح ، وكأننا نتفرج على الزوارق التى نمر بها . **وعلى حين غرة ، سألصق فوهة المسدس فى ظهره ، وستترجمين له بالصينية ما أقول لك ! »**

ونهضت نينا ، فأخرج فرانسيس المسدس خلسة من جيب سترته . وبعد ثوان أومأ بيده الى زورق شراعى ، وكأنه يسأل عن شىء . وفجأة غرس فوهة المسدس بين ضلوع الملاح . وشرعت نينا تترجم لهذا أوامر فرانسيس : « استمر فى طريقك ، ويداك على عجلة القيادة ! » . وعاد فرانسيس يقول:

« قولى له أيضا ، اننى سأصرعه اذا قاوم برصاصة فى القلب!» . .
وترجمت نينا هذه العبارة ، فأطاع الملاح دون ان يتكلم ، بينما راح فرانسيس يفك حزام الرجل ـ بيده اليسرى ـ وأخذ مسدسه فألقاه فى الماء ، وقال لنينا : « لقد أصبح الآن أعزل من السلاح ، فاسأليه : هل يفضل الموت غرقا فى قاع نهر اللؤلؤ ، أو الخروج من جمهورية الصين وقبض خمسمائة دولار أمريكى فى مدينة هونج كونج » . وترجمت نينا عبارات فرانسيس ، ثم نقلت الجواب لهذا : « أنه يقول انه لا يريد أن يموت ، وانه يقبل الخمسمائة دولار أمريكى فى هونج كونج شاكرا ممتنا . ولكنه يود الحصول على وعد باعتباره لاجئا سياسيا ، له حق الاقامة هناك ! »

ـ قولى انى أعده بالحصول على حق الاقامة الدائمة .

وترجمت نينا ذلك الكلام ، ثم ترجمت اعتراضات الملاح :
« انه يقول أيضا أن من الصعب عليه اجتياز خط الحدود ، لوجود أسلاك تعترض مجرى النهر وزوارق للحراسة تابعة لبوليس الامن » . . فقال فرانسيس : « قولى له اننا عندئذ سنختبىء تحت مقاعد القمرة ، وعليه أن يذكر لزملائه حراس الحدود أنه يحمل رسالة من الجنرال قائد الجيش الثالث فى (كانتون)، ولا بد له من قضاء ساعة فى كون لون ! » . .
واستمر الحوار بضع دقائق ، بين الفتاة والملاح ، ثم التفتت الى فرانسيس ، وقالت : « انه يقول ان أمر الجنرال كيانج تاو لا بد أن يكون كتابيا ليقتنع به حراس الحدود. وهناك كراسة مذكرات عليها شعار بوليس الامن داخل القمرة ، يمكن أن نستخدمها فى كتابة الامر . ولكنه سوء الحظ لايعرف الكتابة ؟»

ـ لا بأس . اكتبى أنت الامر ، فانك على المام بالكتابة الصينية

ودخلت نينا الى القمرة فأوقدت مصباحا صغيرا ، ثم خطت على ورقة بيضاء خطوطا رأسية حمراء ، هى عبارات

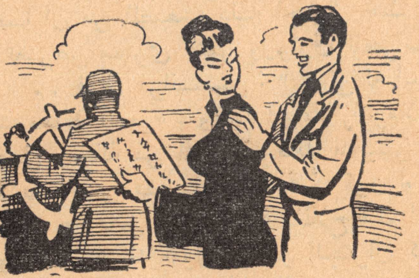
الرسالة الرسمية المزعومة ، وعادت الى فرانسيس الذى كان جالسا خلف الملاح والمسدس فى يده ، وراحت تتلو عليه ما كتبت تحت عنوان **((أمر ادارى)) :**

((أمر الى ملاح زورق بوليس الامن رقم ٣ ، بالتوجه الى شون شون فورا ، لاحضار الحقائب الشخصية الخاصة بصاحب السعادة الجنرال كيانج تاو ، قائد الجيش الثالث فى كانتون ـ **هو وين يو ، مساعد حكمدار بوليس الامن))**

ـ هذا رائع يا يمامتى الصغيرة !

ـ من حسن الطالع اننى أعرف اسم هو وين يو . وهذا سيعزز قيمة الورقة التى كتبتها .

وأسلما الورقة الى الملاح ، الذى أخبرهما بأن القارب سيصل بعد ساعتين ـ أى قبيل الفجر ـ الى المنطقة الخطرة .. وجلست نينا وفرانسيس فى المؤخرة متلاصقين ، يتهامسان



ويتبادلان الآمال، والمخاوف .. كانا يخشيان أن يخفق كل شيء فى آخر لحظة ، اذ أن كل شيء كان متوقفا على ما يدور الآن فى كانتون .. **فاذا لم يكن أحد قد فطن الى طول غياب الجنرال، واذا لم يجد أحد غرابة فى أن يظل طوال فترة الصباح مع حظيته السابقة ((عطر السماء)) ، فلن يكون لدى مراكز الحدود أى انذار بالبحث عنهما !**

وفجأة قفزت نينا عن مقعدها ، ونظرت محملقة فى وجه فرانسيس وقالت :

ــ لقد نسينا لؤلؤة التنين وصباح الخير .. من المستحيل أن تكونا قد بقيتا طول الليل فى قمرتهما ، اذ أن من عادتهما أن تحضرا ــ بعد انصراف الزائرين ــ لتبادل بضع كلمات معى ، ولتناول الاقداح الاخيرة من الشاى .. **لسوف تدركان ــ حين يسود الهدوء سطح السفينة ــ اننى صرت وحدى ، فتذهبان الى قمرتى ، وتكتشفان الجنرال ملقى على الارض فى الدهليز !**

وشاطر فرانسيس نينا قلقها ، وهمس قائلا : « وماذا تظنينهما ستفعلان ، حين تكتشفان الجنرال فاقد الرشد ؟ » .

فأجابت : « ستطلقان الصراخ الثاقب ، وتهرعان لايقاظى . فاذا وجدتا القمرة خالية منى ، فسوف تصرخان لايقاظ نساء السفن الاخرى .. ولك أن تتصورى الاثر الذى سيحدثه هذا الضجيج فى السفن كلها ، وكيف ستقوم المدينة وسلطاتها وتقعد لان الجنرال قائد الجيش الثالث وجد مغشيا عليه فى احدى سفن الازهار ! »

ــ وفى أية ساعة تعتقدين أن ذلك يمكن أن يحدث ؟

ــ لقد حضر الجنرال فى نحو الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة . وتحدثنا معا مقدار نصف ساعة . وبفرض أن لؤلؤة التنين وصباح الخير تركتا لى أربع ساعات ، ريثما أفرغ من زائر رفيع الشأن كالجنرال ، فمن المرجح أن تكتشفا وجود الجنرال على الارض فى نحو الرابعة صباحا .. فكم الساعة الآن يا فرانسيس ؟

ــ الرابعة وعشرون دقيقة .. أن حياتنا تتوقف الآن على السرعة التى تبلغ بها الاوامر الى الحدود لضبط الهاربين !

ــ لقد بدأ الفجر ينبثق .. انظر الى رؤوس الجبال من جهة الشرق ...

ـ سلى الملاح ، هل امامنا مسافة طويلة ؟

وقبل أن تسأل نينا الملاح ، التفت هذا اليهما وقال باهتمام : « كونا على حذر ، فها هو ذا زورق من زوارق الحدود ، على مسافة كيلو متر الى اليمين . أختبئا بسرعة .. هيا ! » . وترجمت نينا لفرانسيس الاوامر .. واختفيا تحت المقاعد ، وأرخيا الاغطية فوقهما . **واصبحت حياتهما الآن فى كف القدر ..** وجعل فرانسيس يرهف أذنيه ، فلاحظ أن آلات الزورق أبطأت فى حركتها ، مما نم عن أن الملاح قد خفف من السرعة ، بعد أن تلقى اشارة ضوئية من زورق الحراسة . ثم سكتت الآلات تماما ، واستقر الزورق فى موضعه لا يتحرك . واقترب صوت زورق آخر وازداد وضوحا ، ثم سمع فرانسيس نداءات تنبعث خلال بوق ، فأجاب الملاح بدوره ، خلال بوق لتضخيم الصوت . واهتز الزورق ، فأدرك فرانسيس أن الزورق الآخر قد رسا بجواره .. **ودارت بعد ذلك مناقشة ، كانت مدتها عذابا شديدا للهاربين المختفيين ! .. فقد تصور فرانسيس الملاح وهو يقدم المذكرة الى الجندى الحارس فى الزورق الآخر ، ثم تخيل الحارس يقول له أن الخطاب غير مختوم بالخاتم الرسمى ، وان نقط الحدود لم تتلق أى خبر سابق عن هذه المهمة !**

وخيل اليه أن تلك المناقشة لن تنتهى . ولكنه اطمأن ، عندما تذكر أن الملاح لم يكن بحاجة الى اطالة النقاش ، لو أنه أراد أن يشى بهما . وما لبث أن سمع ـ أخيرا ـ صوت هدير المحرك فى الزورق الآخر ، وهدير المحرك فى زورقهما ، الذى سرعان ما استأنف سيره . فتنفس الصعداء . ثم سمع كلمة تنطلق من زورقهما ، أجابتها قهقهة ضحك من الزورق الآخر ، ورفعت « نينا » الاغطية عن وجهها ، وقالت له : « أتدرى ماذا يقول ؟ . لقد قدم للحارس مذكرة البوليس المزعومة ، فنظر فيها الحارس وهى مقلوبة ، وقال : « لقد نسيت نظارتى

الليلة . اقرأ لى أنت ما فيها » ! .. فأوضح له ملاحنا المسألة بقدر استطاعته ، لانه الآخر لا يعرف القراءة .. وتناقشا مناقشة شكلية ، ثم سمح له الحارس باستئناف المسير ! »

ــ ولكن لماذا ختمت المناقشة بهذه القهقهة العالية ؟

ــ لان أحدهما عير الآخر بعاهته . وهى جهل القراءة ..

ــ ما أشبه هذا بسخرية الخنفساء من الصرصار !

وانطلقا ضاحكين ، وقد سرى عنهما لاول مرة بعد هذه المحنة .. فمع أن الانذار قد يصل بعد نصف ساعة الى نقطة الحدود ، الا أن ذلك سيكون بعد فوات الاوان .. اذ كانت مشارف هونج كونج قد أخذت تلوح فى ضوء الفجر الوردى ، وقد ارتسمت رؤوس الجبال بيضاء ورمادية على تلك الصفحة البديعة من أشعة الشروق ، التى تخترق الضباب الكثيف ، وتوشى أطراف السحب بمثل الهالات التى تتوج رؤوس القديسيين فى صور الرسامين الطليان !

***

• **وصل** رجل فى ثياب مدنية لتسلم نوبة عمله فى مكتب ادارة الميناء .. وكان هذا الرجل هو « هـ . و . بيرتون » ، موظف الجوازات ، الذى لم يكد يفرغ من حشو غليونه ، حتى تناول ــ كعادته كل صباح ــ منظاره المقرب ، وجعل يستعرض السفن الراسية فى الميناء ، وحركة الدخول اليها والخروج منها ..

ولفت نظره زورق بخارى صغير يسير ببطء شديد ، ويبحث فيما يلوح عن موضع يرسو فيه . وعرف على الزورق علامات بوليس الامن الصينى . ولم يكن مألوفا أن تأتى الى مياه هونج كونج الانجليزية زوارق البوليس الصينى الشيوعى .

فتولت الحيرة مستر بيرتون ، ورفع مسماع التليفون فطلب بوليس الميناء ، كى ينبهه الى هذه الظاهرة .. وان هى الا ساعة ، حتى دخل مفتش بوليس الى مكتب مستر بيرتون ،

وخلفه موكب ثلاثى تألف من رجل أوروبى بلا قبعة ، وصينية حسناء فى ثوب وردى مشجر ، ورجل من رجال بوليس الامن الصينى فى كانتون ، لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الانجليزية.
وقال مفتش البوليس : « لقد قبضنا على هؤلاء بمجرد رسوهم عند الرصيف رقم ٧ .. وسألناهم عن اوراقهم . فأعطانى هذا السيد جواز سفره الفرنسى ، وتصريحا مؤقتا بالاقامة فى كانتون لسبعة أيام . أما هذه المرأة الصينية فلا تحمل أوراقا من أى نوع . كما أن هذا الجندى قال لنا كلاما ترجمته المرأة الصينية ، مؤداه انه هارب من كانتون لينجو بحياته من الاعدام ، ويطلب اعتباره لاجئا سياسيا فى (هونج كونج) .. وانى أترك بين يديك هذه القضية ، وأترك لك حل ألغازها ! »

وصرف بيرتون مفتش البوليس ، وأجلس الثلاثة ، ثم بدأ يفحص أوراق فرانسيس . وبعد أن تصفح جواز سفره ، وقرأ فيه أنه طيار ، سأله بعض الايضاحات ، فقال فرانسيس : « اننى ملازم سابق فى سرب اللورين ، الملحق بالسلاح الجوى الملكى البريطانى .. وحامل وسام اللجيون دونير ، وصليب الخدمة الممتازة » .. وكان لذكر هذا الوسام الانجليزى أثر كبير فى نفس مستر بيرتون . **فوضع غليونه على المكتب ، ومال الى الامام وقال باسما : « انك أمام رفيق قديم فى السلاح يا سيد أرنولد ، فأنا الملازم الطيار بيرتون ، من سلاح الطيران الملكى البريطانى ! » .. وراحا يتبادلان أسماء معارفهما من الطيارين ، وكأنهما صديقان قديمان التقيا فجأة بعد غيبة طالت عشر سنوات !**

وبعد أن استعرضا معا ذكريات الغارات على المانيا بالقلاع الطائرة ، سأله مستر بيرتون قائلا : « الآن ، أرجو يا سيد أرنولد أن تفسر لى وصولك بهذه الصورة الى هونج كونج ، مع هذه السيدة الصينية وهذا الشرطى الصينى الذى يلوح لى أنه هارب من حكومته ! » .. فروى فرانسيس له جانبا

من مغامرته فى كانتون ، دون أن يشـير ـ طبعا ـ الى الدور الذى كانت تؤديه نينا على متن « سفينة الملذات » . ثم ختم كلامه بقوله : « وعلى كل حال ، اذا كنت بحاجة الى ضمان ، فاطلب تليفونيا السيد فان لونج ، مدير الشركة الاسـيوية للاستيراد والتصدير »

وبادر بيرتون الى ابلاغ السيد فان لونج وجود فرانسيس عنده ، ومعه الآنسة نينا وونج . فقال السيد فان لونج أنه يضمنهما ضمانة كاملة شاملة . ثم تحـدث الى فرانسيس تليفونيا ، قائلا : « ان وصولك فى المـدة المقررة أمر طبيعى ، ولكنى لا أفهم سبب وصول الآنسة وونج معك ! »

ـ اذا تكرمت باستقبالنا ، شرحنا لك كل شىء !

ـ احضر اذن الى دارى فى الثانية بعد الظهر

ووعد السيد بيرتون بأن يعنى بشأن الشرطى الصينى قائلا أن سلطات هونج كونج لن تتوانى فى منحه حقـوق اللاجىء السـياسى !

وفى الساعة الثانية ، دخلت نينـا مع فرانسيس الى قاعة الجلوس بدار فان لونج ، فوجداه فى انتظارهما عـلى أحر من الجمر ، ولما سمع القصة ، قال : « اذن ، فخلاصة الموضوع ان وجودكما هنا أمامى الآن ، انما هو توفيق خارق للعادة ، نتيجة محالفة سعيدة بينكما وبين الحظ . **ولا بد أنهم يقلبون كانتون كلها رأسا على عقب بحثا عنـكما الآن .. ولا بد أن العجوز المسكينة ينج نينج تعانى مع لؤلؤة التنين وصباح الخير ألوان النقمة كلها ! »** .. ثم تحول الى نينا قائلا : « وانت يا آنسة وونج ! .. لقد كنت ضحية مصادفة نادرة ، لا تحدث الا مـرة فى كل ألف مـرة .. فلقـد أعلن مـوت الجنـرال كيانج تاو رسميا ، ونشرت صحف بيبنج مصرعه فى كوريا ، وكان رؤساؤه فى هيئة أركان الحرب على يقين من هـذا .. لهذا لم يخطر بأذهان أصحابنا فى (تايبه) أن تجدى نفسك

يوما أمام « المرحوم » وجها لوجه ! .. والحق أن جرأة السيد أرنولد وسرعة بديهته ، هما اللتان انتزعتاك من براثن موت محقق .. وكان فقدك خليقا بأن يحزننا جدا ، لانك أديت خدمات عظيمة جدا لنا ، بما قدمته من معلومات ثمينة ، ولما لك من خبرة وفطنة نادرتين ! »

ولم يكن من عادة السيد فان لونج أن يكثر فى الكلام ، ويطنب فى المديح . ولذا فقد قال له فرانسيس : « **والخلاصة يا سيد فان لونج اننا — الآنسة وونج وأنا — لا نستطيع أن نخدمكم فى كوان تونج فى الوقت الحاضر . فنرجو أن تسمحوا لنا بأجازة نقضيها فى أوروبا لتسوية بعض مسائل خاصة . واذا تراءى لكم فى المستقبل اننا نستطيع أن نؤدى لكم خدمة فى مكان آخر غير كوان تونج ، فنرجو أن تخطرونا ! »**

ونهض السيد فان لونج ، وأجابه باخلاص وحرارة : « لن يكون شىء أحب الى نفسى من تحقيق امنيتكما هذه . وأؤكد لكما اننى سأفقد بسفركما اثنين من أصدق وأبرع المتعاونين معى .. وانى أتمنى لكما أطيب وأخلص التمنيات بالسعادة والتوفيق ! »

* * *

• **كان** فرانسيس ونينا مستلقيين جنبا الى جنب على كرسيين طويلين من القماش ، فوق السطح العلوى للباخرة الفاخرة التى استقلاها ، فى طريقهما الى مرسيليا ، وقد أزفت ساعة الاقلاع ، وشمس الاصيل قدنفضت أرديتها الارجوانية المذهبة على البحر المترامى الاطراف .. وصمت فرانسيس ونينا أمام هذا الجمال الرائع الذى لا نظير له فى الدنيا .. وكانا قد قررا الاقامة فى فرنسا ، والزواج هناك .

وقال فرانسيس : « يا يمامتى الصغيرة ! .. عندما يخاطر رجل بحياته ، لانقاذ حياة امرأة ، الا يحتم عليها الذوق أن

تشاطره حياته ومتاعبها ؟ » .. فألقت نينا بنفسها بين أحضانه قائلة : « **يا حبيبى ! .. عندما تدين امرأة لرجل وسيم شجاع بحياتها ، فأقل ما تستطيعه هو أن تشكره أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، فى كل يوم من أيام عمرها ! »**

وراحا – كغلمان المدارس – يضعان الخطط للمستقبل القريب . وكانت نينا تحس بأنها مقدمة على دخول عالم عجيب ، غير عادى .. عالم جديد عليها ، وهى التى لم تعرف الا عالم المعابد والهياكل والاصنام النحاسية والحجرية التى تمثل « بوذا » البدين الباسم ، والبساتين المسورة بالجدران العالية ، وحقول الارز المتشابهة ، والاعياد الدينية التى يحوطها جو السحر والطلاسم ! .. وشاعت فى نفسها سعادة أدفأت قلبها ، وهى تضغط كف فرانسيس بين كفيها ، وتهمس فى أذنه بصوت ضعضعه الهيام : « يا حبيبى المعبود ! كم أنا سعيدة .. الى درجة الجنون ! »

وتناول فرانسيس اليد التى كانت تضغط على أصابعه برفق ، وغمغم مفتونا : « يا يمامتى الجميلة ، اننى أسعد رجل فى العالم ! »

ودوت صافرة الباخرة ايذانا بالرحيل ، فرددت الجبال القريبة صدى ذلك الصفير ، وكأنها تودع الراحلين بصوت نائح النبرات . ثم تصاعدت أعمدة البخار من السفينة الى السماء ، فخيل الى فرانسيس أنها توجه وداعا ساخرا الى الجنرال كيانج تاو !

« تمت »



سفينة الملذات

إن سفن الزهور من أعجب الطرائف فى الصين .. فعلى نه[illegible]لؤلؤ) [illegible] كانتون) ، ترسو سفن عائمة حافلة بأبدع نماذج الجمال الصينى .. وفى [illegible] العائمات ، يحظى الزائر بجو شاعرى ، وبألوان من اللهو والملذات ، لا قبل لرباها فى أ[illegible]كان آخر من العالم ..

ولكن الأطماع السياسية ، والحرب الباردة التى تجتاح العالم فى هذه الأيام ، ا[illegible]كست على جو هذه "العائمات الحالمة" ، فأصبحت أوكارا للجاسوسية وللمؤامر[illegible]ت التى تكتنف الصراع الدائر بين (فرموزا) و (الصين الشعبية) ..

ومن هذا الجو الفريد ، الحافل بالملذات وبالغموض وبأعنف المغامرات ، استمد الروائى الفرنسى ذو الصيت العالمى "موريس ديكوبرا" - الذى قضى عشرين عاما فى ارتياد القارة الآسيوية ، من قناة السويس حتى شمال اليابان - أحداث هذه القصة المشوقة ..

واستطاع بأسلوبه البارع أن يتيح للقارئ ساعات يعيشها بين أعنف مغامرات الحب الشاعرية ، وأعنف مخاطر الجاسوسية والمؤامرات !



يصدرها حلمى مراد

مطبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩